سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّامن

ندقيق
أسعد جمعة

دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الثّامن

سورة هود

- رقمها لسانه -

سورة هود
- عليه السلام -

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ 12 و 17 و 114 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ يُونُسَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ
مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]

﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[2]: نُظِمَتْ نَظْمًا رَصِينًا مُحْكَمًا، لَا يَقَعُ فِي نَقْضٍ وَلَا خَلَلٍ، كَالْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُرَصَّفِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَقْلًا بِالْهَمْزَةِ، مِنْ "حَكُمَ" بِضَمِّ الْكَافِ، إِذَا صَارَ حَكِيمًا، أَيْ: جُعِلَتْ حَكِيمَةً، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[3].

وَقِيلَ: مُنِعَتْ مِنَ الْفَسَادِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَحَكَمْتُ الدَّابَّةَ إِذَا وَضَعْتَ عَلَيْهَا الْحَكَمَةَ لِتَمْنَعَهَا مِنَ الْجِمَاحِ.

قَالَ جَرِيرٌ:

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة لُقْمَانُ، الآية 22.

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

وَعَنْ قَتَادَةَ: أُحْكِمَتْ مِنَ الْبَاطِلِ.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[1]: كَمَا تُفَصَّلُ الْقَلَائِدُ بِالْفَرَائِدِ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَالْأَحْكَامِ، وَالْمَوَاعِظِ، وَالْقَصَصِ، أَوْ جُعِلَتْ فُصُولًا، سُورَةً سُورَةً، وَآيَةً آيَةً، وَفُرِّقَتْ فِي التَّنْزِيلِ، وَلَمْ تَنْزِلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً، أَوْ فَصَّلَ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ، أَيْ: بَيَّنَ وَلَخَّصَ، وَقُرِئَ: "أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ": أَيِ أَحْكَمْتُهَا أَنَا ثُمَّ فَصَّلْتُهَا.

وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ: "ثُمَّ فَصَلَتْ"، أَيْ: فَرَّقَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾[2]؟

قُلْتُ: لَيْسَ مَعْنَاهَا التَّرَاخِيَ فِي الْوَقْتِ، وَلَكِنْ فِي الْحَالِ، كَمَا تَقُولُ: هِيَ مُحْكَمَةٌ أَحْسَنَ الْإِحْكَامِ، ثُمَّ مُفَصَّلَةٌ أَحْسَنَ التَّفْصِيلِ، وَفُلَانٌ كَرِيمُ الْأَصْلِ، ثُمَّ كَرِيمُ الْفِعْلِ.

وَكِتَابٌ: خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَ﴿أُحْكِمَتْ﴾[3]: صِفَةٌ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4] صِفَةٌ ثَانِيَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ، وَأَنْ يَكُونَ صِلَةً لِ ﴿أُحْكِمَتْ﴾[5] وَ﴿فُصِّلَتْ﴾[6]، أَيْ: مِنْ عِنْدِهِ إِحْكَامُهَا وَتَفْصِيلُهَا، وَفِيهِ طِبَاقٌ حَسَنٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَحْكَمَهَا حَكِيمٌ وَفَصَّلَهَا، أَيْ: بَيَّنَهَا وَشَرَحَهَا خَبِيرٌ عَالِمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْأُمُورِ.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[7]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

﴿أَلا تَعْبُدُوا﴾[1]: مَفْعُولٌ لَهُ عَلَى مَعْنَى: لِئَلَّا تَعْبُدُوا، أَوْ تَكُونُ "أَنْ" مُفَسِّرَةً، لِأَنَّ فِي تَفْصِيلِ الْآيَاتِ مَعْنَى الْقَوْلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، أَوْ أَمَرَكُمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾[2]، أَيْ: أَمَرَكُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدَأً مُنْقَطِعًا عَمَّا قَبْلَهُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِغْرَاءً مِنْهُ عَلَى اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[3]، كَأَنَّهُ قَالَ: تَرْكُ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[4].

وَالضَّمِيرُ فِي "مِنْهُ" لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، أَيْ: إِنَّنِي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ مِنْ جِهَتِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾[5] أَوْ هِيَ صِلَةٌ لِـ ﴿نَذِيرٌ﴾[6]، أَيْ: أُنْذِرُكُمْ مِنْهُ وَمِنْ عَذَابِهِ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَأُبَشِّرُكُمْ بِثَوَابِهِ إِنْ آمَنْتُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾[7] فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[8]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: اسْتَغْفِرُوا مِنَ الشِّرْكِ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، أَوِ اسْتَغْفِرُوا، وَالِاسْتِغْفَارُ: تَوْبَةٌ، ثُمَّ أَخْلِصُوا التَّوْبَةَ وَاسْتَقِيمُوا عَلَيْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[9].

﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾[10]: يُطَوِّلْ نَفْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَنَافِعَ حَسَنَةٍ مُرْضِيَةٍ، مِنْ عِيشَةٍ وَاسِعَةٍ، وَنِعْمَةٍ مُتَتَابِعَةٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة فُصِّلَتْ، الآية 30.

[10] سورة هُودٍ، الآية.

﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[1]: إِلَى أَنْ يَتَوَفَّاكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[2].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[3]: وَيُعْطِ فِي الْآخِرَةِ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فِي الْعَمَلِ، وَزِيَادَةٌ فِيهِ جَزَاءَ فَضْلِهِ لَا يَبْخَسُ مِنْهُ، أَوْ فَضْلَهُ فِي الثَّوَابِ، وَالدَّرَجَاتُ تَتَفَاضَلُ فِي الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ تَفَاضُلِ الطَّاعَاتِ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾[4]: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[5]: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وُصِفَ بِالْكِبَرِ كَمَا وُصِفَ بِالْعِظَمِ وَالثِّقَلِ، وَبَيْنَ عَذَابِ الْيَوْمِ الْكَبِيرِ بِأَنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَشَدِّ مَا أَرَادَ مِنْ عَذَابِهِمْ لَا يُعْجِزُهُ.

وَقُرِئَ: "وَإِنْ تَوَلَّوْا" مِنْ "وَلِيَ".

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[6]

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾[7]: يَزْوَرُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَنْحَرِفُونَ عَنْهُ، لِأَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ اسْتَقْبَلَهُ بِصَدْرِهِ؛ وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْهُ وَانْحَرَفَ ثَنَى عَنْهُ صَدْرَهُ وَطَوَى عَنْهُ كُشْحَهُ.

﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾[8]، يَعْنِي: وَيُرِيدُونَ لِيَسْتَخْفُوا مِنَ اللَّهِ، فَلَا يُطْلِعُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى ازْوِرَارِهِمْ.

---

1 سورة هُودٍ، الآية.
2 سورة النَّحْلُ، الآية 97.
3 سورة هُودٍ، الآية.
4 سورة هُودٍ، الآية.
5 سورة هُودٍ، الآية.
6 سورة هُودٍ، الآية.
7 سورة هُودٍ، الآية.
8 سورة هُودٍ، الآية.

وَنَظِيرُ إِضْمَارِ يُرِيدُونَ -لِقَوْدِ الْمَعْنَى إِلَى إِضْمَارِهِ- الْإِضْمَارُ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾[1]، مَعْنَاهُ: فَضَرَبَ فَانْفَلَقَ.

وَمَعْنَى: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾[2]: وَيَرِيدُونَ الِاسْتِخْفَاءَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ -أَيْضًا- كَرَاهَةً لِاسْتِمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ -تَعَالَى-، كَقَوْلِ نُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾[3].

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[4]، يَعْنِي: أَنَّهُ لَا تَفَاوُتَ فِي عِلْمِهِ بَيْنَ إِسْرَارِهِمْ وَإِعْلَانِهِمْ، فَلَا وَجْهَ لِتَوَصُّلِهِمْ إِلَى مَا يُرِيدُونَ مِنَ الِاسْتِخْفَاءِ، وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى ثَنْيِهِمْ صُدُورَهُمْ وَاسْتِغْشَائِهِمْ ثِيَابَهُمْ، وَنِفَاقُهُمْ غَيْرُ نَافِقٍ عِنْدَهُ.

رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ، وَكَانَ يُظْهِرُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَحَبَّةَ، وَلَهُ مَنْطِقٌ حُلْوٌ، وَحُسْنُ سِيَاقٍ لِلْحَدِيثِ، فَكَانَ يُعْجِبُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُجَالَسَتُهُ وَمُحَادَثَتُهُ، وَهُوَ يُضْمِرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ.

وَقُرِئَ: "تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ"، وَاثْنَوْنَى: "افْعَوْعَلَ" مِنَ الثَّنْيِ، كَاحْلَوْلَى مِنَ الْحَلَاوَةِ، وَهُوَ بِنَاءُ مُبَالِغَةٍ، قُرِئَ: بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "لِتَثْنَوْنِيَ".

وَقُرِئَ: "تَثْنُونَ"، وَأَصْلُهُ: تَثْنَوْنِنُ: "تَفْعَوْعِلُ" مِنَ الثِّنِّ، وَهُوَ مَا هَشَّ وَضَعُفَ مِنَ الْكَلَأِ، يُرِيدُ: مُطَاوَعَةَ صُدُورِهِمْ لِلثَّنْيِ، كَمَا يَنْثَنِي الْهَشُّ مِنَ النَّبَاتِ، أَوْ أَرَادَ ضَعْفَ إِيمَانِهِمْ وَمَرَضَ قُلُوبِهِمْ.

وَقُرِئَ: "تَثْنَئِنُّ" مِنِ اثْنَأَنَّ: "افْعَأَلَّ" مِنْهُ، ثُمَّ هُمِزَ كَمَا قِيلَ: ابْيَأَضَّتْ، وَادْهَأَمَّتْ.

وَقُرِئَ: "تَثْنَوِي" بِوَزْنِ تَرْعَوِي.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 63.

[3] سورة نُوحٌ، الآية 7.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2] بِلَفْظِ الْوُجُوبِ وَإِنَّمَا هُوَ تَفَضُّلٌ؟

قُلْتُ: هُوَ تَفَضُّلٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضُمِّنَ أَنْ يَتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، رَجَعَ التَّفَضُّلُ وَاجِبًا كَنُذُورِ الْعِبَادِ، وَالْمُسْتَقَرُّ: مَكَانُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَسْكَنُهُ، وَالْمُسْتَوْدَعُ، حَيْثُ كَانَ مُودَعًا قَبْلَ الِاسْتِقْرَارِ، مِنْ صُلْبٍ، أَوْ رَحِمٍ، أَوْ بَيْضَةٍ.

﴿كُلٌّ﴾[3]: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الدَّوَابِّ، وَرِزْقُهَا، وَمُسْتَقَرُّهَا، وَمُسْتَوْدَعُهَا فِي اللَّوْحِ، يَعْنِي: ذِكْرُهَا مَكْتُوبٌ فِيهِ مُبَيَّنٌ.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[4]

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[5]، أَيْ: مَا كَانَ تَحْتَهُ خَلْقٌ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَارْتِفَاعُهُ فَوْقَهَا إِلَّا الْمَاءُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ كَانَا مَخْلُوقَيْنِ قَبْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَقِيلَ: وَكَانَ الْمَاءُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَكَيْفَمَا كَانَ فَاللَّهُ مُمْسِكٌ كُلَّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَتِ الْأَجْرَامُ، كَانَتْ أَحْوَجَ إِلَيْهِ وَإِلَى إِمْسَاكِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾[1]: مُتَعَلِّقٌ بِخَلَقَ، أَيْ: خَلَقَهُنَّ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، وَهِيَ أَنْ يَجْعَلَهَا مَسَاكِنَ لِعِبَادِهِ، وَيُنْعِمَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِفُنُونِ النِّعَمِ، وَيُكَلِّفُهُمُ الطَّاعَاتِ، وَاجْتِنَابَ الْمَعَاصِي، فَمَنْ شَكَرَ وَأَطَاعَ أَثَابَهُ، وَمَنْ كَفَرَ وَعَصَى عَاقَبَهُ.

وَلَمَّا أَشْبَهَ ذَلِكَ اخْتِبَارَ الْمُخْتَبِرِ قَالَ: لِيَبْلُوَكُمْ، يُرِيدُ: لِيَفْعَلَ بِكُمْ مَا يَفْعَلُ الْمُبْتَلِي لِأَحْوَالِكُمْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ تَعْلِيقُ فِعْلُ الْبَلْوَى؟

قُلْتُ: لِمَا فِي الِاخْتِبَارِ مِنْ مَعْنَى الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَيْهِ، فَهُوَ مَلَابِسٌ لَهُ، كَمَا تَقُولُ: انْظُرْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ وَجْهًا وَاسْمَعْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ صَوْتًا، لِأَنَّ النَّظَرَ وَالِاسْتِمَاعَ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[2]، وَأَعْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ الَّتِي تَتَفَاوَتُ إِلَى حُسْنٍ وَأَحْسَنَ، فَأَمَّا أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ: فَتَفَاوُتُهَا إِلَى حُسْنٍ وَقَبِيحٍ؟

قُلْتُ: الَّذِينَ هُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا هُمُ الْمُتَّقُونَ، وَهُمُ الَّذِينَ اسْتَبَقُوا إِلَى تَحْصِيلِ مَا هُوَ غَرَضُ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، فَخَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ وَاطَّرَحَ ذِكْرَ مَنْ وَرَاءَهُمْ، تَشْرِيفًا لَهُ، وَتَنْبِيهًا عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْهُ؛ وَلِيَكُونَ ذَلِكَ لُطْفًا لِلسَّامِعِينَ، وَتَرْغِيبًا فِي حِيَازَةِ فَضْلِهِمْ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ".

قُرِئَ: "وَلَئِنْ قُلْتَ أَنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ" بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ.

وَوَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ائْتِ السُّوقَ أَنَّكَ تَشْتَرِي لَنَا لَحْمًا، وَأَنَّكَ تَشْتَرِي بِمَعْنَى عَلَّكَ، أَيْ: وَلَئِنْ قُلْتَ لَهُمْ: لَعَلَّكُمْ مَبْعُوثُونَ، بِمَعْنَى: تَوَقَّعُوا بَعْثَكُمْ وَظُنُّوهُ، وَلَا تَبُتُّوا الْقَوْلَ بِإِنْكَارِهِ، لَقَالُوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3]: بَاتِّينَ الْقَوْلَ بِبُطْلَانِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تُضَمَّنَ: "قُلْتَ" مَعْنَى: "ذَكَرْتَ".

وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[4]: أَنَّ السِّحْرَ أَمْرٌ بَاطِلٌ، وَأَنَّ بُطْلَانَهُ كَبُطْلَانِ السِّحْرِ، تَشْبِيهًا لَهُ بِهِ. أَوْ أَشَارُوا بِهَذَا إِلَى الْقُرْآنِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ النَّاطِقُ بِالْبَعْثِ، فَإِذَا جَعَلُوهُ سِحْرًا فَقَدِ انْدَرَجَ تَحْتَهُ إِنْكَارُ مَا فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

وَقُرِئَ: "إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ"، يُرِيدُونَ الرَّسُولَ؛ وَالسَّاحِرُ: كَاذِبٌ مُبْطِلٌ.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]

﴿الْعَذَابَ﴾[2]: عَذَابَ الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: عَذَابَ يَوْمِ بَدْرٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَتْلُ جِبْرِيلَ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾[3]: إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾[4]: مَا يَمْنَعُهُ مِنَ النُّزُولِ، اسْتِعْجَالًا لَهُ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ.

وَ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾[5]: مَنْصُوبٌ بِخَبَرِ ﴿لَيْسَ﴾[6]، وَيَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَسْتَجِيزُ تَقْدِيمَ خَبَرِ لَيْسَ عَلَى لَيْسَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا جَازَ تَقْدِيمُ مَعْمُولِ خَبَرِهَا عَلَيْهَا، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ تَقْدِيمِ خَبَرِهَا، إِذِ الْمَعْمُولُ تَابِعٌ لِلْعَامِلِ، فَلَا يَقَعُ إِلَّا حَيْثُ يَقَعُ الْعَامِلُ.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾[7]: وَأَحَاطَ بِهِمْ.

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[8]: الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَعْجِلُونَ.

وَإِنَّمَا وَضَعَ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾[9] مَوْضِعَ يَسْتَعْجِلُونَ، لِأَنَّ اسْتِعْجَالَهُمْ كَانَ عَلَى جِهَةِ الِاسْتِهْزَاءِ.

وَالْمَعْنَى: وَيَحِيقُ بِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ عَلَى عَادَةِ اللَّهِ فِي أَخْبَارِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]

﴿الإِنْسَانَ﴾[2]: لِلْجِنْسِ.

﴿رَحْمَةً﴾[3]: نِعْمَةً مِنْ صِحَّةٍ وَأَمْنٍ وَجِدَّةٍ.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾[4]: ثُمَّ سَلَبْنَا تِلْكَ النِّعْمَةَ.

﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾[5]: شَدِيدُ الْيَأْسِ مِنْ أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ مِثْلُ تِلْكَ النِّعْمَةِ الْمَسْلُوبَةِ، قَاطِعٌ رَجَاءَهُ مِنْ سَعَةِ فَضْلِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ صَبْرٍ، وَلَا تَسْلِيمٍ لِقَضَائِهِ، وَلَا اسْتِرْجَاعٍ.

﴿كَفُورٌ﴾[6]: عَظِيمُ الْكُفْرَانِ لِمَا سَلَفَ لَهُ مِنَ التَّقَلُّبِ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ نَسَّاءٌ لَهُ.

﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾[7]، أَيْ: الْمَصَائِبُ الَّتِي سَاءَتْنِي.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾[8]: أَشِرٌ بَطِرٌ.

﴿فَخُورٌ﴾[9]: عَلَى النَّاسِ بِمَا أَذَاقَهُ اللَّهُ مِنْ نَعْمَائِهِ، قَدْ شَغَلَهُ الْفَرَحُ وَالْفَخْرُ عَنِ الشُّكْرِ.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ﴾[10]: آمَنُوا، فَإِنَّ عَادَتَهُمْ إِنْ نَالَتْهُمْ رَحْمَةٌ أَنْ يَشْكُرُوا، وَإِنْ زَالَتْ عَنْهُمْ نِعْمَةٌ أَنْ يَصْبِرُوا.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة هُودٍ، الآية.

[10] سورة هُودٍ، الآية.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا
لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]

كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ آيَاتٍ تَعَنُّتًا لَا اسْتِرْشَادًا، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُسْتَرْشِدِينَ، لَكَانَتْ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ كَافِيَةً فِي رَشَادِهِمْ.

وَمِنِ اقْتِرَاحَاتِهِمْ: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾[2]: وَكَانُوا لَا يَعْتَدُّونَ بِالْقُرْآنِ وَيَتَهَاوَنُونَ بِهِ وَبِغَيْرِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، فَكَانَ يَضِيقُ صَدْرُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يُلْقِيَ إِلَيْهِمْ مَا لَا يَقْبَلُونَهُ وَيَضْحَكُونَ مِنْهُ.

فَحَرَّكَ اللَّهُ مِنْهُ وَهَيَّجَهُ لِأَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَطَرْحِ الْمُبَالَاةِ بِرَدِّهِمْ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ، وَاقْتِرَاحِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾[3]، أَيْ: لَعَلَّكَ تَتْرُكُ أَنْ تُلْقِيَهُ إِلَيْهِمْ، وَتُبَلِّغَهُ إِيَّاهُمْ، مَخَافَةَ رَدِّهِمْ لَهُ وَتَهَاوُنِهِمْ بِهِ.

﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾[4]: بِأَنْ تَتْلُوَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿أَنْ يَقُولُوا﴾[5]: مَخَافَةَ أَنْ يَقُولُوا.

﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾[6]، أَيْ: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَا اقْتَرَحْنَا نَحْنُ مِنَ الْكَنْزِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَلِمَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَا لَا نُرِيدُهُ وَلَا نَقْتَرِحُهُ؟

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾[7]، أَيْ: لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُنْذِرَهُمْ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ وَتُبَلِّغَهُمْ مَا أُمِرْتَ بِتَبْلِيغِهِ، وَلَا عَلَيْكَ رَدُّوا أَوْ تَهَاوَنُوا أَوِ اقْتَرَحُوا.

---

1 سورة هُودٍ، الآية.
2 سورة هُودٍ، الآية.
3 سورة هُودٍ، الآية.
4 سورة هُودٍ، الآية.
5 سورة هُودٍ، الآية.
6 سورة هُودٍ، الآية.
7 سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]: يَحْفَظُ مَا يَقُولُونَ، وَهُوَ فَاعِلٌ بِهِمْ مَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَكِلْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، وَعَلَيْكَ بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ بِقَلْبٍ فَسِيحٍ وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ، غَيْرِ مُلْتَفِتٍ إِلَى اسْتِكْبَارِهِمْ وَلَا مُبَالٍ بِسَفَهِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عَدَلَ عَنْ ضِيِّقٍ إِلَى ضَائِقٍ؟

قُلْتُ: لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ ضِيقٌ عَارِضٌ غَيْرُ ثَابِتٍ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ أَفْسَحَ النَّاسِ صَدْرًا، وَمِثْلُهُ قَوْلُكَ: زَيْدٌ سَيِّدٌ وَجَوَادٌ، تُرِيدُ: السِّيَادَةَ وَالْجُودَ الثَّابِتَيْنِ الْمُسْتَقِرَّيْنَ، فَإِذَا أَرَدْتَ الْحُدُوثَ قُلْتَ: سَائِدٌ، وَجَائِدٌ، وَنَحْوُهُ، كَانُوا قَوْمًا عَامِينَ فِي بَعْضِ الْقِرَاآتِ.

وَقَوْلُ السَّمْهَرِيِّ الْعُكْلِيِّ:

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيمُ فَسَامِـــــــنٌ بِهَا وَكِرَامُ النَّاسِ بَادٍ شُحُوبُهَـا

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]

(أَمْ): مُنْقَطِعَةٌ.

وَالضَّمِيرُ فِي "افْتَرَاهُ" لِمَا يُوحَى إِلَيْكَ، تَحَدَّاهُمْ أَوَّلًا بِعَشْرِ سُوَرٍ، ثُمَّ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا يَقُولُ الْمُخَابِرُ فِي الْخَطِّ لِصَاحِبِهِ: اكْتُبْ عَشَرَةَ أَسْطُرٍ نَحْوَ مَا أَكْتُبُ. فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الْعَجْزَ عَنْ مِثْلِ خَطِّهِ قَالَ: قَدِ اقْتَصَرْتُ مِنْكَ عَلَى سَطْرٍ وَاحِدٍ.

﴿مِثْلِهِ﴾[3]: بِمَعْنَى: أَمْثَالِهِ، ذَهَابًا إِلَى مُمَاثَلَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لَهُ.

﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾[4]: صِفَةٌ لِعَشْرِ سُوَرٍ، لَمَّا قَالُوا: افْتَرَيْتَ الْقُرْآنَ وَاخْتَلَقْتَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَاوَدَهُمْ عَلَى دَعْوَاهُمْ، وَأَرْخَى مَعَهُمُ الْعِنَانَ؛ وَقَالَ: هَبُوا أَنِّي اخْتَلَقْتُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي، وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قُلْتُمْ، فَأْتُوا أَنْتُمْ -أَيْضًا- بِكَلَامٍ مِثْلِهِ

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

مُخْتَلَقٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، فَأَنْتُمْ عَرَبٌ فُصَحَاءُ مِثْلِي لَا تَعْجِزُونَ عَنْ مِثْلِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ مَا يَأْتُونَ بِهِ مِثْلَهُ، وَمَا يَأْتُونَ بِهِ مُفْتَرًى وَهَذَا غَيْرُ مُفْتَرًى؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: مِثْلُهُ فِي حُسْنِ الْبَيَانِ وَالنَّظْمِ وَإِنْ كَانَ مُفْتَرًى.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ جَمْعِ الْخِطَابِ بَعْدَ إِفْرَادِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾[2] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾[3]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَتَحَدَّوْنَهُمْ، وَقَدْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾[4].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمْعُ لِتَعْظِيمِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَقَوْلِهِ:

فَإِنْ شَئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ.....

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ.

وَالضَّمِيرُ فِي "لَمْ يَسْتَجِيبُوا" لِمَنِ اسْتَطَعْتُمْ، يَعْنِي: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى الْمُظَاهَرَةِ عَلَى مُعَارَضَتِهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ، وَأَنَّ طَاقَتَهُمْ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تَبْلُغَهُ.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[5]، أَيْ: أُنْزِلَ مُلْتَبِسًا بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، مِنْ نَظْمٍ مُعْجِزٍ لِلْخَلْقِ، وَإِخْبَارٍ بِغُيُوبٍ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة الْقَصَصُ، الآية 50.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

"وَ": اعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ، وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ: اللَّهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّ تَوْحِيدَهُ وَاجِبٌ وَالْإِشْرَاكَ بِهِ ظُلْمٌ عَظِيمٌ.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]: مُبَايِعُونَ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ.

وَهَذَا وَجْهٌ حَسَنٌ مُطَّرِدٌ، وَمَنْ جَعَلَ الْخِطَابَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَعْنَاهُ: فَاثْبُتُوا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَازْدَادُوا يَقِينًا وَثَبَاتَ قَدَمٍ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعَلَى التَّوْحِيدِ.

وَمَعْنَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2]: فَهَلْ أَنْتُمْ مُخْلِصُونَ؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾[4]: نُوصِلُ إِلَيْهِمْ أُجُورَ أَعْمَالِهِمْ وَافِيَةً، كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا يُرْزَقُونَ فِيهَا مِنَ الصِّحَّةِ وَالرِّزْقِ.

وَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ الرِّيَاءِ، يُقَالُ لِلْقُرَّاءِ مِنْهُمْ: أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ؛ وَلِمَنْ وَصَلَ الرَّحِمَ وَتَصَدَّقَ: فَعَلْتَ حَتَّى يُقَالَ، فَقِيلَ: وَلِمَنْ قَاتَلَ فَقُتِلَ: قَاتَلْتَ حَتَّى يُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، إِنْ أَعْطَوْا سَائِلًا أَوْ وَصَلُوا رَحِمًا عَجَّلَ لَهُمْ جَزَاءَ ذَلِكَ بِتَوْسِعَةٍ فِي الرِّزْقِ وَصِحَّةٍ فِي الْبَدَنِ.

وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَسْهَمَ لَهُمْ فِي الْغَنَائِمِ.

وَقُرِئَ: "يُوَفِّ" بِالْيَاءِ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

"وَتُوَفَّ إِلَيْهِمْ" أَعْمَالُهُمْ بِالتَّاءِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: "نُوفِي" بِالتَّخْفِيفِ وَإِثْبَاتِ الْيَاءِ، لِأَنَّ الشَّرْطَ وَقَعَ مَاضِيًا، كَقَوْلِهِ:

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

.....يَقُولُ: لا غَائِبٌ مَا لِي وَلا حَرِمُ

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾[1]: وَحَبِطَ فِي الْآخِرَةِ مَا صَنَعُوهُ، أَوْ صَنِيعُهُمْ، يَعْنِي: لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوَابٌ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهِ الْآخِرَةَ، إِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ الدُّنْيَا، وَقَدْ وُفِّيَ إِلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا.

﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، أَيْ: كَانَ عَمَلُهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ لِوَجْهٍ صَحِيحٍ، وَالْعَمَلُ الْبَاطِلُ لَا ثَوَابَ لَهُ.

وَقُرِئَ: "وَبَطَلَ" عَلَى الْفِعْلِ.

وَعَنْ عَاصِمٍ: "وَبَاطِلًا" بِالنَّصْبِ.

وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾[3] إِبْهَامِيَّةً، وَيَنْتَصِبُ بِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾[4].

وَمَعْنَاهُ: وَبَاطِلًا أَيَّ بَاطِلٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ عَلَى: وَبَطَلَ بُطْلَانًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[5]

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾[6]، مَعْنَاهُ: أَمَّنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ، أَيْ: لَا يَعْقُبُونَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ وَلَا يُقَارِبُونَهُمْ، يُرِيدُ أَنَّ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ تَفَاوُتًا بَعِيدًا، وَتَبَايُنًا بَيِّنًا.

وَأَرَادَ بِهِمْ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ.

﴿مِنْ رَبِّهِ﴾[7]، أَيْ: عَلَى بُرْهَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَبَيَانٍ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ حَقٌّ، وَهُوَ دَلِيلُ الْعَقْلِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾[1]: وَيَتْبَعُ ذَلِكَ الْبُرْهَانَ.

﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾[2]، أَيْ: شَاهِدٌ يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، "مِنْهُ": مِنَ اللَّهِ، أَوْ شَاهِدٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ آنِفًا.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾[3]: وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ.

﴿كِتَابُ مُوسَى﴾[4]: وَهُوَ التَّوْرَاةُ، أَيْ: وَيَتْلُو ذَلِكَ الْبُرْهَانَ –أَيْضًا– مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى.

وَقُرِئَ: "كِتَابَ مُوسَى" بِالنَّصْبِ، وَمَعْنَاهُ: كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾[5]: وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾[6]: شَاهِدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾[7]، ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[8].

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾[9]: وَيَتْلُو مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ.

﴿إِمَامًا﴾[10]: كِتَابًا مُؤْتَمًّا بِهِ فِي الدِّينِ قُدْوَةً فِيهِ.

﴿وَرَحْمَةً﴾[11]: وَنِعْمَةً عَظِيمَةً عَلَى الْمُنَزَّلِ إِلَيْهِمْ.

﴿أُولَئِكَ﴾[12]: يَعْنِي مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة الْأَحْقَافُ، الآية 10.

[8] سورة الرَّعْدُ، الآية 43.

[9] سورة هُودٍ، الآية.

[10] سورة هُودٍ، الآية.

[11] سورة هُودٍ، الآية.

[12] سورة هُودٍ، الآية.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1]: يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ﴾[2]، يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، وَمَنْ ضَامَّهُمْ مِنَ الْمُتَحَزِّبِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾[3].

وَقُرِئَ: "مُرْيَةٍ" بِالضَّمِّ، وَهُمَا الشَّكُّ.

﴿مِنْهُ﴾[4]: مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ مِنَ الْمَوْعِدِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾[5]

﴿يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾[6]: يُحْبَسُونَ فِي الْمَوْقِفِ، وَتُعْرَضُ أَعْمَالُهُمْ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ.

﴿الأَشْهَادُ﴾[7]: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ بِأَنَّهُمُ الْكَذَّابُونَ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ اتَّخَذَ وَلَدًا وَشَرِيكًا، وَيُقَالُ: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[8]: فَوَاخِزْيَاهُ، وَوَافَضِيحَتَاهُ.

وَالْأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ أَوْ شَهِيدٍ، كَأَصْحَابٍ أَوْ أَشْرَافٍ.

---

1 سورة هُودٍ، الآية.

2 سورة هُودٍ، الآية.

3 سورة هُودٍ، الآية.

4 سورة هُودٍ، الآية.

5 سورة هُودٍ، الآية.

6 سورة هُودٍ، الآية.

7 سورة هُودٍ، الآية.

8 سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1]: يَصِفُونَهَا بِالِاعْوِجَاجِ وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ، أَوْ يَبْغُونَ أَهْلَهَا أَنْ يَعْوَجُّوا بِالِارْتِدَادِ، وَهُمُ الثَّانِيَةُ، لِتَأْكِيدِ كُفْرِهِمْ بِالْآخِرَةِ، وَاخْتِصَاصِهِمْ بِهِ.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، أَيْ: مَا كَانُوا يُعْجِزُونَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ لَوْ أَرَادَ عِقَابَهُمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ مِنْهُ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ عِقَابِهِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْخِيرَ عِقَابِهِمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْأَشْهَادِ.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾[3]، وَقُرِئَ: "يُضْعِفُ".

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾[4]: أَرَادَ أَنَّهُمْ لِفَرْطِ تَصَامِّهِمْ عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ وَكَرَاهَتِهِمْ لَهُ، كَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ.

وَلَعَلَّ بَعْضَ الْمُجْبِرَةِ يَتَوَثَّبُ إِذَا عَثَرَ عَلَيْهِ فَيُوَعْوِعُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْعَدْلِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعِ النَّاسَ يَقُولُونَ فِي كُلِّ لِسَانٍ: هَذَا كَلَامٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْمَعَهُ، وَهَذَا مِمَّا يَمُجُّهُ سَمْعِي.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[5]: أَنَّهُمْ جَعَلُوا آلِهَتَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوِلَايَتُهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، فَمَا كَانَ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَوْلِيَاءَ.

ثُمَّ بَيَّنَ نَفْيَ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[6]، فَكَيْفَ يَصْلُحُونَ لِلْوِلَايَةِ؟.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾[7]: اعْتِرَاضٌ بِوَعِيدٍ.

﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[8]: اشْتَرَوْا عِبَادَةَ الْآلِهَةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، فَكَانَ خُسْرَانُهُمْ فِي تِجَارَتِهِمْ مَا لَا خُسْرَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.
[2] سورة هُودٍ، الآية.
[3] سورة هُودٍ، الآية.
[4] سورة هُودٍ، الآية.
[5] سورة هُودٍ، الآية.
[6] سورة هُودٍ، الآية.
[7] سورة هُودٍ، الآية.
[8] سورة هُودٍ، الآية.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾[1]: وَبَطَلَ عَنْهُمْ وَضَاعَ مَا اشْتَرَوْهُ، وَهُوَ: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2]: مِنَ الْآلِهَةِ وَشَفَاعَتِهَا.

﴿لا جَرَمَ﴾[3]: فُسِّرَ فِي مَكَانٍ آخَرَ.

﴿هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾[4]: لَا تَرَى أَحَدًا أَبْيَنَ خُسْرَانًا مِنْهُمْ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5]

﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾[6]: وَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ، وَانْقَطَعُوا إِلَى عِبَادَتِهِ بِالْخُشُوعِ وَالتَّوَاضُعِ مِنَ الْخَبْتِ وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِلشَّيْءِ الدَّنِيءِ: الْخَبِيثُ.

قَالَ:

يَنْفَعُ الطَّيِّبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزْ ... قِ وَلا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَبِيثُ

وَقِيلَ: التَّاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ الثَّاءِ.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[7]

شَبَّهَ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ بِالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ، وَفَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، وَهُوَ مِنَ اللَّفِّ وَالطِّبَاقِ.

وَفِيهِ مَعْنَيَانِ:

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

– أَنْ يُشَبِّهَ الْفَرِيقَ تَشْبِيهَيْنِ اثْنَيْنِ، كَمَا شَبَّهَ امْرُؤُ الْقَيْسِ قُلُوبَ الطَّيْرِ بِالْحَشَفِ وَالْعُنَّابِ،
– وَأَنْ يُشَبِّهَهُ بِالَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الْعَمَى وَالصَّمَمِ، أَوِ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ، عَلَى أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ فِي: ﴿وَالْأَصَمِّ﴾[1]، وَفِي ﴿وَالسَّمِيعِ﴾[2]: لِعَطْفِ الصِّفَةِ عَلَى الصِّفَةِ، كَقَوْلِهِ:

.....الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾[3]، يَعْنِي: الْفَرِيقَيْنِ، ﴿مَثَلا﴾[4]: تَشْبِيهًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[5]

أَيْ: أَرْسَلْنَا نُوحًا بِأَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ، وَمَعْنَاهُ: أَرْسَلْنَاهُ مُلْتَبِسًا بِهَذَا الْكَلَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[6] بِالْكَسْرِ. فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِ الْجَارُّ، فُتِحَ كَمَا فُتِحَ فِي "كَأَنَّ".

وَالْمَعْنَى: عَلَى الْكَسْرِ، وَهُوَ قَوْلُكَ: إِنَّ زَيْدًا كَالْأَسَدِ.

وَقُرِئَ: بِالْكَسْرِ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا﴾[7] بَدَلٌ مِنْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾[8]، أَيْ: أَرْسَلْنَاهُ بِأَلَّا تَعْبُدُوا ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾[9].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.
[2] سورة هُودٍ، الآية.
[3] سورة هُودٍ، الآية.
[4] سورة هُودٍ، الآية.
[5] سورة هُودٍ، الآية.
[6] سورة هُودٍ، الآية.
[7] سورة هُودٍ، الآية.
[8] سورة هُودٍ، الآية.
[9] سورة هُودٍ، الآية.

أَوْ تَكُونُ ﴿أَنْ﴾[1] مُفَسِّرَةً، مُتَعَلِّقَةً بِـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾[2] أَوْ بِـ ﴿نَذِيرٍ﴾[3]، وَصَفَ الْيَوْمَ بِأَلِيمٍ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ لِوُقُوعِ الْأَلَمِ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ؟

قُلْتُ: مَجَازِيٌّ مِثْلُهُ، لِأَنَّ الْأَلِيمَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْعَذَابُ، وَنَظِيرُهُمَا قَوْلُكَ: نَهَارُكَ صَائِمٌ، وَجَدَّ جَدُّهُ.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[4]

﴿الْمَلَأُ﴾[5]: الْأَشْرَافُ مِنْ قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ مَلِيءٌ بِكَذَا، إِذَا كَانَ مُطِيقًا لَهُ، وَقَدْ مَلَئُوا بِالْأَمْرِ، لِأَنَّهُمْ مَلَئُوا بِكِفَايَاتِ الْأُمُورِ، وَاضْطَلَعُوا بِهَا وَبِتَدْبِيرِهَا، أَوْ لِأَنَّهُمْ يَتَمَالَؤُونَ، أَيْ: يَتَظَاهَرُونَ وَيَتَسَانَدُونَ، أَوْ لِأَنَّهُمْ يَمْلَئُونَ الْقُلُوبَ هَيْبَةً وَالْمَجَالِسَ أُبَّهَةً، أَوْ لِأَنَّهُمْ مِلَاءٌ بِالْأَحْلَامِ وَالْآرَاءِ الصَّائِبَةِ.

﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾[6]: تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُمْ أَحَقُّ مِنْهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهَا فِي أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ لَجَعَلَهَا فِيهِمْ، فَقَالُوا: هَبْ أَنَّكَ وَاحِدٌ مِنَ الْمَلَأِ وَمُوَازٍ لَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ، فَمَا جَعَلَكَ أَحَقَّ مِنْهُمْ؟

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾[1]؟! أَوْ أَرَادُوا أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَلَكًا لَا بَشَرًا، وَالْأَرَاذِلُ جَمْعُ الْأَرْذَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾[2]، "أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا".

وَقُرِئَ: "بَادِيَ الرَّأْيِ" بِالْهَمْزِ وَغَيْرِ الْهَمْزِ، بِمَعْنَى: اتَّبَعُوكَ أَوَّلَ الرَّأْيِ أَوْ ظَاهِرَ الرَّأْيِ، وَانْتِصَابُهُ عَلَى الظَّرْفِ.

أَصْلُهُ: وَقْتَ حُدُوثِ أَوَّلِ رَأْيِهِمْ، أَوْ وَقْتَ حُدُوثِ ظَاهِرِ رَأْيِهِمْ، فَحُذِفَ ذَلِكَ، وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، أَرَادُوا: أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ لَكَ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ عَنَّ لَهُمْ بَدِيهَةً مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَنَظَرٍ، وَإِنَّمَا اسْتَرْذَلُوا الْمُؤْمِنِينَ لِفَقْرِهِمْ، وَتَأَخُّرِهِمْ فِي الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جُهَّالًا مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَكَانَ الْأَشْرَفُ عِنْدَهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ وَمَالٌ؛ كَمَا تَرَى أَكْثَرَ الْمُتَّسِمِينَ بِالْإِسْلَامِ يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ، وَيَبْنُونَ عَلَيْهِ إِكْرَامَهُمْ وَإِهَانَتَهُمْ؛ وَلَقَدْ زَلَّ عَنْهُمْ أَنَّ التَّقَدُّمَ فِي الدُّنْيَا لَا يُقَرِّبُ أَحَدًا مِنَ اللَّهِ وَإِنَّمَا يُبْعِدُهُ، وَلَا يَرْفَعُهُ بَلْ يَضَعُهُ، فَضْلًا أَنْ يَجْعَلَهُ سَبَبًا فِي الِاخْتِيَارِ لِلنُّبُوَّةِ وَالتَّأْهِيلِ لَهَا.

عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- بُعِثُوا مُرَغِّبِينَ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ وَرَفْضِ الدُّنْيَا، مُزَهِّدِينَ فِيهَا، مُصَغِّرِينَ لِشَأْنِهَا وَشَأْنِ مَنْ أَخْلَدَ إِلَيْهَا، فَمَا أَبْعَدَ حَالَهُمْ مِنَ الْاتِّصَافِ بِمَا يُبْعِدُ مِنَ اللَّهِ، وَالتَّشَرُّفِ بِمَا هُوَ ضَعَةٌ عِنْدَ اللَّهِ.

﴿مِنْ فَضْلٍ﴾[3]: مِنْ زِيَادَةِ شَرَفٍ عَلَيْنَا تُؤَهِّلُكُمْ لِلنُّبُوَّةِ.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[4]: فِيمَا تَدَّعُونَهُ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 123.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1]

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[2]: أَخْبِرُونِي.

﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾[3]: عَلَى بُرْهَانٍ، ﴿مِنْ رَبِّي﴾[4]: وَشَاهِدٌ مِنْهُ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ دَعْوَايَ.

﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾[5]: بِإِيتَاءِ الْبَيِّنَةِ عَلَى أَنَّ الْبَيِّنَةَ فِي نَفْسِهَا هِيَ الرَّحْمَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْبَيِّنَةِ: الْمُعْجِزَةَ، وَبِالرَّحْمَةِ: النُّبُوَّةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَوْلُهُ: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾[6]: ظَاهِرٌ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، فَمَا وَجْهُهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي؟ وَحَقُّهُ أَنْ يُقَالَ: فَعُمِّيَتَا؟

قُلْتُ: الْوَجْهُ: أَنْ يُقَدِّرَ فَعُمِّيَتْ بَعْدَ الْبَيِّنَةِ، وَأَنْ يَكُونَ حَذْفُهُ لِلِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِهِ مَرَّةً.

وَمَعْنَى: ﴿عُمِّيَتْ﴾[7]: خَفِيَتْ.

وَقُرِئَ: "فَعُمِيَتْ" بِمَعْنَى: أُخْفِيَتْ.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: "فَعَمَّاهَا عَلَيْكُمْ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا حَقِيقَتُهُ؟

قُلْتُ: حَقِيقَتُهُ: أَنَّ الْحُجَّةَ كَمَا جُعِلَتْ بَصِيرَةً وَمُبْصِرَةً جَعَلَتْ عَمْيَاءَ، لِأَنَّ الْأَعْمَى لَا يَهْتَدِي وَلَا يَهْدِي غَيْرَهُ؛ فَمَعْنَى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمُ﴾[8] الْبَيِّنَةُ: فَلَمْ تَهْدِكُمْ، كَمَا لَوْ عَمَى عَلَى الْقَوْلِ دَلِيلُهُمْ فِي الْمَفَازَةِ بَقُوا بِغَيْرِ هَادٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قِرَاءَةِ أُبَيٍّ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ صَمَّمُوا عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهَا فَخَلَّاهُمُ اللَّهُ وَتَصْمِيمَهُمْ، فَجُعِلَتْ تِلْكَ التَّخْلِيَةُ تَعْمِيَةً مِنْهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1]، يَعْنِي: أَنُكْرِهُكُمْ عَلَى قَبُولِهَا وَنَقْسِرُكُمْ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِهَا، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَهَا وَلَا تَخْتَارُونَهَا، وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ؟

وَقَدْ جِيءَ بِضَمِيرَيِ الْمَفْعُولَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ جَمِيعًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الثَّانِي مُنْفَصِلًا، كَقَوْلِكَ: أَنُلْزِمُكُمْ إِيَّاهَا؛ وَنَحْوُهُ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾[2]، وَيَجُوزُ: فَسَيَكْفِيكَ إِيَّاهُمْ.

وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو إِسْكَانُ الْمِيمِ.

وَوَجَّهَهُ أَنَّ الْحَرَكَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا خِلْسَةً خَفِيفَةً، فَظَنَّهَا الرَّاوِي سُكُونًا، وَالْإِسْكَانُ الصَّرِيحُ: لَحْنٌ عِنْدَ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ وَحُذَّاقِ الْبَصْرِيِّينَ، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ الْإِعْرَابِيَّةَ لَا يَسُوغُ طَرْحُهَا إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشِّعْرِ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[3]: رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ﴾[4].

وَقُرِئَ: "وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا" بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْأَصْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾[5]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ يُلَاقُونَ اللَّهَ فَيُعَاقِبُ مَنْ طَرَدَهُمْ، أَوْ يُلَاقُونَهُ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِيمَانٍ صَحِيحٍ ثَابِتٍ، كَمَا ظَهَرَ لِي مِنْهُمْ وَمَا أَعْرِفُ غَيْرَهُ مِنْهُمْ، أَوْ عَلَى خِلَالٍ ذَلِكَ مِمَّا تَقْرِفُونَهُمْ بِهِ مِنْ بِنَاءِ إِيمَانِهِمْ عَلَى بَادِئِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَتَفَكُّرٍ، وَمَا عَلَيَّ أَنْ أَشُقَّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَأَتَعَرَّفَ سِرَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ حَتَّى أَطْرُدَهُمْ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ. وَنَحْوُهُ: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾[6]. ....الْآيَةُ، أَوْ هُمْ مُصَدِّقُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ مُوقِنُونَ بِهِ عَالِمُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوهُ لَا مَحَالَةَ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآيتان 25–26.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 52.

﴿تَجْهَلُونَ﴾[1]: تَتَسَافَهُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَتَدْعُونَهُمْ أَرَاذِلَ.

مِنْ قَوْلِهِ:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا.....

أَوْ تَجْهَلُونَ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ، أَوْ تَجْهَلُونَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ.

﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مَنْ اللَّهِ﴾[2]: مَنْ يَمْنَعُنِي مِنِ انْتِقَامِهِ.

﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾[3]: وَكَانُوا يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَطْرُدَهُمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ، أَنَفَةً مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ.

﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾[4]: مَعْطُوفٌ عَلَى: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾[5]، أَيْ: لَا أَقُولُ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ.

وَمَعْنَاهُ: لَا أَقُولُ لَكُمْ: عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ فَأَدَّعِيَ فَضْلًا عَلَيْكُمْ فِي الْغِنَى، حَتَّى تَجْحَدُوا فَضْلِي بِقَوْلِكُمْ: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾[6]، وَلَا أَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ، حَتَّى تَنْسِبُونِي إِلَى الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ، أَوْ حَتَّى أَطَّلِعَ عَلَى مَا فِي نُفُوسِ أَتْبَاعِي وَضَمَائِرِ قُلُوبِهِمْ.

﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾[7]: حَتَّى تَقُولُوا لِي مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَلَا أَحْكُمُ عَلَى مَنِ اسْتَرْذَلْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِفَقْرِهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْهِ، كَمَا تَقُولُونَ، مُسَاعَدَةً لَكُمْ وَنُزُولًا عَلَى هَوَاكُمْ.

﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[8]: إِنْ قُلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَالِازْدِرَاءُ: افْتِعَالٌ مِنْ زَرَيْ عَلَيْهِ إِذَا عَابَهُ، وَأَزْرَى بِهِ: قَصَّرَ بِهِ، يُقَالُ: ازْدَرَتْهُ عَيْنُهُ، وَاقْتَحَمَتْهُ عَيْنُهُ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]

﴿جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَرَدْتَ جِدَالَنَا وَشَرَعْتَ فِيهِ فَأَكْثَرْتَهُ، كَقَوْلِكَ: جَادَ فُلَانٌ فَأَكْثَرَ وَأَطَابَ.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[3]: مِنَ الْعَذَابِ الْمُعَجَّلِ.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾[4]

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾[5]، أَيْ: لَيْسَ الْإِتْيَانُ بِالْعَذَابِ إِلَيَّ، إِنَّمَا هُوَ إِلَى مَنْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَعَصَيْتُمُوهُ.

﴿إِنْ شَاءَ﴾[6]، يَعْنِي: إِنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَجِّلَهُ لَكُمْ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا".

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ تَرَادُفِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾[7]: جَزَاؤُهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾[8].

---

1 سورة هُودٍ، الآية.
2 سورة هُودٍ، الآية.
3 سورة هُودٍ، الآية.
4 سورة هُودٍ، الآية.
5 سورة هُودٍ، الآية.
6 سورة هُودٍ، الآية.
7 سورة هُودٍ، الآية.
8 سورة هُودٍ، الآية.

وَهَذَا الدَّالُ فِي حُكْمِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ، فَوَصَلَ بِشَرْطٍ كَمَا وَصَلَ الْجَزَاءُ بِالشَّرْطِ فِي قَوْلِكَ: إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ إِنْ أَمْكَنَنِي.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾[1]؟

قُلْتُ: إِذَا عَرَفَ اللَّهُ مِنَ الْكَافِرِ الْإِصْرَارَ فَخَلَّاهُ وَشَأْنَهُ وَلَمْ يُلْجِئْهُ، سُمِّيَ ذَلِكَ إِغْوَاءً وَإِضْلَالًا، كَمَا أَنَّهُ إِذَا عَرَفَ مِنْهُ أَنَّهُ يَتُوبُ وَيَرْعَوِي، فَلَطَفَ بِهِ: سُمِّيَ إِرْشَادًا وَهِدَايَةً.

وَقِيلَ: ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾[2]: أَنْ يُهْلِكَكُمْ مِنْ غَوَى الْفَصِيلُ غَوًى، إِذَا بَشِمَ فَهَلَكَ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مِنَ التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُكُمْ نَصَائِحُ اللَّهِ، وَمَوَاعِظُهُ، وَسَائِرُ أَلْطَافِهِ، كَيْفَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي؟

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾[3]: وَإِجْرَامِي بِلَفْظِ الْمَصْدَرِ وَالْجَمْعِ، كَقَوْلِهِ: وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ وَأَسْرَارَهُمْ، وَنَحْوُ: جُرْمٌ وَأَجْرَامٌ، قُفْلٌ وَأَقْفَالٌ، وَيَنْصُرُ الْجَمْعَ أَنْ فَسَّرَهُ الْأَوَّلُونَ بِآثَامِي.

وَالْمَعْنَى: إِنْ صَحَّ وَثَبَتَ أَنِّي افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَيَّ عُقُوبَةُ إِجْرَامِي، أَيِ: افْتِرَائِي، وَكَانَ حَقِّي حِينَئِذٍ أَنْ تُعْرِضُوا عَنِّي وَتَتَأَلَّبُوا عَلَيَّ.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾[4]، يَعْنِي: وَلَمْ يَثْبُتْ ذَلِكَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ.

وَمَعْنَى: ﴿مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾[5]: مِنْ إِجْرَامِكُمْ فِي إِسْنَادِ الِافْتِرَاءِ إِلَيَّ فَلَا وَجْهَ لِإِعْرَاضِكُمْ وَمُعَادَاتِكُمْ.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[6]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

﴿لَنْ يُؤْمِنَ﴾[1]: إِقْنَاطٌ مِنْ إِيمَانِهِمْ، وَأَنَّهُ كَالْمُحَالِ الَّذِي لَا تَعَلُّقَ بِهِ لِلتَّوَقُّعِ.

﴿إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[2]: إِلَّا مَنْ قَدْ وَجَدَ مِنْهُ مَا كَانَ يُتَوَقَّعُ مِنْ إِيمَانِهِ.

وَ﴿قَدْ﴾[3] لِلتَّوَقُّعِ، وَقَدْ أَصَابَتْ مَحَزَّهَا.

﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾[4]: فَلَا تَحْزَنْ حُزْنَ بَائِسٍ مُسْتَكِينٍ.

قَالَ:

مَا يَقْسِمِ اللَّهُ فَاقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ... مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ

وَالْمَعْنَى: فَلَا تَحْزَنْ بِمَا فَعَلُوهُ مِنْ تَكْذِيبِكَ، وَإِيذَائِكَ، وَمُعَادَاتِكَ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الِانْتِقَامِ لَكَ مِنْهُمْ.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾[5]: فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، بِمَعْنَى: اصْنَعْهَا مَحْفُوظًا، وَحَقِيقَتُهُ: مُلْتَبِسًا بِأَعْيُنِنَا، كَأَنَّ لِلَّهِ مَعَهُ أَعْيُنًا تَكْلَؤُهُ أَنْ يَزِيغَ فِي صَنْعَتِهِ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَلَّا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَلِهِ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ.

وَ﴿وَوَحْيِنَا﴾[6]: وَأَنَّا نُوحِي إِلَيْكَ وَنُلْهِمُكَ كَيْفَ تَصْنَعُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "لَمْ يَعْلَمْ كَيْفَ صَنْعَةُ الْفُلْكِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَهَا مِثْلَ جُؤْجُؤِ الطَّائِرِ".

﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[7]: وَلَا تَدْعُنِي فِي شَأْنِ قَوْمِكَ، وَاسْتِدْفَاعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ بِشَفَاعَتِكَ.

﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[8]: إِنَّهُمْ مَحْكُومٌ عَلَيْهِمْ بِالْإِغْرَاقِ، وَقَدْ وَجَبَ ذَلِكَ، وَقُضِيَ بِهِ الْقَضَاءُ، وَجَفَّ الْقَلَمُ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى كَفِّهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[9].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة هُودٍ، الآية 76.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[1]

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾[2]: حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ.

﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾[3]: وَمِنْ عَمَلِهِ السَّفِينَةَ، وَكَانَ يَعْمَلُهَا فِي بَرِّيَّةٍ بَهْمَاءَ فِي أَبْعَدِ مَوْضِعٍ مِنَ الْمَاءِ، وَفِي وَقْتٍ عَزَّ الْمَاءُ فِيهِ عِزَّةً شَدِيدَةً؛ فَكَانُوا يَتَضَاحَكُونَ وَيَقُولُونَ لَهُ: يَا نُوحُ، صِرْتَ نَجَّارًا بَعْدَمَا كُنْتَ نَبِيًّا.

﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾[4]، يَعْنِي: فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[5]: مِنَّا السَّاعَةَ، أَيْ: نَسْخَرُ مِنْكُمْ سُخْرِيَةً مِثْلَ سُخْرِيَتِكُمْ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكُمُ الْغَرَقُ فِي الدُّنْيَا وَالْحَرْقُ فِي الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: إِنْ تَسْتَجْهِلُونَا فِيمَا نَصْنَعُ، فَإِنَّا نَسْتَجْهِلُكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّعَرُّضِ لِسُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالِاسْتِجْهَالِ مِنَّا، أَوْ: إِنْ تَسْتَجْهِلُونَا، فَإِنَّا نَسْتَجْهِلُكُمْ فِي اسْتِجْهَالِكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَجْهِلُونَ إِلَّا عَنْ جَهْلٍ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَبِنَاءً عَلَى ظَاهِرِ الْحَالِ كَمَا هُوَ عَادَةُ الْجَهَلَةِ فِي الْبُعْدِ عَنِ الْحَقَائِقِ.

وَرُوِيَ أَنَّ نُوحًا –عَلَيْهِ السَّلَامُ– اتَّخَذَ السَّفِينَةَ فِي سَنَتَيْنِ، وَكَانَ طُولُهَا ثَلَاثَمِائَةِ ذِرَاعٍ وَعَرَضُهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا، وَطُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، وَكَانَتْ مِنْ خَشَبِ السَّاجِ، وَجَعَلَ لَهَا ثَلَاثَةَ بُطُونٍ؛ فَحَمَلَ فِي الْبَطْنِ الْأَسْفَلِ: الْوُحُوشَ، وَالسِّبَاعَ، وَالْهَوَامَّ؛ وَفِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ: الدَّوَابَّ ، وَالْأَنْعَامَ؛ وَرَكِبَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْبَطْنِ الْأَعْلَى مَعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ؛ وَحَمَلَ مَعَهُ جَسَدَ آدَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، وَجَعَلَهُ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: كَانَ طُولُهَا أَلْفًا وَمِائَتَيْ ذِرَاعٍ، وَعَرَضُهَا سِتَّمِائَةٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

وَقِيلَ: إِنَّ الْحَوَارِيِّينَ قَالُوا لِعِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: لَوْ بَعَثْتَ لَنَا رَجُلًا شَهِدَ السَّفِينَةَ يُحَدِّثُنَا عَنْهَا، فَانْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى كَثِيبٍ مِنْ تُرَابٍ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا كَعْبُ بْنُ حَامٍ، قَالَ: فَضَرَبَ الْكَثِيبَ بِعَصَاهُ فَقَالَ: قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ رَأْسِهِ وَقَدْ شَابَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: هَكَذَا أُهْلِكْتَ؟ قَالَ: لَا، مِتُّ وَأَنَا شَابٌّ، وَلَكِنَّنِي ظَنَنْتُ أَنَّهَا السَّاعَةُ فَمَنْ ثَمَّتَ شِبْتُ، قَالَ: حَدِّثْنَا عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ، قَالَ: كَانَ طُولُهَا أَلْفَ ذِرَاعٍ وَمِائَتَيْ ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا سِتَّمِائَةِ ذِرَاعٍ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ: طَبَقَةً لِلدَّوَابِّ وَالْوُحُوشِ، وَطَبَقَةً لِلْإِنْسِ، وَطَبَقَةً لِلطَّيْرِ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ: عُدْ بِإِذْنِ اللَّهِ كَمَا كُنْتَ، فَعَادَ تُرَابًا.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾[1]: فِي مَحَلِّ النَّصْبِ بِـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾[2]، أَيْ: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الَّذِي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَعْنِي بِهِ إِيَّاهُمْ، وَيُرِيدُ بِالْعَذَابِ: عَذَابَ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْغَرَقُ.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾[3]: حُلُولَ الدَّيْنِ وَالْحَقِّ اللَّازِمِ الَّذِي لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ.

﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[4]: وَهُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]

﴿حَتَّى﴾[6]: هِيَ الَّتِي يُبْتَدَأُ بَعْدَهَا الْكَلَامُ، دَخَلَتْ عَلَى الْجُمْلَةِ مِنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَقَعَتْ غَايَةً لِمَاذَا؟

قُلْتُ: لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾[7]، أَيْ: وَكَانَ يَصْنَعُهَا إِلَى أَنْ جَاءَ وَقْتُ الْمَوْعِدِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا اتَّصَلَتْ: ﴿حَتَّى﴾[1] بِـ ﴿يَصْنَعُ﴾[2]، فَمَا تَصْنَعُ بِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْكَلَامِ؟

قُلْتُ: هُوَ حَالٌ مِنْ ﴿يَصْنَعُ﴾[3]، كَأَنَّهُ قَالَ: يَصْنَعُهَا وَالْحَالُ أَنَّهُ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا جَوَابُ كُلَّمَا؟

قُلْتُ: أَنْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

– إِمَّا أَنْ تَجْعَلَ ﴿سَخِرُوا﴾[4] جَوَابًا، وَ﴿قَالَ﴾[5]: اسْتِئْنَافًا، عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالِ سَائِلٍ؛

– أَوْ تَجْعَلَ: ﴿سَخِرُوا﴾[6] بَدَلًا مِنْ ﴿مَرَّ﴾[7]، أَوْ صِفَةً: ﴿لِمَلَأٌ﴾[8]، وَ﴿قَالَ﴾[9]: جَوَابًا.

﴿وَأَهْلَكَ﴾[10]: عَطْفٌ عَلَى اثْنَيْنِ، وَكَذَلِكَ: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾[11]، يَعْنِي: وَاحْمِلْ أَهْلَكَ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَاسْتَثْنَى مَنْ أَهْلِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَمَا سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِذَلِكَ إِلَّا لِلْعِلْمِ بِأَنَّهُ يَخْتَارُ الْكُفْرَ، لَا لِتَقْدِيرِهِ عَلَيْهِ وَإِرَادَتِهِ بِهِ –تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ–.

قَالَ الضَّحَّاكُ: أَرَادَ ابْنَهُ وَامْرَأَتَهُ.

﴿إِلا قَلِيلٌ﴾[12]: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: "كَانُوا ثَمَانِيَةً: نُوحٌ وَأَهْلُهُ، وَبَنُوهُ الثَّلَاثَةُ، وَنِسَاؤُهُمْ".

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ: كَانُوا عَشْرَةً: خَمْسَةُ رِجَالٍ وَخَمْسُ نِسْوَةٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة هُودٍ، الآية.

[10] سورة هُودٍ، الآية.

[11] سورة هُودٍ، الآية.

[12] سورة هُودٍ، الآية.

وَقِيلَ: كَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَةً، وَأَوْلَادُ نُوحٍ: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثُ، وَنِسَاؤُهُمْ، فَالْجَمِيعُ ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعُونَ: نِصْفُهُمْ رِجَالٌ، وَنِصْفُهُمْ نِسَاءٌ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا وَاحِدًا وَكَلَامَيْنِ، فَالْكَلَامُ الْوَاحِدُ: أَنْ يَتَّصِلَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[1]: بِـ ﴿ارْكَبُوا﴾[2] حَالًا مِنَ الْوَاوِ، بِمَعْنَى: ارْكَبُوا فِيهَا مُسَمِّينَ اللَّهَ، أَوْ قَائِلِينَ: بِسْمِ اللَّهِ وَقْتَ إِجْرَائِهَا وَوَقْتَ إِرْسَائِهَا، إِمَّا لِأَنَّ الْمَجْرَى وَالْمَرْسَى لِلْوَقْتِ؛ وَإِمَّا لِأَنَّهُمَا مَصْدَرَانِ كَالْإِجْرَاءِ وَالْإِرْسَاءِ، حُذِفَ مِنْهُمَا الْوَقْتُ الْمُضَافُ، كَقَوْلِهِمْ: خُفُوقَ النَّجْمِ، وَمَقْدَمَ الْحَاجِّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ مَكَانَا الْإِجْرَاءِ وَالْإِرْسَاءِ، وَانْتِصَابُهُمَا بِمَا فِي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[3]: مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، أَوْ بِمَا فِيهِ مِنْ إِرَادَةِ الْقَوْلِ، وَالْكَلَامَانِ: أَنْ يَكُونَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[4]: جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ مُقْتَضَبَةٌ، أَيْ: بِسْمِ اللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا.

يُرْوَى أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَجْرِيَ قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[5] فَجَرَتْ؛ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ تَرْسُوَ قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[6]، فَرَسَتْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقْحِمَ الِاسْمَ، كَقَوْلِهِ:

ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا.....

وَيُرَادُ: بِاللَّهِ إِجْرَاؤُهَا وَإِرْسَاؤُهَا، أَيْ: بِقُدْرَتِهِ وَأَمْرِهِ، وَقُرِئَ: "مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا" بِفَتْحِ الْمِيمِ، مِنْ جَرَى وَرَسَى، إِمَّا مَصْدَرَيْنِ، أَوْ وَقْتَيْنِ، أَوْ مَكَانَيْنِ.

وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: "مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا" بِلَفْظِ اسْمِ الْفَاعِلِ، مَجْرُورَيِ الْمَحَلِّ، صِفَتَيْنِ لِلَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِكَ: جُمْلَةٌ مُقْتَضَبَةٌ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ نُوحًا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَمَرَهُمْ بِالرُّكُوبِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، أَوْ بِأَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُقْتَضَبَةٍ بِأَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، كَقَوْلِهِ:

وَجَاءُونَا بِهِمْ سَكْرٌ عَلَيْنَا. .....

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

فَلَا تَكُونُ كَلَامًا بِرَأْسِهِ، وَلَكِنْ فَضْلَةً مِنْ فَضْلَاتِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، وَانْتِصَابُ هَذِهِ الْحَالِ عَنْ ضَمِيرِ الْفُلْكِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ارْكَبُوا فِيهَا مُجْرَاةً وَمُرْسَاةً بِسْمِ اللَّهِ بِمَعْنَى: التَّقْدِيرِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1].

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]: لَوْلَا مَغْفِرَتُهُ لِذُنُوبِكُمْ وَرَحْمَتِهِ إِيَّاكُمْ، لَمَا نَجَّاكُمْ.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾[5]، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَرَكِبُوا فِيهَا يَقُولُونَ: بِسْمِ اللَّهِ.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾[6]، أَيْ: تَجْرِي وَهُمْ فِيهَا.

﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[7]: يُرِيدُ مَوْجَ الطُّوفَانِ، شَبَّهَ كُلَّ مَوْجَةٍ مِنْهُ بِالْجَبَلِ فِي تَرَاكُمِهَا وَارْتِفَاعِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمَوْجُ: مَا يَرْتَفِعُ فَوْقَ الْمَاءِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ وَزَخِيرِهِ، وَكَانَ الْمَاءُ قَدِ الْتَقَى وَطَبَّقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَتِ الْفُلْكُ تَجْرِي فِي جَوْفِ الْمَاءِ كَمَا تَسْبَحُ السَّمَكَةُ، فَمَا مَعْنَى جَرْيِهَا فِي الْمَوْجِ؟

---

[1] سورة الزُّمَرُ، الآية 73.

[2] سورة هُودٍ، الآية.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

[5] سورة هُودٍ، الآية.

[6] سورة هُودٍ، الآية.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

قُلْتُ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ التَّطْبِيقِ، وَقَبْلَ أَنْ يَغْمُرَ الطُّوفَانُ الْجِبَالَ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ ابْنِهِ: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[1]؟

قِيلَ: كَانَ اسْمُ ابْنِهِ: كَنْعَانَ، وَقِيلَ: يَامَ.

وَقَرَأَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "ابْنُهَا"، وَالضَّمِيرُ لِامْرَأَتِهِ.

وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: "ابْنَهَ" بِفَتْحِ الْهَاءِ، يُرِيدَانِ ابْنَهَا، فَاكْتَفَيَا بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلِفِ؛ وَبِهِ يُنْصَرُ مَذْهَبُ الْحَسَنِ، قَالَ قَتَادَةُ: سَأَلْتُهُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَانَ ابْنَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ حَكَى عَنْهُ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[2]، وَأَنْتَ تَقُولُ: لَمْ يَكُنِ ابْنَهُ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي أَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ، فَقَالَ: وَمَنْ يَأْخُذُ دِينَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؟! وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾[3]، وَلَمْ يَقُلْ: مِنِّي.

وَلِنِسْبَتِهِ إِلَى أُمِّهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ رَبِيبًا لَهُ، كَعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنْ يَكُونَ لِغَيْرِ رِشْدَةٍ، وَهَذِهِ غَضَاضَةٌ عُصِمَتْ مِنْهَا الْأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ-.

وَقَرَأَ السُّدِّيُّ: "وَنَادَى نُوحٌ ابْنَاهُ" عَلَى النُّدْبَةِ وَالتَّرَنِّي، أَيْ: قَالَ: يَا ابْنَاهُ.

وَالْمَعْزِلُ: مَفْعِلٌ، مِنْ عَزَلَهُ عَنْهُ إِذَا نَحَّاهُ وَأَبْعَدَهُ، يَعْنِي: وَكَانَ فِي مَكَانٍ عَزَلَ فِيهِ نَفْسَهُ عَنْ أَبِيهِ وَعَنْ مَرْكَبِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقِيلَ: كَانَ فِي مَعْزِلٍ عَنْ دِينِ أَبِيهِ.

﴿يَا بُنَيَّ﴾[4]: قُرِئَ بِكَسْرِ الْيَاءِ، اقْتِصَارًا عَلَيْهِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَبِالْفَتْحِ اقْتِصَارًا عَلَيْهِ مِنَ الْأَلِفِ الْمُبْدَلَةِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِكَ: يَا بُنَيَّا، أَوْ سَقَطَتِ الْيَاءُ وَالْأَلِفُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، لِأَنَّ الرَّاءَ بَعْدَهُمَا سَاكِنَةٌ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية 45.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة هُودٍ، الآية.

﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾[1]: إِلَّا الرَّاحِمَ، وَهُوَ اللَّهُ –تَعَالَى–، أَوْ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ الطُّوفَانِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، أَيْ: إِلَّا مَكَانَ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ لَهُمْ غَفُورًا رَحِيمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ الْجَبَلَ عَاصِمًا مِنَ الْمَاءِ، قَالَ لَهُ: لَا يَعْصِمُكَ الْيَوْمَ مُعْتَصَمٌ قَطُّ مِنْ جَبَلٍ وَنَحْوِهِ سِوَى مُعْتَصَمٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ مَكَانُ مَنْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَنَجَّاهُمْ، يَعْنِي: السَّفِينَةَ.

وَقِيلَ: ﴿لَا عَاصِمَ﴾[3]، بِمَعْنَى: لَا ذَا عِصْمَةٍ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾[4]، وَ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[5].

وَقِيلَ: ﴿إِلا مَنْ رَحِمَ﴾[6]: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَهُوَ الْمَعْصُومُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[7].

وَقُرِئَ: "إِلَّا مَنْ رُحِمَ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[8]

نِدَاءُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِمَا يُنَادَى بِهِ الْحَيَوَانُ الْمُمَيِّزُ عَلَى لَفْظِ التَّخْصِيصِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِمَا بِالْخِطَابِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَرْضُ﴾[9]، وَ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾[10].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية.

[2] سورة هُودٍ، الآية 41.

[3] سورة هُودٍ، الآية.

[4] سورة الطَّارِقُ، الآية 6.

[5] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 21.

[6] سورة النِّسَاءُ، الآية 157.

[7] سورة هُودٍ، الآية.

[8] سورة هُودٍ، الآية.

[9] سورة هُودٍ، الآية .

[10] سورة هُودٍ، الآية .

ثُمَّ أَمَرَهُمَا بِمَا يُؤْمَرُ بِهِ أَهْلُ التَّمْيِيزِ وَالْعَقْلِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ، وَأَقْلِعِي﴾[1]: مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الِاقْتِدَارِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهَذِهِ الْأَجْرَامَ الْعِظَامَ، مُنْقَادَةٌ لِتَكْوِينِهِ فِيهَا مَا يَشَاءُ غَيْرُ مُمْتَنِعَةٍ عَلَيْهِ، كَأَنَّهَا عُقَلَاءُ مُمَيِّزُونَ، قَدْ عَرَفُوا عَظَمَتَهُ، وَجَلَالَتَهُ، وَثَوَابَهُ، وَعِقَابَهُ، وَقُدْرَتَهُ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ؛ وَتَبَيَّنُوا تَحَتُّمَ طَاعَتِهِ عَلَيْهِمْ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ، وَهُمْ يَهَابُونَهُ وَيَفْزَعُونَ مِنَ التَّوَقُّفِ دُونَ الِامْتِثَالِ لَهُ، وَالنُّزُولِ عَلَى مَشِيئَتِهِ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ؛ فَكَمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ، كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ مَفْعُولًا لَا حَبْسَ وَلَا إِبْطَاءَ.

وَالْبَلْعُ: عِبَارَةٌ عَنِ النَّشَفِ، وَالْإِقْلَاعُ: الْإِمْسَاكُ، يُقَالُ: أَقْلَعَ الْمَطَرُ وَأَقْلَعَتِ الْحُمَّى.

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾[2]: مِنْ غَاضَهُ إِذَا نَقَصَهُ.

﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[3]: وَأَنْجَزَ مَا وَعَدَ اللَّهُ نُوحًا مِنْ هَلَاكِ قَوْمِهِ.

﴿وَاسْتَوَتْ﴾[4]: وَاسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ، ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾[5]: وَهُوَ جَبَلٌ بِالْمَوْصِلِ.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾[6]: يُقَالُ: بَعُدَ بُعْدًا وَبَعْدًا، إِذَا أَرَادُوا الْبُعْدَ الْبَعِيدَ مِنْ حَيْثُ الْهَلَاكُ وَالْمَوْتُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ اخْتَصَّ بِدُعَاءِ السُّوءِ، وَمَجِيءِ أَخْبَارِهِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْجَلَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ؛ وَأَنَّ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِفِعْلِ فَاعِلٍ قَادِرٍ، وَتَكْوِينِ مُكَوِّنٍ قَاهِرٍ، وَأَنَّ فَاعِلَهَا فَاعِلٌ وَاحِدٌ لَا يُشَارَكُ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَذْهَبُ الْوَهْمُ إِلَى أَنْ يَقُولَ غَيْرُهُ: يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي؛ وَلَا أَنْ يَقْضِيَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْهَائِلَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْ تَسْتَوِيَ السَّفِينَةُ عَلَى مَتْنِ الْجُودِيِّ، وَتَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ إِلَّا بِتَسْوِيَتِهِ وَإِقْرَارِهِ، وَلِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمَعَانِي وَالنُّكَتِ اسْتَفْصَحَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ هَذِهِ الْآيَةَ وَرَقَّصُوا لَهَا رُؤُوسَهُمْ، لَا لِتَجَانُسِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَهُمَا قَوْلُهُ: ﴿ابْلَعِي﴾[7] وَ﴿أَقْلِعِي﴾[8].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة هُودٍ، الآية .

وَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَا يُخَلِّي الْكَلَامَ مِنْ حُسْنٍ، فَهُوَ كَغَيْرِ الْمُلْتَفَتِ إِلَيْهِ بِإِزَاءِ تِلْكَ الْمَحَاسِنِ الَّتِي هِيَ اللُّبُّ وَمَا عَدَاهَا قُشُورٌ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: اسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ لِعَشَرٍ خَلَوْنَ مِنْ رَجَبٍ، وَكَانَتْ فِي الْمَاءِ خَمْسِينَ وَمِائَةَ يَوْمٍ، وَاسْتَقَرَّتْ بِهِمْ عَلَى الْجُودِيِّ شَهْرًا، وَهَبَطَ بِهِمْ يَوْمَ عَاشُورَاءَ.

وَرُوِيَ أَنَّهَا مَرَّتْ بِالْبَيْتِ، فَطَافَتْ بِهِ سَبْعًا، وَقَدْ أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْغَرَقِ.

وَرُوِيَ أَنَّ نُوحًا صَامَ يَوْمَ الْهُبُوطِ، وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ فَصَامُوا شُكْرًا لِلَّهِ –تَعَالَى–.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]

نِدَاؤُهُ رَبَّهُ: دُعَاؤُهُ لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ﴾[2]، مَعَ مَا بَعْدَهُ مِنِ اقْتِضَاءِ وَعْدِهِ فِي تَنْجِيَةِ أَهْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ النِّدَاءُ هُوَ قَوْلَهُ: ﴿رَبِّ﴾[3]، فَكَيْفَ عَطَفَ: "قَالَ رَبِّ" عَلَى "نَادَى" بِالْفَاءِ؟!

قُلْتُ: أُرِيدَ بِالنِّدَاءِ إِرَادَةُ النِّدَاءِ، وَلَوْ أُرِيدَ النِّدَاءُ نَفْسُهُ لَجَاءَ، كَمَا جَاءَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ﴾[4] بِغَيْرِ فَاءٍ.

﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[5]، أَيْ: بَعْضُ أَهْلِي، لِأَنَّهُ كَانَ ابْنَهُ مِنْ صُلْبِهِ، أَوْ كَانَ رَبِيبًا لَهُ فَهُوَ بَعْضُ أَهْلِهِ.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾[6]: وَإِنَّ كُلَّ وَعْدٍ تَعِدُهُ فَهُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِي إِنْجَازِهِ وَالْوَفَاءِ بِهِ، وَقَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تُنْجِيَ أَهْلِي، فَمَا بَالُ وَلَدِي؟

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة مَرْيَمُ، الآيتان 3–4.

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[1]، أَيْ: أَعْلَمُ الْحُكَّامِ وَأَعْدَلُهُمْ، لِأَنَّهُ لَا فَضْلَ لِحَاكِمٍ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، وَرُبَّ غَرِيقٍ فِي الْجَهْلِ وَالْجَوْرِ مِنْ مُتَقَلِّدِي الْحُكُومَةِ فِي زَمَانِكَ قَدْ لُقِّبَ أَقْضَى الْقُضَاةِ. وَمَعْنَاهُ: أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ فَاعْتَبِرْ وَاسْتَعْبِرْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِكْمَةِ حَاكِمٌ، عَلَى أَنْ يَبْنِيَ مِنَ الْحِكْمَةِ حَاكِمٌ بِمَعْنَى: النِّسْبَةِ كَمَا قِيلَ: دَارِعٌ مِنَ الدِّرْعِ، وَحَائِضٌ وَطَالِقٌ عَلَى مَذْهَبِ الْخَلِيلِ.

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[2]: تَعْلِيلٌ لِانْتِفَاءِ كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَفِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ قَرَابَةَ الدِّينِ غَامِرَةٌ لِقَرَابَةِ النَّسَبِ، وَأَنَّ نَسِيبَكَ فِي دِينِكَ وَمُعْتَقَدِكَ مِنَ الْأَبَاعِدِ فِي الْمَنْصِبِ، وَإِنْ كَانَ حَبَشِيًّا، وَكُنْتَ قُرَشِيًّا لَصِيقُكَ وَخَصِيصُكَ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِكَ –وَإِنْ كَانَ أَمَسَّ أَقَارِبِكَ رَحِمًا–، فَهُوَ أَبْعَدُ بِعِيدٍ مِنْكَ، وَجُعِلَتْ ذَاتُهُ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، مُبَالَغَةً فِي ذَمِّهِ، كَقَوْلِهَا:

.....فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ: لِنِدَاءِ نُوحٍ، أَيْ: إِنَّ نِدَاءَكَ هَذَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ وَلَيْسَ بِذَاكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: إِنَّهُ عَمَلٌ فَاسِدٌ؟

قُلْتُ: لَمَّا نَفَاهُ عَنْ أَهْلِهِ، نَفَى عَنْهُ صِفَتَهُمْ بِكَلِمَةِ النَّفْيِ الَّتِي يَسْتَبْقِي مَعَهَا لَفْظَ الْمَنْفِيِّ، وَآذَنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْجَى مَنْ أَنْجَى مِنْ أَهْلِهِ لِصَلَاحِهِمْ، لَا لِأَنَّهُمْ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ، وَإِنَّ هَذَا لَمَّا انْتَفَى عَنْهُ الصَّلَاحُ لَمْ تَنْفَعْهُ أُبُوَّتُكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[3] [التَّحْرِيمُ].

وَقُرِئَ: "عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ" أَيْ: عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ.

وَقُرِئَ: "فَلَا تَسْئَلْنِ"، بِكَسْرِ النُّونِ بِغَيْرِ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَبِالنُّونِ الثَّقِيلَةِ بِيَاءٍ وَبِغَيْرِ يَاءٍ، يَعْنِي: فَلَا تَلْتَمِسْ مِنِّي مُلْتَمَسًا أَوِ الْتِمَاسًا لَا تَعْلَمُ أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ غَيْرُ صَوَابٍ، حَتَّى تَقِفَ عَلَى كُنْهِهِ. وَذِكْرُ الْمَسْأَلَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النِّدَاءَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَغْرَقَ حِينَ خَافَ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ نِدَاؤُهُ سُؤَالًا وَلَا سُؤَالَ فِيهِ؟

قُلْتُ: قَدْ تَضَمَّنَ دُعَاؤُهُ مَعْنَى السُّؤَالِ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْعِدَ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ فِي وَقْتِ مُشَارَفَةِ وَلَدِهِ الْغَرَقَ فَقَدِ اسْتَنْجَزَ، وَجُعِلَ سُؤَالُ مَا لَا يُعْرَفُ كُنْهُهُ جَهْلًا وَغَبَاوَةً، وَوَعَظَهُ أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَمْثَالِهِ مِنْ أَفْعَالِ الْجَاهِلِينَ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ وَعَدَهُ أَنْ يُنْجِيَ أَهْلَهُ، وَمَا كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ ابْنَهُ لَيْسَ مِنْهُمْ دِينًا، فَلَمَّا أَشْفَى عَلَى الْغَرَقِ تَشَابَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، لِأَنَّ الْعِدَةَ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ، وَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ حَكِيمًا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ فِعْلُ الْقَبِيحِ وَخُلْفُ الْمِيعَادِ، فَطَلَبَ إِمَاطَةَ الشُّبْهَةِ وَطَلَبُ إِمَاطَةِ الشُّبْهَةِ وَاجِبٌ، فَلِمَ زُجِرَ وَسُمِّيَ سُؤَالُهُ جَهْلًا؟

قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَعَلَا– قَدَّمَ لَهُ الْوَعْدَ بِإِنْجَاءِ أَهْلِهِ مَعَ اسْتِثْنَاءِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ فِي جُمْلَةِ أَهْلِهِ مَنْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ لِلْعَذَابِ، لِكَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، وَأَنَّ كُلَّهُمْ لَيْسُوا بِنَاجِينَ، وَأَلَّا تُخَالِجَهُ شُبْهَةٌ حِينَ شَارَفَ وَلَدُهُ الْغَرَقَ فِي أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَثْنَيْنَ لَا مِنَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُمْ، فَعُوتِبَ عَلَى أَنِ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ أَلَّا يُشْتَبَهَ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]

﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾[2]: مِنْ أَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا لَا عِلْمَ لِي بِصِحَّتِهِ، تَأَدُّبًا بِأَدَبِكَ، وَاتِّعَاظًا بِمَوْعِظَتِكَ.

﴿وَإِلاّ تَغْفِرْ لِي﴾[3]: مَا فَرَطَ مِنِّي مِنْ ذَلِكَ.

﴿وَتَرْحَمْنِي﴾[4]: بِالتَّوْبَةِ عَلَيَّ.

﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5]: أَعْمَالًا.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

وَقُرِئَ: "يَا نُوحُ اهْبُطْ" بِضَمِّ الْبَاءِ.

﴿بِسَلامٍ مِنَّا﴾[1]: مُسَلَّمًا مَحْفُوظًا مِنْ جِهَتِنَا، أَوْ مُسَلَّمًا عَلَيْكَ مُكَرَّمًا.

﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾[2]: وَمُبَارَكًا عَلَيْكَ، وَالْبَرَكَاتُ الْخَيْرَاتُ النَّامِيَةُ.

وَقُرِئَ: "وَبَرَكَةٍ" عَلَى التَّوْحِيدِ.

﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾[3]: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ "مِنْ" لِلْبَيَانِ، فَيُرَادُ الْأُمَمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَاتٍ، أَوْ قِيلَ لَهُمْ أُمَمٌ، لِأَنَّ الْأُمَمَ تَتَشَعَّبُ مِنْهُمْ، وَأَنْ تَكُونَ لِإِبْدَاءِ الْغَايَةِ، أَيْ: عَلَى أُمَمٍ نَاشِئَةٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَهِيَ الْأُمَمُ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ وَهُوَ الْوَجْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمَمٌ﴾[4]: رَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ.

وَ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾[5]: صِفَةٌ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وَمِمَّنْ مَعَكَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ. وَإِنَّمَا حُذِفَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾[6] يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ السَّلَامَ مِنَّا، وَالْبَرَكَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مُؤْمِنِينَ يَنْشَؤُونَ مِمَّنْ مَعَكَ، وَمِمَّنْ مَعَكَ أُمَمٌ مُمَتَّعُونَ بِالدُّنْيَا مُنْقَلِبُونَ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ نُوحٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَبَا الْأَنْبِيَاءِ، وَالْخَلْقُ بَعْدَ الطُّوفَانِ مِنْهُ، وَمِمَّنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُرَظِيِّ: دَخَلَ فِي ذَلِكَ السَّلَامِ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِيمَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعَذَابِ كُلُّ كَافِرٍ.

وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ: هَبَطُوا وَاللَّهُ عَنْهُمْ رَاضٍ ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُمْ نَسْلًا، مِنْهُمْ مَنْ رُحِمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عُذِّبَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأُمَمِ الْمُمَتَّعَةِ: قَوْمُ هُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]

﴿تِلْكَ﴾[2]: إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ نُوحٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَمَحَلُّهَا الرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالْجُمَلُ بَعْدَهَا أَخْبَارٌ، أَيْ: تِلْكَ الْقِصَّةُ بَعْضُ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ مُوحَاةً إِلَيْكَ، مَجْهُولَةً عِنْدَكَ وَعِنْدَ قَوْمِكَ.

﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾[3]: مِنْ قَبْلِ إِيحَائِي إِلَيْكَ وَإِخْبَارِكَ بِهَا، أَوْ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي كَسَبْتَهُ بِالْوَحْيِ، أَوْ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْوَقْتِ.

﴿فَاصْبِرْ﴾[4]: عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَذَى قَوْمِكَ، كَمَا صَبَرَ نُوحٌ، وَتَوَقَّعْ فِي الْعَاقِبَةِ لَكَ، وَلِمَنْ كَذَّبَكَ نَحْوُ مَا قُيِّضَ لِنُوحٍ وَلِقَوْمِهِ.

﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾[5]: فِي الْفَوْزِ وَالنَّصْرِ وَالْغَلَبَةِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[6].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلا قَوْمُكَ﴾[7]، مَعْنَاهُ: إِنَّ قَوْمَكَ الَّذِينَ أَنْتَ مِنْهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ، وَوُفُورِ عَدَدِهِمْ، إِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ شَأْنَهُمْ، وَلَا سَمِعُوهُ، وَلَا عَرَفُوهُ، فَكَيْفَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ، كَمَا تَقُولُ: لَمْ يَعْرِفْ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ وَلَا أَهْلُ بَلَدِهِ.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[8]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .

﴿أَخَاهُمْ﴾[1]: وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَانْتِصَابُهُ لِلْعَطْفِ عَلَى أَرْسَلْنَا نُوحًا.

وَ﴿هُودًا﴾[2]: عَطْفُ بَيَانٍ.

وَ﴿غَيْرُهُ﴾[3]: بِالرَّفْعِ صِفَةٌ عَلَى مَحَلِّ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ.

وَقُرِئَ: "غَيْرِهِ" بِالْجَرِّ صِفَةً عَلَى اللَّفْظِ.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ﴾[4]: تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بِاتِّخَاذِكُمُ الْأَوْثَانَ لَهُ شُرَكَاءَ، مَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَاجَهَ قَوْمَهُ بِهَذَا الْقَوْلِ، لِأَنَّ شَأْنَهُمُ النَّصِيحَةُ، وَالنَّصِيحَةُ لَا يُمَحِّصُهَا، وَلَا يُمَحِّضُهَا إِلَّا حَسْمُ الْمَطَامِعِ، وَمَا دَامَ يُتَوَهَّمُ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ تُنْجِعْ وَلَمْ تَنْفَعْ.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[5]: إِذْ تَرُدُّونَ نَصِيحَةَ مَنْ لَا يَطْلُبُ عَلَيْهَا أَجْرًا إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ، وَلَا شَيْءَ أَنْفَى لِلتُّهْمَةِ مِنْ ذَلِكَ.

قِيلَ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾[6]: آمِنُوا بِهِ، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[7]: مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بَعْدَ الْإِيمَانِ.

وَ"الْمِدْرَارُ": الْكَثِيرُ الدُّرُورِ، كَالْمِغْزَارِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ اسْتِمَالَتَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَرْغِيبَهُمْ فِيهِ، بِكَثْرَةِ الْمَطَرِ، وَزِيَادَةِ الْقُوَّةِ، لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا أَصْحَابَ زُرُوعٍ، وَبَسَاتِينَ، وَعِمَارَاتٍ، حِرَاصًا عَلَيْهَا أَشَدَّ الْحِرْصِ، فَكَانُوا أَحْوَجَ شَيْءٍ إِلَى الْمَاءِ، وَكَانُوا مُدِلِّينَ بِمَا أُوتُوا مِنْ شِدَّةِ الْقُوَّةِ، وَالْبَطْشِ، وَالْبَأْسِ، وَالنَّجْدَةِ، مُسْتَحْرِزِينَ بِهَا مِنَ الْعَدُوِّ، مَهِيبَيْنِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ.

وَقِيلَ: أَرَادَ الْقُوَّةَ فِي الْمَالِ، وَقِيلَ: الْقُوَّةُ عَلَى النِّكَاحِ، وَقِيلَ: حَبَسَ عَنْهُمُ الْقَطْرَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَعَقِمَتْ أَرْحَامُ نِسَائِهِمْ.

وَعَنِ **الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ** –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى **مُعَاوِيَةَ**، فَلَمَّا خَرَجَ، تَبِعَهُ بَعْضُ حُجَّابِهِ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ ذُو مَالٍ وَلَا يُولَدُ لِي، فَعَلِّمْنِي شَيْئًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي وَلَدًا،

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ يُكْثِرُ الِاسْتِغْفَارَ حَتَّى رُبَّمَا اسْتَغْفَرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَمِائَةِ مَرَّةٍ، فَوُلِدَ لَهُ عَشَرَةُ بَنِينَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: هَلَّا سَأَلْتَهُ مِمَّ قَالَ ذَلِكَ، فَوَفَدَ وَفْدَةً أُخْرَى، فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ هُودٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾[1]، وَقَوْلَ نُوحٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–:﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَلا تَتَوَلَّوْا﴾[2]: وَلَا تُعْرِضُوا عَنِّي، وَعَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَأُرَغِّبُكُمْ فِيهِ، ﴿مُجْرِمِينَ﴾[3]: مُصِرِّينَ عَلَى إِجْرَامِكُمْ وَآثَامِكُمْ؟

﴿قَالُوا يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]

﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[5]: كَذِبٌ مِنْهُمْ وَجُحُودٌ، كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:﴿ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[6]، مَعَ فَوْتِ آيَاتِهِ الْحَصْرَ.

﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾[7]: حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي تَارِكِي آلِهَتِنَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا نَتْرُكُ آلِهَتَنَا صَادِرِيْنِ عَنْ قَوْلِكَ.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[8]: وَمَا يَصِحُّ مِنْ أَمْثَالِنَا أَنْ يُصَدِّقُوا مِثْلَكَ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، إِقْنَاطًا لَهُ مِنَ الْإِجَابَةِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة يُونُسُ، الآية 20.

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة هُودٍ، الآية .

﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾[1]

﴿اعْتَرَاكَ﴾[2]: مَفْعُولُ ﴿نَقُولُ﴾[3]، وَإِلَّا لَغْوٌ.

وَالْمَعْنَى: مَا نَقُولُ إِلَّا قَوْلَنَا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ، أَيْ: خَبَلَكَ وَمَسَّكَ بِجُنُونٍ لِسَبِّكَ إِيَّاهَا، وَصَدِّكَ عَنْهَا وَعَدَاوَتِكَ لَهَا، مُكَافَأَةً لَكَ مِنْهَا عَلَى سُوءِ فِعْلِكَ بِسُوءِ الْجَزَاءِ، فَمِنْ ثَمَّ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ، وَتَهْذِي بِهَذَيَانِ الْمُبَرْسِمِينَ، وَلَيْسَ بِعَجَبٍ مِنْ أُولَئِكَ أَنْ يُسَمُّوا التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ خَبَلًا وَجُنُونًا وَهُمْ عَادٌ أَعْلَامُ الْكُفْرِ، وَأَوْتَادُ الشِّرْكِ.

وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ مِنَ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالْإِسْلَامِ، سَمِعْنَاهُمْ يُسَمُّونَ التَّائِبَ مِنْ ذُنُوبِهِ مَجْنُونًا، وَالْمُنِيبَ إِلَى رَبِّهِ مُخَبَّلًا، وَلَمْ نَجِدْهُمْ مَعَهُ عَلَى عُشْرٍ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي أَيَّامِ جَاهِلِيَّتِهِ مِنَ الْمُوَادَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعِرْقٍ مِنَ الْإِلْحَادِ أَبَى إِلَّا أَنْ يَنْبِضَ، وَضَبَّ مِنَ الزَّنْدَقَةِ أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَ رَأْسَهُ، وَقَدْ دَلَّتْ أَجْوِبَتُهُمُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا جُفَاةً غِلَاظَ الْأَكْبَادِ، لَا يُبَالُونَ بِالْبُهْتِ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى النُّصْحِ، وَلَا تَلِينُ شَكِيمَتُهُمْ لِلرُّشْدِ.

وَهَذَا الْأَخِيرُ دَالٌّ عَلَى جَهْلٍ مُفْرِطٍ وَبَلَهٍ مُتَنَاهٍ، حَيْثُ اعْتَقَدُوا فِي حِجَارَةٍ أَنَّهَا تَنْصُرُ وَتَنْتَقِمُ، وَلَعَلَّهُمْ حِينَ أَجَازُوا الْعِقَابَ كَانُوا يُجِيزُونَ الثَّوَابَ، مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ أَنْ يُوَاجِهَ بِهَذَا الْكَلَامِ رَجُلٌ وَاحِدٌ أُمَّةً عِطَاشًا إِلَى إِرَاقَةِ دَمِهِ، يَرْمُونَهُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَذَلِكَ لِثِقَتِهِ بِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ يَعْصِمُهُ مِنْهُمْ، فَلَا تَنْشَبُ فِيهِ مَخَالِبُهُمْ.

وَنَحْوُ ذَلِكَ قَالَ نُوحٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾[4]، أَكَّدَ بَرَاءَتَهُ مِنْ آلِهَتِهِمْ، وَشِرْكِهِمْ وَوَثَّقَهَا بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِنْ تَوْثِيقِهِمُ الْأُمُورَ بِشَهَادَةِ اللَّهِ وَشَهَادَةِ الْعِبَادِ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى أَنِّي لَا أَفْعَلُ كَذَا، وَيَقُولُ لِقَوْمِهِ: كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى أَنِّي لَا أَفْعَلُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأُشْهِدُكُمْ؟

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة يُونُسَ، الآية **71**.

قُلْتُ: لِأَنَّ إِشْهَادَ اللَّهِ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ إِشْهَادٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ فِي مَعْنَى تَثْبِيتِ التَّوْحِيدِ وَشَدِّ مَعَاقِدِهِ، وَأَمَّا إِشْهَادُهُمْ فَمَا هُوَ إِلَّا تَهَاوُنٌ بِدِينِهِمْ، وَدَلَالَةٌ عَلَى قِلَّةِ الْمُبَالَاةِ بِهِمْ فَحَسْبُ، فَعَدَلَ بِهِ عَنْ لَفْظِ الْأَوَّلِ لِاخْتِلَافِ مَا بَيْنَهُمَا، وَجِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْأَمْرِ بِالشَّهَادَةِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يَبِسَ الثَّرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، اشْهَدْ عَلَيَّ أَنِّي لَا أُحِبُّكَ، تَهَكُّمًا بِهِ، وَاسْتِهَانَةً بِحَالِهِ.

﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾[1]: مِنْ إِشْرَاكِكُمْ آلِهَةً مَنْ دُونِهِ، أَوْ مِمَّا تُشْرِكُونَهُ مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ، أَيْ: أَنْتُمْ تَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ لَهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا هُوَ شُرَكَاءَ، وَلَمْ يُنْزِلْ بِذَلِكَ سُلْطَانًا.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾[2]: أَنْتُمْ وَآلِهَتُكُمْ أَعْجَلَ مَا تَفْعَلُونَ، مِنْ غَيْرِ إِنْظَارٍ، فَإِنِّي لَا أُبَالِي بِكُمْ وَبِكَيْدِكُمْ، وَلَا أَخَافُ مَعَرَّتَكُمْ وَإِنْ تَعَاوَنْتُمْ عَلَيَّ، وَأَنْتُمُ الْأَقْوِيَاءُ الشِّدَادُ؛ فَكَيْفَ تَضُرُّنِي آلِهَتُكُمْ، وَمَا هِيَ إِلَّا جَمَادٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ؟! وَكَيْفَ تَنْتَقِمُ مِنِّي إِذَا نِلْتُ مِنْهَا وَصَدَدْتُ عَنْ عِبَادَتِهَا، بِأَنْ تُخَبِّلَنِي وَتَذْهَبَ بِعَقْلِي؟!

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3]

وَلَمَّا ذَكَرَ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللَّهِ، وَثِقَتَهُ بِحِفْظِهِ، وَكَلَاءَتِهِ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَصَفَهُ بِمَا يُوجِبُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ مِنِ اشْتِمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، مِنْ كَوْنِ كُلِّ دَابَّةٍ فِي قَبْضَتِهِ وَمَلْكَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَالْأَخْذُ بِنَوَاصِيهَا، تَمْثِيلٌ لِذَلِكَ.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4]: يُرِيدُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي مُلْكِهِ، لَا يَفُوتُهُ ظَالِمٌ، وَلَا يَضِيعُ عِنْدَهُ مُعْتَصِمٌ بِهِ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾[5]: فَإِنْ تَتَوَلَّوْا.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: الْإِبْلَاغُ كَانَ قَبْلَ التَّوَلِّي، فَكَيْفَ وَقَعَ جَزَاءً لِلشَّرْطِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَإِنْ تَتَوَلَّوْا لَمْ أُعَاتَبْ عَلَى تَفْرِيطٍ فِي الْإِبْلَاغِ، وَكُنْتُمْ مَحْجُوجِينَ بِأَنَّ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ قَدْ بَلَغَكُمْ، فَأَبَيْتُمْ إِلَّا تَكْذِيبَ الرِّسَالَةِ، وَعَدَاوَةَ الرَّسُولِ.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾[1]: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، يُرِيدُ: وَيُهْلِكُكُمُ اللَّهُ، وَيَجِيءُ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يَخْلُفُونَكُمْ فِي دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ.

﴿وَلا تَضُرُّونَهُ﴾[2]: بِتَوَلِّيكُمْ، ﴿شَيْئًا﴾[3]: مِنْ ضَرَرٍ قَطُّ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَضَارُّ وَالْمَنَافِعُ، وَإِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ.

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: "وَيَسْتَخْلِفْ" بِالْجَزْمِ.

وَكَذَلِكَ: "وَلَا تَضُرُّوهُ" عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾[4].

وَالْمَعْنَى: إِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذُرْنِي، وَيَسْتَخْلِفْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ.

﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[5]، أَيْ: رَقِيبٌ عَلَيْهِ مُهَيْمِنٌ، فَمَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ مُؤَاخَذَتِكُمْ، أَوْ مَنْ كَانَ رَقِيبًا عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، حَافِظًا لَهَا، وَكَانَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى حِفْظِهِ مِنَ الْمَضَارِّ، لَمْ يَضُرَّ مِثْلَهُ مِثْلُكُمْ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[6]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[7]: قِيلَ: كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَكْرِيرِ التَّنْجِيَةِ؟

قُلْتُ: ذَكَرَ أَوَّلًا أَنَّهُ حِينَ أَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ، نَجَّاهُمْ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[1]، عَلَى مَعْنَى: وَكَانَتْ تِلْكَ التَّنْجِيَةُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بَعَثَ عَلَيْهِمُ السُّمُومَ، فَكَانَتْ تَدْخُلُ فِي أُنُوفِهِمْ، وَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ، فَتُقَطِّعُهُمْ عُضْوًا عُضْوًا.

وَقِيلَ: أَرَادَ بِالثَّانِيَةِ: التَّنْجِيَةَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلَا عَذَابَ أَغْلَظُ مِنْهُ وَأَشَدُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[2]، يُرِيدُ: بِسَبَبِ الْإِيمَانِ الَّذِي أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[3]

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾[4]: إِشَارَةٌ إِلَى قُبُورِهِمْ وَآثَارِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: سِيحُوا فِي الْأَرْضِ، فَانْظُرُوا إِلَيْهَا وَاعْتَبِرُوا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ وَصْفَ أَحْوَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾[5]، لِأَنَّهُمْ إِذَا عَصَوْا رَسُولَهُمْ، فَقَدْ عَصَوْا جَمِيعَ رُسُلِ اللَّهِ.

﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه﴾[6]، قِيلَ: لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا هُودٌ وَحْدَهُ.

﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[7]، يُرِيدُ: رُؤَسَاءَهُمْ، وَكُبَرَاءَهُمْ، وَدُعَاتَهُمْ إِلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ.

وَمَعْنَى اتِّبَاعِ أَمْرِهِمْ: طَاعَتُهُمْ.

وَلَمَّا كَانُوا تَابِعِينَ لَهُمْ دُونَ الرُّسُلِ، جُعِلَتِ اللَّعْنَةُ تَابِعَةً لَهُمْ فِي الدَّارَيْنِ، تَكُبُّهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي عَذَابِ اللَّهِ.

---

1 سورة هُودٍ، الآية .

2 سورة هُودٍ، الآية .

3 سورة هُودٍ، الآية .

4 سورة هُودٍ، الآية .

5 سورة هُودٍ، الآية .

6 سورة هُودٍ، الآية .

7 سورة هُودٍ، الآية .

وَ﴿أَلَا﴾[1]: وَتَكْرَارُهَا مَعَ النِّدَاءِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهِمْ وَتَفْظِيعٌ لَهُ، وَبَعْثٌ عَلَى الِاعْتِبَارِ بِهِمْ وَالْحَذَرِ مِنْ مِثْلِ حَالِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿بُعْدًا﴾[2] دُعَاءٌ بِالْهَلَاكِ، فَمَا مَعْنَى الدُّعَاءِ بِهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَأْهِلِينَ لَهُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:

إِخْوَتِي لا تَبْعَدُوا أَبَـــــدًا وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِـــــــدُوا

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾[3]: عَطْفُ بَيَانٍ لِعَادٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَائِدَةُ فِي هَذَا الْبَيَانِ، وَالْبَيَانُ حَاصِلٌ بِدُونِهِ؟

قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ: أَنْ يَوْسَمُوا بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَسْمًا، وَتُجْعَلَ فِيهِمْ أَمْرًا مُحَقَّقًا، لَا شُبْهَةَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلِأَنَّ عَادًا عَادَانِ: الْأُولَى: الْقَدِيمَةُ الَّتِي هِيَ قَوْمُ هُودٍ وَالْقِصَّةُ فِيهِمْ، وَالْأُخْرَى: إِرَمُ.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[4]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾[1]: لَمْ يُنْشِئْكُمْ مِنْهَا إِلَّا هُوَ، وَلَمْ يَسْتَعْمِرْكُمْ فِيهَا غَيْرُهُ، وَإِنْشَاؤُهُمْ مِنْهَا خَلْقُ ادَمَ مِنَ التُّرَابِ.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2]: وَأَمَرَكُمْ بِالْعِمَارَةِ، وَالْعِمَارَةُ: مُتَنَوِّعَةٌ إِلَي وَاجِبٍ، وَنَدْبٍ، وَمُبَاحٍ، وَمَكْرُوهٍ، وَكَانَ مُلُوكُ فَارِسَ قَدْ أَكْثَرُوا مِنْ حَفْرِ الْأَنْهَارِ، وَغَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَعُمِّرُوا الْأَعْمَارَ الطِّوَالَ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنْ عَسْفِ الرَّعَايَا، فَسَأَلَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ زَمَانِهِمْ رَبَّهُ عَنْ سَبَبِ تَعْمِيرِهِمْ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّهُمْ عَمَّرُوا بِلَادِي، فَعَاشَ فِيهَا عِبَادِي.

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهُ أَخَذَ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ فِي آخِرِ أَمْرِهِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ:

لَيْسَ الْفَتَى بِفَتًى لَا يُسْتَضَاءُ بِــهِ وَلا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ

وَقِيلَ: "اسْتَعْمَرَكُمْ مِنَ الْعُمْرِ"، نَحْوَ: اسْتَبْقَاكُمْ مِنَ الْبَقَاءِ، وَقَدْ جُعِلَ مِنَ الْعُمْرِيِّ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

–أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ اسْتُعْمِرَ فِي مَعْنَى: أُعْمِرَ، كَقَوْلِكَ: اسْتَهْلَكَهُ فِي مَعْنَى أَهْلَكَهُ.

وَمَعْنَاهُ: أَعْمَرَكُمْ فِيهَا دِيَارَكُمْ، ثُمَّ هُوَ وَارِثُهَا مِنْكُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَعْمَارِكُمْ.

–وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: جَعَلَكُمْ مُعَمِّرِينَ دِيَارَكُمْ فِيهَا، لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا وَرَّثَ دَارَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَأَنَّمَا أَعْمَرَهُ إِيَّاهَا، لِأَنَّهُ يَسْكُنُهَا عُمْرَهُ ثُمَّ يَتْرُكُهَا لِغَيْرِهِ.

﴿قَرِيبٌ﴾[3]: دَانِي الرَّحْمَةِ سَهْلُ الْمَطْلَبِ، ﴿مُجِيبٌ﴾[4]: لِمَنْ دَعَاهُ وَسَأَلَهُ، ﴿فِينَا﴾[5]: فِيمَا بَيْنَنَا.

﴿مَرْجُوًّا﴾: كَانَتْ تَلُوحُ فِيكَ مَخَايِلُ الْخَيْرِ، وَأَمَارَاتُ الرُّشْدِ، فَكُنَّا نَرْجُوكَ لِنَنْتَفِعَ بِكَ، وَتَكُونَ مُشَاوِرًا فِي الْأُمُورِ، وَمُسْتَرْشَدًا فِي التَّدَابِيرِ.

فَلَمَّا نَطَقْتَ بِهَذَا الْقَوْلِ، انْقَطَعَ رَجَاؤُنَا عَنْكَ، وَعَلِمْنَا أَنْ لَا خَيْرَ فِيكَ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَاضِلًا خَيِّرًا نُقَدِّمُكَ عَلَى جَمِيعِنَا، وَقِيلَ: كُنَّا نَرْجُو أَنْ تَدْخُلَ فِي دِينِنَا، وَتُوَافِقُنَا عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ.

﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[1]: حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ.

﴿مُرِيبٍ﴾[2]: مِنْ أَرَابَهُ إِذَا أَوْقَعَهُ فِي الرِّيبَةِ، وَهِيَ قَلَقُ النَّفْسِ، وَانْتِفَاءُ الطُّمَأْنِينَةِ بِالْيَقِينِ، أَوْ مِنْ "أَرَابَ الرَّجُلُ": إِذَا كَانَ ذَا رِيبَةٍ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ.

قِيلَ: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾[3]: بِحَرْفِ الشَّكِّ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ، لِأَنَّ خِطَابَهُ لِلْجَاحِدِينَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قَدِّرُوا أَنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَأَنِّي نَبِيٌّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَانْظُرُوا إِنْ تَابَعْتُكُمْ وَعَصَيْتُ رَبِّي فِي أَوَامِرِهِ، فَمَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾[4]: إِذَنْ حِينَئِذٍ.

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[5]، يَعْنِي: تُخْسِرُونَ أَعْمَالِي وَتُبْطِلُونَهَا، أَوْ: فَمَا تَزِيدُونَنِي بِمَا تَقُولُونَ لِي، وَتَحْمِلُونَنِي عَلَيْهِ غَيْرَ أَنْ أَخْسَرَكُمْ، أَيْ: أَنْسِبُكُمْ إِلَى الْخُسْرَانِ، وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ خَاسِرُونَ، ﴿آيَةً﴾[6]: نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ، قَدْ عَمِلَ فِيهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِشَارَةِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبِمَ يَتَعَلَّقُ ﴿لَكُمْ﴾[7]؟

قُلْتُ: بِآيَةٍ حَالًا مِنْهَا مُتَقَدِّمَةً، لِأَنَّهَا لَوْ تَأَخَّرَتْ لَكَانَتْ صِفَةً لَهَا، فَلَمَّا تَقَدَّمَتِ انْتَصَبَتْ عَلَى الْحَالِ.

﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[8]: عَاجِلٌ لَا يُسْتَأْخَرُ عَنْ مَسِّكُمْ لَهَا بِسُوءٍ إِلَّا يَسِيرًا، وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ثُمَّ يَقَعُ عَلَيْكُمْ.

﴿تَمَتَّعُوا﴾[9]: اسْتَمْتِعُوا بِالْعَيْشِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .
[9] سورة هُودٍ، الآية .

﴿فِي دَارِكُمْ﴾[1]: فِي بَلَدِكُمْ؛ وَتُسَمَّى الْبِلَادُ: الدِّيَارَ، لِأَنَّهُ يُدَارُ فِيهِ، أَيْ: يُتَصَرَّفُ، يُقَالُ: دِيَارُ بَكْرٍ لِبِلَادِهِمْ.

وَتَقُولُ الْعَرَبُ الَّذِينَ حَوَالَيْ مَكَّةَ: نَحْنُ مِنْ عَرَبِ الدَّارِ، يُرِيدُونَ: مِنْ عَرَبِ الْبَلَدِ.

وَقِيلَ: فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَقِيلَ: عَقَرُوهَا يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَهَلَكُوا يَوْمَ السَّبْتِ.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2]: غَيْرُ مَكْذُوبٍ فِيهِ، فَاتَّسَعَ فِي الظَّرْفِ بِحَذْفِ الْحَرْفِ، وَإِجْرَائِهِ مَجْرَى الْمَفْعُولِ بِهِ، كَقَوْلِكَ: يَوْمٌ مَشْهُودٌ، مِنْ قَوْلِهِ:

وَيَوْمٌ شَهِدْنَاهُ .....

أَوْ عَلَى الْمَجَازِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لِلْوَعْدِ: نَفِي بِكَ، فَإِذَا وَفِي بِهِ، فَقَدْ صَدَقَ وَلَمْ يَكْذِبْ، أَوْ وَعْدٌ غَيْرُ كَذِبٍ، عَلَى أَنَّ الْمَكْذُوبَ مَصْدَرٌ كَالْمَجْلُودِ وَالْمَعْقُولِ، وَكَالْمَصْدُوقَةِ بِمَعْنَى: الصِّدْقِ.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾[3]: قُرِئَ مَفْتُوحَ الْمِيمِ، لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَى ﴿إِذْ﴾[4]، وَهُوَ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ، كَقَوْلِهِ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا .....

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عُطِفَ؟

قُلْتُ: عَلَى ﴿نَجَّيْنَا﴾[5]، لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ: وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[6].

عَلَى: وَكَانَتِ التَّنْجِيَةُ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، أَيْ: مِنْ ذُلِّهِ، وَمَهَانَتِهِ، وَفَضِيحَتِهِ، وَلَا خِزْيَ أَعْظَمُ مِنْ خِزْيِ مَنْ كَانَ هَلَاكُهُ يُغْضِبُ اللَّهَ وَانْتِقَامِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾[7]: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا فَسَّرَ الْعَذَابَ الْغَلِيظَ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٌ ، الآية 58.

[7] سورة هُودٍ، الآية .

وَقُرِئَ: "أَلَا إِنَّ ثَمُودَ"، وَ"لِثَمُودَ": كِلَاهُمَا بِالصَّرْفِ وَامْتِنَاعِهِ، فَالصَّرْفُ لِلذَّهَابِ إِلَى الْحَيِّ أَوِ الْأَبِ الْأَكْبَرِ، وَمَنْعُهُ لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّأْنِيثِ، بِمَعْنَى الْقَبِيلَةِ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[1]

﴿رُسُلُنَا﴾[2]، يُرِيدُ: الْمَلَائِكَةُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَاءَهُ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَمَلَكَانِ مَعَهُ، وَقِيلَ: جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ، وَقِيلَ: كَانُوا تِسْعَةً.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: أَحَدَ عَشَرَ، ﴿بِالْبُشْرَى﴾[3]: هِيَ الْبِشَارَةُ بِالْوَلَدِ.

وَقِيلَ: بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَالظَّاهِرُ الْوَلَدُ.

﴿سَلامًا﴾[4]: سَلَّمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا.

﴿سَلامٌ﴾[5]: أَمْرُكُمْ سَلَامٌ.

وَقُرِئَ: "فَقَالُوا سِلْمًا قَالَ سِلْمٌ"، بِمَعْنَى: السَّلَامِ.

وَقِيلَ: "سَلْمٌ وَسَلَامٌ"، كَحَرْمٍ وَحَرَامٍ، وَأَنْشَدَ:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا: إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾[6]: فَمَا لَبِثَ فِي الْمَجِيءِ بِهِ، بَلْ عَجَّلَ فِيهِ، أَوْ فَمَا لَبِثَ مَجِيئُهُ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .

وَالْعِجْلُ: وَلَدُ الْبَقَرَةِ، وَيُسَمَّى الْحَسِيلَ وَالْخَبْشَ بِلُغَةِ أَهْلِ السَّرَاةِ، وَكَانَ مَالُ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– الْبَقَرَ.

﴿حَنِيذٍ﴾[1]: مَشْوِيٍّ بِالرَّضْفِ فِي أُخْدُودٍ.

وَقِيلَ: ﴿حَنِيذٍ﴾[2]: يَقْطُرُ دَسَمُهُ، مِنْ حَنَذْتُ الْفَرَسَ إِذَا أَلْقَيْتَ عَلَيْهَا الْجُلَّ حَتَّى تَقْطُرَ عَرَقًا.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[3].

يُقَالُ: نَكِرَهُ وَأَنْكَرَهُ وَاسْتَنْكَرَهُ، وَمَنْكُورٌ: قَلِيلٌ فِي كَلَامِهِمْ، وَكَذَلِكَ: أَنَا أُنْكِرُكَ، وَلَكِنْ مُنْكَرٌ، وَمُسْتَنْكَرٌ، وَأَنْكَرَكَ.

قَالَ الْأَعْشَى:

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِـــــرَتْ مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَعَا

قِيلَ: كَانَ يَنْزِلُ فِي طَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَخَافَ أَنْ يُرِيدُوا بِهِ مَكْرُوهًا.

وَقِيلَ: كَانَتْ عَادَتُهُمْ أَنَّهُ إِذَا مَسَّ مَنْ يَطْرُقُهُمْ طَعَامَهُمْ أَمِنُوهُ وَإِلَّا خَافُوهُ.

وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ أَحَسَّ بِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، وَنَكِرَهُمْ، لِأَنَّهُ تَخَوَّفَ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهُمْ لِأَمْرٍ أَنْكَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ لِتَعْذِيبِ قَوْمِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: ﴿لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾[4]؟

وَإِنَّمَا يُقَالُ هَذَا لِمَنْ عَرَفَهُمْ، وَلَمْ يَعْرِفْ فِيمَ أُرْسِلُوا.

"فَأَوْجَسَ": فَأَضْمَرَ.

وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾[5]، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَثَرَ الْخَوْفِ وَالتَّغَيُّرِ فِي وَجْهِهِ، أَوْ عَرَفُوهُ بِتَعْرِيفِ اللَّهِ، أَوْ عَلِمُوا أَنَّ عِلْمَهُ بِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ مُوجِبٌ لِلْخَوْفِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْزِلُونَ إِلَّا بِعَذَابٍ.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾[6]، قِيلَ: كَانَتْ قَائِمَةً وَرَاءَ السِّتْرِ تَسْمَعُ تَحَاوُرَهُمْ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة الذَّارِيَاتُ، الآية 26.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

وَقِيلَ: كَانَتْ قَائِمَةً عَلَى رُؤُوسِهِمْ تَخْدِمُهُمْ.

وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾[1] وَهُوَ قَاعِدٌ.

﴿فَضَحِكَتْ﴾[2] سُرُورًا بِزَوَالِ الْخِيفَةِ، أَوْ بِهَلَاكِ أَهْلِ الْخَبَائِثِ، أَوْ: كَانَ ضَحِكُهَا ضَحِكَ إِنْكَارٍ، لِغَفْلَتِهِمْ، وَقَدْ أَظَلَّهُمُ الْعَذَابُ.

وَقِيلَ: كَانَتْ تَقُولُ لِإِبْرَاهِيمَ: اضْمُمْ لُوطًا ابْنَ أَخِيكَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْزِلُ بِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَذَابٌ، فَضَحِكَتْ سُرُورًا لِمَا أَتَى الْأَمْرُ عَلَى مَا تَوَهَّمَتْ.

وَقِيلَ: ضَحِكَتْ فَحَاضَتْ.

وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ الْأَعْرَابِيُّ: "فَضَحَكَتْ" بِفَتْحِ الْحَاءِ.

﴿يَعْقُوبَ﴾[3]: رَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ مَوْلُودٌ أَوْ مَوْجُودٌ، أَيْ: مِنْ بَعْدِهِ.

وَقِيلَ الْوَرَاءُ: وَلَدُ الْوَلَدِ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَهَذَا ابْنُكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، مِنَ الْوَرَاءِ، وَكَانَ وَلَدَ وَلَدِهِ.

وَقُرِئَ: "يَعْقُوبَ" بِالنَّصْبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: "وَوَهَبْنَا لَهَا إِسْحَاقَ" وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ:

لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيـــرَةً... وَلَا نَاعِبٍ.....

الْأَلِفُ فِي: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾[4]: مُبْدَلَةٌ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَكَذَلِكَ فِي: "يَا لَهَفَا"، وَ"يَا عَجَبَا".

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "يَا وَيْلَتِي" بِالْيَاءِ عَلَى الْأَصْلِ.

وَ﴿شَيْخًا﴾[5]: نَصْبٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِشَارَةِ.

وَقُرِئَ: "شَيْخٌ" عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هَذَا بَعْلِي هُوَ شَيْخٌ، أَوْ بَعْلِي: بَدَلٌ مِنَ الْمُبْتَدَأِ، وَشَيْخٌ: خَبَرٌ، أَوْ يَكُونَانِ مَعًا خَبَرَيْنِ.

قِيلَ: بُشِّرَتْ وَلَهَا ثَمَانٍ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَلِإِبْرَاهِيمَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[1]: أَنْ يُولَدَ وَلَدٌ مِنْ هَرَمَيْنِ، وَهُوَ اسْتِبْعَادٌ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةُ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَتْ عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ تَعَجُّبَهَا، فَ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[2]، لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي بَيْتِ الْآيَاتِ، وَمَهْبِطِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ؛ فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَوَقَّرَ، وَلَا يَزْدَهِيهَا مَا يَزْدَهِي النِّسَاءَ النَّاشِئَاتَ فِي غَيْرِ بُيُوتِ النُّبُوَّةِ، وَأَنْ تُسَبِّحَ اللَّهَ وَتُمَجِّدَهُ مَكَانَ التَّعَجُّبِ.

وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَتِ الْمَلَائِكَةُ -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[3]: أَرَادُوا أَنَّ هَذِهِ وَأَمْثَالَهَا مِمَّا يُكْرِمُكُمْ بِهِ رَبُّ الْعِزَّةِ، وَيَخُصُّكُمْ بِالْإِنْعَامِ بِهِ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَلَيْسَتْ بِمَكَانِ عَجَبٍ، وَأَمْرُ اللَّهِ: قُدْرَتُهُ وَحِكْمَتُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾[4]: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عُلِّلَ بِهِ إِنْكَارُ التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِيَّاكِ وَالتَّعَجُّبَ، فَإِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ مُتَكَاثِرَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

وَقِيلَ: "الرَّحْمَةُ النُّبُوَّةُ"، وَالْبَرَكَاتُ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْهُمْ، وَكُلُّهُمْ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.

﴿حَمِيدٌ﴾[5]: فَاعِلٌ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْحَمْدَ مِنْ عِبَادِهِ.

﴿مَجِيدٌ﴾[6]: كَرِيمٌ كَثِيرُ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَأَهْلَ الْبَيْتِ: نَصْبٌ عَلَى النِّدَاءِ أَوْ عَلَى الِاخْتِصَاصِ، لِأَنَّ ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[7]: مَدْحٌ لَهُمْ، إِذِ الْمُرَادُ: أَهْلُ بَيْتِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[8]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .

﴿الرَّوْعُ﴾[1]: مَا أَوْجَسَ مِنَ الْخِيفَةِ، حِينَ نَكِرَ أَضْيَافَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ بَعْدَ الْخَوْفِ وَمُلِئَ سُرُورًا بِسَبَبِ الْبُشْرَى بَدَلَ الْغَمِّ، فَرَغَ لِلْمُجَادَلَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ جَوَابُ "لَمَّا"؟

قُلْتُ: هُوَ مَحْذُوفٌ كَمَا حُذِفَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾[2].

وَقَوْلُهُ: ﴿يُجَادِلُنَا﴾[3]: كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ دَالٌّ عَلَى الْجَوَابِ. وَتَقْدِيرُهُ: اجْتَرَأَ عَلَى خِطَابِنَا، أَوْ فَطِنَ لِمُجَادَلَتِنَا، أَوْ قَالَ: كَيْتَ وَكَيْتَ.

ثُمَّ ابْتَدَأَ، فَقَالَ: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[4].

وَقِيلَ فِي ﴿يُجَادِلُنَا﴾: هُوَ جَوَابُ "لَمَّا"، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهِ مُضَارِعًا لِحِكَايَةِ الْحَالِ.

وَقِيلَ: إِنَّ "لَمَّا" تَرُدُّ الْمُضَارِعَ إِلَى مَعْنَى الْمَاضِي، كَمَا تَرُدُّ "إِنْ": الْمَاضِيَ إِلَى مَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَخَذَ يُجَادِلُنَا، وَأَقْبَلَ يُجَادِلُنَا، وَالْمَعْنَى: يُجَادِلُ رُسُلَنَا، وَمُجَادَلَتُهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾[5]، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَأَرْبَعُونَ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا، حَتَّى بَلَغَ الْعَشْرَةَ، قَالُوا: لَا، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مُسْلِمٌ أَتُهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾[6]، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾[7].

﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[8]: فِي مَعْنَاهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالُوا لَهُ: إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسَةٌ يُصَلُّونَ، رُفِعَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: مَا قَوْمٌ لَا يَكُونُ فِيهِمْ عَشَرَةٌ فِيهِمْ خَيْرٌ، وَقِيلَ: كَانَ فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ إِنْسَانٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة يُوسُف، الآية 15.

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة الْعَنْكَبُوتُ، الآية 31.

[6] سورة الْعَنْكَبُوتُ، الآية 32.

[7] سورة الْعَنْكَبُوتُ، الآية 32.

[8] سورة هُودٍ، الآية .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾[1]: غَيْرُ عَجُولٍ عَلَى كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ.

﴿أَوَّاهٌ﴾[2]: كَثِيرُ التَّأَوُّهِ مِنَ الذُّنُوبِ.

﴿مُنِيبٌ﴾[3]: تَائِبٌ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى.

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ دَالَّةٌ عَلَى رِقَّةِ الْقَلْبِ، وَالرَّأْفَةِ، وَالرَّحْمَةِ، فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا حَمَلَهُ عَلَى الْمُجَادَلَةِ فِيهِمْ رَجَاءَ أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، وَيُمْهَلُوا لَعَلَّهُمْ يُحْدِثُونَ التَّوْبَةَ، وَالْإِنَابَةَ كَمَا حَمَلَهُ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ لِأَبِيهِ.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[4]

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[5]: عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ، أَيْ: قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[6]: الْجِدَالِ، وَإِنْ كَانَتِ الرَّحْمَةُ دَيْدَنَكَ، فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[7]: وَهُوَ قَضَاؤُهُ، وَحُكْمُهُ الَّذِي لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ صَوَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَالْعَذَابُ نَازِلٌ بِالْقَوْمِ لَا مَحَالَةَ، لَا مَرَدَّ لَهُ بِجِدَالٍ، وَلَا دُعَاءٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[8]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .

كَانَتْ مَسَاءَةُ لُوطٍ وَضِيقُ ذَرْعِهِ، لِأَنَّهُ حَسِبَ أَنَّهُمْ إِنْسٌ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ خُبْثَ قَوْمِهِ وَأَنْ يَعْجِزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ وَمُدَافَعَتِهِمْ.

رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– قَالَ لَهُمْ: "لَا تُهْلِكُوهُمْ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ لُوطٌ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ". فَلَمَّا مَشَى مَعَهُمْ مُنْطَلِقًا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، قَالَ لَهُمْ: أَمَا بَلَغَكُمْ أَمْرُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالُوا: وَمَا أَمْرُهُمْ؟ قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّهَا لَشَرُّ قَرْيَةٍ فِي الْأَرْضِ عَمَلًا، يَقُولُ ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ؛ فَدَخَلُوا مَعَهُ مَنْزِلَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ أَحَدٌ، فَخَرَجَتِ امْرَأَتُهُ فَأَخْبَرَتْ بِهِمْ قَوْمَهَا.

يُقَالُ: يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَعَصَوْصَبٌ، إِذَا كَانَ شَدِيدًا، مِنْ قَوْلِكَ: عَصَبَهُ، إِذَا شَدَّهُ.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[1]

﴿يُهْرَعُونَ﴾[2]: يُسْرِعُونَ كَأَنَّمَا يُدْفَعُونَ دَفْعًا.

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[3]: وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْفَوَاحِشَ وَيُكْثِرُونَهَا، فَضَرُوا بِهَا وَمَرَنُوا عَلَيْهَا وَقَلَّ عِنْدَهُمُ اسْتِقْبَاحُهَا، فَلِذَلِكَ جَاؤُوا يُهْرَعُونَ مُجَاهِرِينَ لَا يَكُفُّهُمْ حَيَاءٌ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَقَدْ عَرَفَ لُوطٌ عَادَتَهُمْ فِي عَمَلِ الْفَوَاحِشِ قَبْلَ ذَلِكَ.

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾[4]، أَرَادَ أَنْ يَقِيَ أَضْيَافَهُ بِبَنَاتِهِ، وَذَلِكَ غَايَةُ الْكَرَمِ، وَأَرَادَ: هَؤُلَاءِ بَنَاتِي فَتَزَوَّجُوهُنَّ، وَكَانَ تَزْوِيجُ الْمُسْلِمَاتِ مِنَ الْكُفَّارِ جَائِزًا، كَمَا زَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ابْنَتَيْهِ مِنْ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ وَأَبِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ قَبْلَ الْوَحْيِ، وَهُمَا كَافِرَانِ؛ وَقِيلَ: كَانَ لَهُمْ سَيِّدَانِ مُطَاعَانِ، فَأَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَهُمَا ابْنَتَيْهِ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَرْوَانَ: "هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ" بِالنَّصْبِ.

وَضَعَّفَهُ سِيبَوَيْهِ، وَقَالَ: احْتَبَى ابْنُ مَرْوَانَ فِي لَحْنِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية 72.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

وَعَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ: مَنْ قَرَأَ: "هُنَّ أَطْهَرَ" بِالنَّصْبِ، فَقَدْ تَرَبَّعَ فِي لَحْنِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ انْتِصَابَهُ عَلَى أَنْ يُجْعَلَ حَالًا قَدْ عَمِلَ فِيهَا مَا فِي هَؤُلَاءِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[1]، أَوْ يُنْصَبُ هَؤُلَاءِ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خُذُوا هَؤُلَاءِ.

وَبَنَاتِي: بَدَلٌ، وَيَعْمَلُ هَذَا الْمُضْمَرُ فِي الْحَالِ.

وَ﴿هُنَّ﴾[2]: فَصْلٌ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ الْفَصْلَ مُخْتَصٌّ بِالْوُقُوعِ بَيْنَ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ، وَلَا يَقَعُ بَيْنَ الْحَالِ وَذِي الْحَالِ، وَقَدْ خُرِّجَ لَهُ وَجْهٌ لَا يَكُونُ ﴿هُنَّ﴾[3] فِيهِ فَصْلًا. وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ﴿هَؤُلَاءِ﴾[4] مُبْتَدَأً، وَ﴿بَنَاتِي هُنَّ﴾[5]: جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ، كَقَوْلِكَ: هَذَا أَخِي هُوَ، وَيَكُونُ: "أَطْهَرَ" حَالًا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[6]: بِإِيثَارِهِنَّ عَلَيْهِمْ.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾[7]: وَلَا تُهِينُونِي، وَلَا تَفْضَحُونِي، مِنَ الْخِزْيِ، أَوْ: وَلَا تُخْجِلُونِي، مِنَ الْخِزَايَةِ وَهِيَ الْحَيَاءُ.

﴿فِي ضَيْفِي﴾[8]: فِي حَقِّ ضُيُوفِي، فَإِنَّهُ إِذَا خَزَى ضَيْفُ الرَّجُلِ أَوْ جَارُهُ، فَقَدْ خَزِيَ الرَّجُلُ، وَذَلِكَ مِنْ عَرَاقَةِ الْكَرَمِ وَأَصَالَةِ الْمُرُوءَةِ.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾[9]: رَجُلٌ وَاحِدٌ يَهْتَدِي إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَفِعْلِ الْجَمِيلِ، وَالْكَفِّ عَنِ السُّوءِ.

وَقُرِئَ: "وَلَا تُخْزُونِ" بِطَرْحِ الْيَاءِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَرَضَ الْبَنَاتِ عَلَيْهِمْ مُبَالَغَةً فِي تَوَاضُعِهِ لَهُمْ، وَإِظْهَارًا لِشِدَّةِ امْتِعَاضِهِ مِمَّا أَوْرَدُوا عَلَيْهِ، طَمَعًا فِي أَنْ يَسْتَحْيُوا مِنْهُ، وَيَرِقُّوا لَهُ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ، فَيَتْرُكُوا لَهُ ضُيُوفَهُ، مَعَ ظُهُورِ الْأَمْرِ وَاسْتِقْرَارِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ، وَعِنْدَهُمْ إِلَّا مُنَاكَحَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة هُودٍ، الآية .

[9] سورة هُودٍ، الآية .

وَمِنْ ثَمَّ: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ﴾[1]: مُسْتَشْهِدِينَ بِعِلْمِهِ.

﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾[2]، لِأَنَّكَ لَا تَرَى مُنَاكَحَتَنَا، وَمَا هُوَ إِلَّا عَرْضٌ سَابِرِيٌّ.

وَقِيلَ: لَمَّا اتَّخَذُوا إِتْيَانَ الذُّكْرَانِ مَذْهَبًا وَدِينًا لَتَوَاطُئِهِمْ عَلَيْهِ، كَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ نِكَاحَ الْإِنَاثِ مِنَ الْبَاطِلِ؛ فَلِذَلِكَ قَالُوا: مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ قَطُّ، لِأَنَّ نِكَاحَ الْإِنَاثِ أَمْرٌ خَارِجٌ مِنْ مَذْهَبِنَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوهُ عَلَى وَجْهِ الْخَلَاعَةِ، وَالْغَرَضُ نَفْيُ الشَّهْوَةِ.

﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[3]: عَنَوْا إِتْيَانَ الذُّكُورِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الشَّهْوَةِ.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[4]

جَوَابُ "لَوْ" مَحْذُوفٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾[5]، يَعْنِي: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، لَفَعَلْتُ بِكُمْ وَصَنَعْتُ؛ يُقَالُ: مَالِي بِهِ قُوَّةٌ، وَمَالِي بِهِ طَاقَةٌ، وَنَحْوُ: ﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾[6]؛ وَمَالِي بِهِ يَدَانِ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى: لَا أَضْطَلِعُ بِهِ وَلَا أَسْتَقِلُّ بِهِ.

وَالْمَعْنَى: لَوْ قَوِيتُ عَلَيْكُمْ بِنَفْسِي، أَوْ أَوَيْتُ إِلَى قَوِيٍّ أَسْتَنِدُ إِلَيْهِ وَأَتَمَنَّعُ بِهِ فَيَحْمِينِي مِنْكُمْ، فَشَبَّهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ بِالرُّكْنِ مِنَ الْجَبَلِ فِي شِدَّتِهِ وَمَنَعَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَقَدْ وَجَدَتْ عَلَيْهِ: إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ.

وَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "رَحِمَ اللَّهُ أَخِي لُوطًا، كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ".

وَقُرِئَ: "أَوْ آوِيَ" بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ "أَنْ"، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ أَوْيًا، كَقَوْلِهَا:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي.....

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة الرَّعْدُ، الآية 31.

[6] سورة النَّمْلُ، الآية 27.

وَقُرِئَ: "إِلَى رُكْنٍ" بِضَمَّتَيْنِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ أَغْلَقَ بَابَهُ حِينَ جَاءُوا وَجَعَلَ يُرَاوِدُهُمْ مَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ وَيُجَادِلُهُمْ، فَتَسَوَّرُوا الْجِدَارَ .

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1]

فَلَمَّا رَأَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا لَقِيَ لُوطٌ مِنَ الْكَرْبِ، قَالُوا: يَا لُوطُ، إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[2]: فَافْتَحِ الْبَابَ وَدَعْنَا وَإِيَّاهُمْ؛ فَفَتَحَ الْبَابَ فَدَخَلُوا، فَاسْتَأْذَنَ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– رَبَّهُ فِي عُقُوبَتِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُ، فَقَامَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا، فَنَشَرَ جَنَاحَهُ –وَلَهُ جَنَاحَانِ وَعَلَيْهِ وِشَاحٌ مِنْ دُرٍّ مَنْظُومٍ، وَهُوَ بَرَّاقُ الثَّنَايَا–؛ فَضَرَبَ بِجَنَاحِهِ وُجُوهَهُمْ، فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، فَأَعْمَاهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[3]؛ فَصَارُوا لَا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ، فَخَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: النَّجَاةَ! النَّجَاةَ! فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ قَوْمًا سَحَرَةً.

﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[4]: جُمْلَةٌ مُوَضِّحَةٌ لِلَّتِي قَبْلَهَا، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا رُسُلَ اللَّهِ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ضَرَرِهِ، قُرِئَ: "فَأَسْرِ" بِالْقَطْعِ وَالْوَصْلِ.

وَ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾[5]: بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: مَتَى مَوْعِدُ هَلَاكِهِمْ؟ قَالُوا: الصُّبْحُ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[6].

وَقُرِئَ: "الصُّبُحُ" بِضَمَّتَيْنِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة]الْقَمَرُ، الآية 37.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: "إِلاَّ امْرَأَتَكَ" بِالنَّصْبِ؟

قُلْتُ: اسْتَثْنَاهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[1]. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا امْرَأَتَكَ".

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَنْ لَا يَلْتَفِتْ، عَلَى أَصْلِ الِاسْتِثْنَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْفَصِيحُ هُوَ الْبَدَلَ، أَعْنِي قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ، فَأَبْدَلَهَا عَنْ أَحَدٍ، وَفِي إِخْرَاجِهَا مَعَ أَهْلِهِ رِوَايَتَانِ:

– رُوِيَ أَنَّهُ أَخْرَجَهَا مَعَهُمْ، وَأُمِرَ أَلَّا يَلْتَفِتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا هِيَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ هَدَّةَ الْعَذَابِ الْتَفَتَتْ، وَقَالَتْ: يَا قَوْمَاهُ، فَأَدْرَكَهَا حَجَرٌ فَقَتَلَهَا،

– وَرُوِيَ أَنَّهُ أُمِرَ بِأَنْ يُخَلِّفَهَا مَعَ قَوْمِهَا، فَإِنَّ هَوَاهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسِرْ بِهَا.

وَاخْتِلَافُ الْقِرَاءَتَيْنِ، لِاخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2]

﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[3]: جَعَلَ جِبْرِيلُ جَنَاحَهُ فِي أَسْفَلِهَا، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ نُبَاحَ الْكِلَابِ، وَصِيَاحَ الدِّيَكَةِ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأُتْبِعُوا الْحِجَارَةَ مِنْ فَوْقِهِمْ.

﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾[4]: قِيلَ: هِيَ كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ مِنْ سَنَكَكَلْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[5]؛ وَقِيلَ: "هِيَ مِنْ أَسْجَلَهُ"، إِذَا أَرْسَلَهُ، لِأَنَّهَا تُرْسَلُ عَلَى الظَّالِمِينَ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾[6].

وَقِيلَ: مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِ مِنَ السِّجِلِّ، وَسَجَّلَ لِفُلَانٍ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة الذَّارِيَاتِ، الآية 33.

﴿مَنْضُودٍ﴾[1]: نُضِّدَ فِي السَّمَاءِ نَضَدًا مُعَدًّا لِلْعَذَابِ.

وَقِيلَ: يُرْسَلُ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مُتَتَابِعًا.

﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾[2]: مُعَلَّمَةٌ لِلْعَذَابِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: كَانَتْ مُعَلَّمَةً بِبَيَاضٍ وَحُمْرَةٍ، وَقِيلَ: عَلَيْهَا سِيمَا يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حِجَارَةِ الْأَرْضِ.

وَقِيلَ: مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ: اسْمُ مَنْ يَرْمِي بِهِ.

﴿وَمَا هِيَ﴾[3]: مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ بِبَعِيدٍ، وَفِيهِ وَعِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: يَعْنِي ظَالِمِي أُمَّتِكَ، مَا مِنْ ظَالِمٍ مِنْهُمْ إِلَّا وَهُوَ بِعَرْضِ حَجَرٍ يَسْقُطُ عَلَيْهِ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ.

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ: لِلْقُرَى، أَيْ: هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ ظَالِمِي مَكَّةَ يَمُرُّونَ بِهَا فِي مَسَايِرِهِمْ.

﴿بِبَعِيدٍ﴾[4]: بِشَيْءٍ بَعِيدٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَمَا هِيَ بِمَكَانٍ بَعِيدٍ، لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ، وَهِيَ مَكَانٌ بَعِيدٌ، إِلَّا أَنَّهَا إِذَا هَوَتْ مِنْهَا فَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ لُحُوقًا بِالْمَرْمَى، فَكَأَنَّهَا بِمَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهُ.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[5]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾[1]: يُرِيدُ: بِثَرْوَةٍ وَاسِعَةٍ، تُغْنِيكُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ، أَوْ أَرَاكُمْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ حَقُّهَا أَنْ تُقَابَلَ بِغَيْرِ مَا تَفْعَلُونَ، أَوْ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ فَلَا تُزِيلُوهُ عَنْكُمْ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، كَقَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾[2].

﴿يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[3]: مُهْلِكٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾[4]، وَأَصْلُهُ مِنْ إِحَاطَةِ الْعَدُوِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَصْفُ الْعَذَابِ بِالْإِحَاطَةِ أَبْلَغُ، أَمْ وَصْفُ الْيَوْمِ بِهَا؟

قُلْتُ: بَلْ وَصْفُ الْيَوْمِ بِهَا، لِأَنَّ الْيَوْمَ زَمَانٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْحَوَادِثِ، فَإِذَا أَحَاطَ بِعَذَابِهِ، فَقَدِ اجْتَمَعَ لِلْمُعَذَّبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْهُ كَمَا إِذَا أَحَاطَ بِنَعِيمِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: النَّهْيُ عَنِ النُّقْصَانِ أَمْرٌ بِالْإِيفَاءِ، فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْفُوا﴾[5]؟

قُلْتُ: نُهُوا أَوَّلًا عَنْ عَيْنِ الْقَبِيحِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ؛ لِأَنَّ فِي التَّصْرِيحِ بِالْقَبِيحِ نَعْيًا عَلَى الْمَنْهِيِّ، وَتَعْيِيرًا لَهُ، ثُمَّ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالْإِيفَاءِ الَّذِي هُوَ حَسَنٌ فِي الْعُقُولِ مُصَرِّحًا بِلَفْظِهِ، لِزِيَادَةِ تَرْغِيبٍ فِيهِ وَبَعْثٍ عَلَيْهِ، وَجِيءَ بِهِ مُقَيَّدًا بِالْقِسْطِ، أَيْ: لِيَكُنِ الْإِيفَاءُ عَلَى وَجْهِ الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، أَمْرًا بِمَا هُوَ الْوَاجِبُ؛ لِأَنَّ مَا جَاوَزَ الْعَدْلَ فَضْلٌ وَأَمْرٌ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ تَوْقِيفٌ عَلَى أَنَّ الْمُوَفِّيَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْوِيَ بِالْوَفَاءِ بِالْقِسْطِ، لِأَنَّ الْإِيفَاءَ وَجْهُ حُسْنِهِ أَنَّهُ قِسْطٌ وَعَدْلٌ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ.

الْبَخْسُ: الْهَضْمُ وَالنَّقْصُ، وَيُقَالُ لِلْمُكْسِ: الْبَخْسُ.

قَالَ زُهَيْرٌ:

.....وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

وَرُوِيَ: مَكْسُ دِرْهَمٍ، وَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُبَاعُ شَيْئًا، كَمَا تَفْعَلُ السَّمَاسِرَةُ، أَوْ كَانُوا يَمْكُسُونَ النَّاسَ، أَوْ كَانُوا يَنْقُصُونَ مِنْ أَثْمَانِ مَا يَشْتَرُونَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، وَالْعُثِيُّ فِي الْأَرْضِ نَحْوُ السَّرِقَةِ، وَالْغَارَةِ، وَقَطْعِ السَّبِيلِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة غَافِرٌ، الآية 29.

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة الْكَهْفُ، الآية 42.

[5] سورة هُودٍ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ التَّطْفِيفُ وَالْبَخْسُ عُثِيًّا مِنْهُمْ فِي الْأَرْضِ.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾[1]: مَا يَبْقَى لَكُمْ مِنَ الْحَلَالِ بَعْدَ التَّنَزُّهِ عَمَّا هُوَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]: بِشَرْطِ أَنْ تُؤْمِنُوا، وَإِنَّمَا خُوطِبُوا بِتَرْكِ التَّطْفِيفِ، وَالْبَخْسِ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَهُمْ كَفَرَةٌ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْكَفَرَةِ، لِأَنَّهُمْ يَسْلَمُونَ مَعَهَا مِنْ تَبِعَةِ الْبَخْسِ وَالتَّطْفِيفِ، فَلِمَ شَرَطَ الْإِيمَانَ؟

قُلْتُ: لِظُهُورِ فَائِدَتِهَا مَعَ الْإِيمَانِ مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ مَعَ النَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ، وَخَفَاءِ فَائِدَتِهَا مَعَ فَقْدِهِ، لِانْغِمَاسِ صَاحِبِهَا فِي غَمَرَاتِ الْكُفْرِ، وَفِي ذَلِكَ اسْتِعْظَامٌ لِلْإِيمَانِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى جَلَالَةِ شَأْنِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ لِي فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأَنْصَحُ بِهِ إِيَّاكُمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: مَا يَبْقَى لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الطَّاعَاتِ خَيْرٌ لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾[3].

وَإِضَافَةُ الْبَقِيَّةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا رِزْقُهُ الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الْحَرَامُ، فَلَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يُسَمَّى رِزْقًا. وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الطَّاعَةُ، فَكَمَا تَقُولُ: طَاعَةُ اللَّهِ.

وَقُرِئَ: "تَقِيَّةُ اللَّهِ" بِالتَّاءِ، وَهِيَ تَقْوَاهُ، وَمُرَاقَبَتُهُ الَّتِي تَصْرِفُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[4]: وَمَا بُعِثْتُ لِأَحْفَظَ عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَأُجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَلِّغًا وَمُنَبِّهًا عَلَى الْخَيْرِ وَنَاصِحًا، وَقَدْ أَعْذَرْتُ حِينَ أَنْذَرْتُ.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[5]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة الْكَهْفُ، الآية 45.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

كَانَ شُعَيْبٌ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– كَثِيرَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ قَوْمُهُ إِذَا رَأَوْهُ يُصَلِّي تَغَامَزُوا وَتَضَاحَكُوا، فَقَصَدُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾[1]: السُّخْرِيَةَ وَالْهُزْءَ.

وَالصَّلَاةُ وَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ آمِرَةً عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ، كَمَا كَانَتْ نَاهِيَةً فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2]، وَأَنْ يُقَالَ: إِنَّ الصَّلَاةَ تَأْمُرُ بِالْجَمِيلِ وَالْمَعْرُوفِ، كَمَا يُقَالُ: تَدْعُو إِلَيْهِ وَتَبْعَثُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ سَاقُوا الْكَلَامَ مَسَاقَ الطَّنْزِ، وَجَعَلُوا الصَّلَاةَ آمِرَةً عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ بِصَلَاتِهِ، وَأَرَادُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي تَأْمُرُ بِهِ مِنْ تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بَاطِلٌ لَا وَجْهَ لِصِحَّتِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ دَاعِي عَقْلٍ، وَلَا يَأْمُرُكَ بِهِ آمِرُ فِطْنَةٍ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِهِ آمِرُ هَذَيَانٍ وَوَسْوَسَةِ شَيْطَانٍ، وَهُوَ صلاتك الَّتِي تُدَاوِمُ عَلَيْهَا فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّهَا مِنْ بَابِ الْجُنُونِ، وَمِمَّا يَتَوَلَّعُ بِهِ الْمَجَانِينُ وَالْمُوَسْوِسُونَ مِنْ بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ.

وَمَعْنَى ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ﴾[3]: تَأْمُرُكَ بِتَكْلِيفِ أَنْ نَتْرُكَ، ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[4]: لِحَذْفِ الْمُضَافِ الَّذِي هُوَ التَّكْلِيفُ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُؤْمَرُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ.

وَقُرِئَ "أَصَلَاتُكَ": بِالتَّوْحِيدِ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: "أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا تَشَاءُ" بِتَاءِ الْخِطَابِ فِيهِمَا، وَهُوَ مَا كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ تَرْكِ التَّطْفِيفِ وَالْبَخْسِ، وَالِاقْتِنَاعِ بِالْحَلَالِ الْقَلِيلِ مِنَ الْحَرَامِ الْكَثِيرِ.

وَقِيلَ: كَانَ يَنْهَاهُمْ عَنْ حَذْفِ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ وَتَقْطِيعِهَا.

وَأَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[5]: نِسْبَتَهُ إِلَى غَايَةِ السَّفَهِ وَالْغَيِّ، فَعَكَسُوا لِيَتَهَكَّمُوا بِهِ، كَمَا يُتَهَكَّمُ بِالشَّحِيحِ الَّذِي لَا يَبُضُّ حِجْرَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: لَوْ أَبْصَرَكَ حَاتِمٌ لَسَجَدَ لَكَ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِنَّكَ لَلْمُتَوَاصِفُ بِالْحِلْمِ وَالرُّشْدِ فِي قَوْمِكَ، يَعْنُونَ أَنَّ مَا تَأْمُرُ بِهِ لَا يُطَابِقُ حَالَكَ وَمَا شُهِرْتَ بِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 45.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]

﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾[2]، أَيْ: مِنْ لَدُنْهِ.

﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾[3]: وَهُوَ مَا رُزِقَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ.

وَقِيلَ: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾[4]: حَلَالًا طَيِّبًا مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ وَلَا تَطْفِيفٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ جَوَابُ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[5]؟ وَمَا لَهُ لَمْ يُثْبَتْ كَمَا أُثْبِتَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَلُوطٍ؟

قُلْتُ: جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يُثْبَتْ، لِأَنَّ إِثْبَاتَهُ فِي الْقِصَّتَيْنِ دَلَّ عَلَى مَكَانِهِ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ يُنَادِي عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: أَخْبِرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَكُنْتُ نَبِيًّا عَلَى الْحَقِيقَةِ، أَيَصِحُّ لِي أَلَّا آمُرَكُمْ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي؟ وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يُبْعَثُونَ إِلَّا لِذَلِكَ؟ يُقَالُ: خَالَفَنِي فُلَانٌ إِلَى كَذَا: إِذَا قَصَدَهُ وَأَنْتَ مُوَلٍّ عَنْهُ، وَخَالَفَنِي عَنْهُ إِذَا وَلَّى عَنْهُ وَأَنْتَ قَاصِدُهُ، وَيَلْقَاكَ الرَّجُلُ صَادِرًا عَنِ الْمَاءِ فَتَسْأَلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ؟ فَيَقُولُ: خَالَفَنِي إِلَى الْمَاءِ، يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ وَارِدًا وَأَنَا ذَاهِبٌ عَنْهُ صَادِرًا.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[6]، يَعْنِي: أَنْ أَسْبِقَكُمْ إِلَى شَهَوَاتِكُمُ الَّتِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهَا، لِأَسْتَبِدَّ بِهَا دُونَكُمْ.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ﴾[7]: مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ أُصْلِحَكُمْ بِمَوْعِظَتِي، وَنَصِيحَتِي، وَأَمْرِي بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1]: ظَرْفٌ، أَيْ: مُدَّةَ اسْتِطَاعَتِي لِلْإِصْلَاحِ، وَمَا دُمْتُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ لَا آلُو فِيهِ جُهْدًا، أَوْ بَدَلٌ مِنَ الْإِصْلَاحِ، أَيْ: الْمِقْدَارُ الَّذِي اسْتَطَعْتُهُ مِنْهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ عَلَى قَوْلِكَ: إِلَّا الْإِصْلَاحُ: إِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُ، أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ، كَقَوْلِهِ:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءَهُ.....

أَيْ: مَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ أُصْلِحَ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ مِنْ فَاسِدِكُمْ.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ﴾[2]: وَمَا كَوْنِي مُوَفَّقًا لِإِصَابَةِ الْحَقِّ فِيمَا آتِي وَأَذَرُ، وَوُقُوعُهُ مُوَافِقًا لِرِضَا اللَّهِ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ اسْتَوْفَقَ رَبَّهُ فِي إِمْضَاءِ الْأَمْرِ عَلَى سَنَنِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ التَّأْيِيدَ وَالْإِظْهَارَ عَلَى عَدُوِّهِ، وَفِي ضِمْنِهِ تَهْدِيدٌ لِلْكُفَّارِ، وَحَسْمٌ لِأَطْمَاعِهِمْ فِيهِ.

﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[3]

"جَرَمَ": مِثْلُ كَسَبَ فِي تَعَدِّيهِ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَإِلَى مَفْعُولَيْنِ تَقُولُ: جَرَمَ ذَنْبًا وَكَسَبَهُ، وَجَرَمْتُهُ ذَنْبًا وَكَسَبْتُهُ إِيَّاهُ.

قَالَ:

جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا.....

وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾[4]، أَيْ: لَا يُكْسِبَنَّكُمْ شِقَاقِي إِصَابَةَ الْعَذَابِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بِضَمِّ الْيَاءِ، مِنْ أَجْرَمْتُهُ ذَنْبًا، إِذَا جَعَلْتُهُ جَارِمًا لَهُ، أَيْ: كَاسِبًا، وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ جَرَمَ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، كَمَا نُقِلَ: أَكْسَبَهُ الْمَالَ، مِنْ كَسَبَ

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

الْمَالَ، وَكَمَا لَا فَرْقَ بَيْنَ كَسَبْتُهُ مَالًا وَأَكْسَبْتُهُ إِيَّاهُ؛ فَكَذَلِكَ لَا فَرْقَ بَيْنَ جَرَمْتُهُ ذَنْبًا وَأَجْرَمْتُهُ إِيَّاهُ.

وَالْقِرَاءَتَانِ مُسْتَوِيَتَانِ فِي الْمَعْنَى لَا تَفَاوُتَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنَّ الْمَشْهُورَةَ أَفْصَحُ لَفْظًا، كَمَا أَنَّ كَسَبْتُهُ مَالًا أَفْصَحُ مِنْ أَكْسَبْتُهُ.

وَالْمُرَادُ بِالْفَصَاحَةِ: أَنَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْفُصَحَاءِ مِنَ الْعَرَبِ الْمَوْثُوقِ بِعَرَبِيَّتِهِمْ أَدْوَرُ، وَهُمْ لَهُ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا.

وَقَرَأَ أَبُو حَيْوَةَ، وَرُوِيَتْ عَنْ نَافِعٍ: (مِثْلَ مَا أَصَابَ) بِالْفَتْحِ، لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، كَقَوْلِهِ:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ. .....

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾[1]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ أُهْلِكُوا فِي عَهْدٍ قَرِيبٍ مِنْ عَهْدِكُمْ، فَهُمْ أَقْرَبُ الْهَالِكِينَ مِنْكُمْ، أَوْ لَا يَبْعُدُونَ مِنْكُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْمَسَاوِي وَمَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْهَلَاكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا لِبَعِيدٍ لَمْ يَرِدْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ قَوْمٌ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى لَفْظِهِ أَوْ مَعْنَاهُ؟

قُلْتُ: إِمَّا أَنْ يُرَادَ: وَمَا إِهْلَاكُهُمْ بِبَعِيدٍ، أَوْ مَا هُمْ بِشَيْءٍ بَعِيدٍ أَوْ بِزَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يُسَوَّى فِي قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، وَقَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، لِوُرُودِهَا عَلَى زِنَةِ الْمَصَادِرِ الَّتِي هِيَ: الصَّهِيلُ وَالنَّهِيقُ وَنَحْوُهُمَا.

﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[2]: عَظِيمُ الرَّحْمَةِ لِلتَّائِبِينَ، فَاعِلٌ بِهِمْ مَا يَفْعَلُ الْبَلِيغُ الْمَوَدَّةِ بِمَنْ يَوَدُّهُ، مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْإِجْمَالِ.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[1]

﴿مَا نَفْقَهُ﴾[2]: مَا نَفْهَمُ.

﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾[3]: لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُلْقُونَ إِلَيْهِ أَذْهَانَهُمْ، رَغْبَةً عَنْهُ، وَكَرَاهِيَةً لَهُ، كَقَوْلِهِ:﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[4]، أَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوهُ؛ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوهُ، وَقَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهَانَةِ بِهِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ إِذَا لَمْ يَعْبَأْ بِحَدِيثِهِ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، أَوْ جَعَلُوا كَلَامَهُ هَذَيَانًا وَتَخْلِيطًا، لَا يَنْفَعُهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُ؛ وَكَيْفَ لَا يَنْفَعُهُمْ كَلَامُهُ وَهُوَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ؟!

وَقِيلَ: كَانَ أَلْثَغَ، ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾[5]: لَا قُوَّةَ لَكَ، وَلَا عِزَّ فِيمَا بَيْنَنَا، فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنَّا إِنْ أَرَدْنَا بِكَ مَكْرُوهًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: ﴿ضَعِيفًا﴾[6]: مَهِينًا.

وَقِيلَ: ﴿ضَعِيفًا﴾[7]: أَعْمَى، وَحِمْيَرٌ تُسَمِّي الْمَكْفُوفَ: ضَعِيفًا، كَمَا يُسَمَّى ضَرِيرًا، وَلَيْسَ بِسَدِيدٍ، لِأَنَّ ﴿فِينَا﴾[8]: يَأْبَاهُ.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا أَعْمَى، لَمْ يَكُنْ كَلَامًا، لِأَنَّ الْأَعْمَى أَعْمَى فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ؟!

وَلِذَلِكَ قَلَّلُوا قَوْمَهُ، حَيْثُ جَعَلُوهُمْ رَهْطًا؛ وَالرَّهْطُ: مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، وَقِيلَ: إِلَى السَّبْعَةِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة الْأَنْعَام، الآية 25.

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة هُودٍ، الآية .

وَإِنَّمَا قَالُوا: وَلَوْلَاهُمْ، احْتِرَامًا لَهُمْ وَاعْتِدَادًا بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، لَا خَوْفًا مِنْ شَوْكَتِهِمْ وَعِزَّتَهُمْ.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾[1]: لَقَتَلْنَاكَ شَرَّ قِتْلَةٍ.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[2]، أَيْ: لَا تُعَزُّ عَلَيْنَا وَلَا تُكْرَمُ، حَتَّى نُكْرِمَكَ مِنَ الْقَتْلِ وَنَرْفَعَكَ عَنِ الرَّجْمِ. وَإِنَّمَا يَعِزُّ عَلَيْنَا رَهْطُكَ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِنَا لَمْ يَخْتَارُوكَ عَلَيْنَا وَلَمْ يَتَّبِعُوكَ دُونَنَا، وَقَدْ دَلَّ إِيلَاءُ ضَمِيرِهِ حَرْفَ النَّفْيِ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ وَاقِعٌ فِي الْفَاعِلِ لَا فِي الْفِعْلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ، بَلْ رَهْطُكَ هُمُ الْأَعِزَّةُ عَلَيْنَا.

وَلِذَلِكَ قَالَ فِي جَوَابِهِمْ: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[3]، وَلَوْ قِيلَ: وَمَا عَزَزْتَ عَلَيْنَا، لَمْ يَصِحَّ هَذَا الْجَوَابُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْكَلَامُ وَاقِعٌ فِيهِ، وَفِي رَهْطِهِ، وَأَنَّهُمُ الْأَعِزَّةُ عَلَيْهِمْ دُونَهُ، فَكَيْفَ صَحَّ قَوْلُهُ: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[4]؟

قُلْتُ: تَهَاوُنُهُمْ بِهِ –وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ– تَهَاوُنٌ بِاللَّهِ، فَحِينَ عَزَّ عَلَيْهِمْ رَهْطُهُ دُونَهُ، كَانَ رَهْطُهُ أَعَزَّ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[5]]النِّسَاءُ: 80[؟

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[6]: وَنَسِيتُمُوهُ، وَجَعَلْتُمُوهُ كَالشَّيْءِ الْمَنْبُوذِ وَرَاءَ الظَّهْرِ لَا يُعْبَأُ بِهِ.

وَالظِّهْرِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى الظَّهْرِ وَالْكَسْرُ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُمْ فِي النِّسْبَةِ إِلَى أَمْسِ: أُمْسِيٌّ.

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[7]: قَدْ أَحَاطَ بِأَعْمَالِكُمْ عِلْمًا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾[1]: لَا تَخْلُو الْمَكَانَةُ مِنْ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الْمَكَانِ، يُقَالُ: مَكَانٌ وَمَكَانَةٌ، وَمَقَامٌ وَمَقَامَةٌ، أَوْ تَكُونُ مَصْدَرًا مِنْ مَكُنَ مَكَانَةً، فَهُوَ مَكِينٌ.

وَالْمَعْنَى: اعْمَلُوا قَارِّينَ عَلَى جِهَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الشِّرْكِ وَالشَّنَآنِ لِي، أَوِ اعْمَلُوا مُتَمَكِّنِينَ مِنْ عَدَاوَتِي مُطِيقِينَ لَهَا.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾[2]: عَلَي حَسَبِ مَا يُؤْتِينِي اللَّهُ مِنَ النُّصْرَةِ وَالتَّأْيِيدِ وَيُمَكِّنُنِي.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾[3]: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَنْ﴾[4] اسْتِفْهَامِيَّةً، مُعَلَّقَةً لِفِعْلِ الْعِلْمِ عَنْ عَمَلِهِ فِيهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيُّنَا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَأَيُّنَا هُوَ كَاذِبٌ؛ وَأَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً قَدْ عَمِلَ فِيهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ الشَّقِيَّ الَّذِي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَالَّذِي هُوَ كَاذِبٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ إِدْخَالِ الْفَاءِ وَنَزْعِهَا فِي: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5]؟

قُلْتُ: إِدْخَالُ الْفَاءِ: وَصْلٌ ظَاهِرٌ بِحَرْفٍ مَوْضُوعٍ لِلْوَصْلِ، وَنَزْعُهَا: وَصْلٌ خَفِيٌّ تَقْدِيرِيٌّ بِالِاسْتِئْنَافِ الَّذِي هُوَ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: فَمَاذَا يَكُونُ إِنْ عَمِلْنَا نَحْنُ عَلَى مَكَانَتِنَا وَعَمِلْتَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ، فَوَصَلَ تَارَةً بِالْفَاءِ، وَتَارَةً بِالِاسْتِئْنَافِ، لِلتَّفَنُّنِ فِي الْبَلَاغَةِ كَمَا هُوَ عَادَةُ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ، وَأَقْوَى الْوَصْلَيْنِ وَأَبْلَغُهُمَا الِاسْتِئْنَافُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ تَتَكَاثَرُ مَحَاسِنُهُ.

﴿وَارْتَقِبُوا﴾[6]: وَانْتَظِرُوا الْعَاقِبَةَ، وَمَا أَقُولُ لَكُمْ.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[7]، أَيْ: مُنْتَظِرٌ، وَالرَّقِيبُ بِمَعْنَى: الرَّاقِبِ، مِنْ رَقَبَهُ، كَالضَّرِيبِ وَالصَّرِيمِ بِمَعْنَى الضَّارِبِ وَالصَّارِمِ، أَوْ بِمَعْنَى: الْمُرَاقِبِ، كَالْعَشِيرِ وَالنَّدِيمِ، أَوْ بِمَعْنَى: الْمُرْتَقِبِ، كَالْفَقِيرِ وَالرَّفِيعِ بِمَعْنَى: الْمُفْتَقِرِ وَالْمُرْتَفِعِ.

---

1 سورة هُودٍ، الآية .
2 سورة هُودٍ، الآية .
3 سورة هُودٍ، الآية .
4 سورة هُودٍ، الآية .
5 سورة هُودٍ، الآية .
6 سورة هُودٍ، الآية .
7 سورة هُودٍ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ ذَكَرَ عَمَلَهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ، وَعَمَلَهُ عَلَى مَكَانَتِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ ذِكْرَ عَاقِبَةِ الْعَامِلِينَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ؛ فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ: مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ، حَتَّى يَنْصَرِفَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ إِلَى الْجَاحِدِينَ، وَمَنْ هُوَ صَادِقٌ إِلَى النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ؟

قُلْتُ: الْقِيَاسُ مَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَدْعُونَهُ كَاذِبًا قَالَ: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾[1]، يَعْنِي: فِي زَعْمِكُمْ وَدَعْوَاكُمْ، تَجْهِيلًا لَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا بَالُ سَاقَتَيْ قِصَّةِ عَادٍ، وَقِصَّةِ مَدْيَنَ جَاءَتَا بِالْوَاوِ، وَالسَّاقَتَانِ الْوُسْطَيَانِ بِالْفَاءِ؟

قُلْتُ: قَدْ وَقَعَتِ الْوُسْطَيَانِ بَعْدَ ذِكْرِ الْوَعْدِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾[2]، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[3]، فَجِيءَ بِالْفَاءِ الَّذِي هُوَ لِلتَّسْبِيبِ، كَمَا تَقُولُ: وَعَدْتُهُ فَلَمَّا جَاءَ الْمِيعَادُ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ.

وَأَمَّا الْأُخْرَيَانِ: فَلَمْ تَقَعَا بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ، وَإِنَّمَا وَقَعَتَا مُبْتَدَأَتَيْنِ، فَكَانَ حَقُّهُمَا أَنْ تُعْطَفَا بِحَرْفِ الْجَمْعِ عَلَى مَا قَبْلَهُمَا كَمَا تُعْطَفُ قِصَّةٌ عَلَى قِصَّةٍ.

الْجَاثِمُ: اللَّازِمُ لِمَكَانِهِ لَا يَرِيمُ، كَاللَّابِدِ، يَعْنِي: أَنَّ جِبْرِيلَ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً، فَزَهَقَ رُوحُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَيْثُ هُوَ قَعْصًا.

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا﴾[4]: كَأَنْ لَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ أَحْيَاءً مُتَصَرِّفِينَ مُتَرَدِّدِينَ.

الْبُعْدُ: بِمَعْنَى: الْبَعْدِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ، كَالرُّشْدِ بِمَعْنَى: الرَّشَدِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَمَا بَعِدَتْ﴾[5]؟

وَقَرَأَ السُّلَمِيُّ: "بَعُدَتْ" بِضَمِّ الْعَيْنِ، وَالْمَعْنَى فِي الْبِنَاءَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ نَقِيضُ الْقُرْبِ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَرَادُوا التَّفْصِلَةَ بَيْنَ الْبُعْدِ مِنْ جِهَةِ الْهَلَاكِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ؛ فَغَيَّرُوا الْبِنَاءَ كَمَا فَرَّقُوا بَيْنَ ضَمَانَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَقَالُوا: وَعَدَ وَأَوْعَدَ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية 81.

[3] سورة هُودٍ، الآية 65.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

وَقِرَاءَةُ السُّلَمِيِّ جَاءَتْ عَلَى الْأَصْلِ اعْتِبَارًا لِمَعْنَى الْبُعْدِ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ، كَمَا يُقَالُ: ذَهَبَ فُلَانٌ وَمَضَى، فِي مَعْنَى الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: بُعْدًا لَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ مِنْهَا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[1]

﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[2]: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَنْ يُرَادَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا سُلْطَانٌ مُبِينٌ لِمُوسَى عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ.

– وَأَنْ يُرَادَ بِالسُّلْطَانِ الْمُبِينِ: الْعَصَا، لِأَنَّهَا أَبْهَرُهَا.

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[3]: تَجْهِيلٌ لِمُتَّبِعِيهِ، حَيْثُ شَايَعُوهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَهُوَ ضَلَالٌ مُبِينٌ لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ فِيهِ أَدْنَى مِسْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ ادَّعَى الْإِلَهِيَّةَ، وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وَجَاهَرَ بِالْعَسْفِ وَالظُّلْمِ وَالشَّرِّ الَّذِي لَا يَأْتِي إِلَّا مِنْ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، وَمِثْلُهُ بِمَعْزِلٍ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ ذَاتًا وَأَفْعَالًا، فَاتَّبَعُوهُ وَسَلَّمُوا لَهُ دَعْوَاهُ، وَتَتَابَعُوا عَلَى طَاعَتِهِ.

وَالْأَمْرُ الرَّشِيدُ: الَّذِي فِيهِ رُشْدٌ، أَيْ: وَمَا فِي أَمْرِهِ رُشْدٌ إِنَّمَا هُوَ غَيٌّ صَرِيحٌ وَضَلَالٌ ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ. وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْعُقَلَاءُ مَنْ يُرْشِدُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ، لَا مَنْ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ.

وَفِيهِ أَنَّهُمْ عَايَنُوا الْآيَاتِ وَالسُّلْطَانَ الْمُبِينَ فِي أَمْرِ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، وَعَلِمُوا أَنَّ مَعَهُ الرُّشْدَ وَالْحَقَّ، ثُمَّ عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِهِ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ لَيْسَ فِي أَمْرِهِ رُشْدٌ قَطُّ.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾[4]، أَيْ: كَمَا كَانَ قُدْوَةً لَهُمْ فِي الضَّلَالِ، كَذَلِكَ يَتَقَدَّمُهُمْ إِلَى النَّارِ وَهُمْ يَتْبَعُونَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[5]: وَمَا أَمْرُهُ بِصَالِحٍ حَمِيدِ الْعَاقِبَةِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾[1]: تَفْسِيرًا لِذَلِكَ وَإِيضَاحًا، أَيْ: كَيْفَ يَرْشُدُ أَمْرُ مَنْ هَذِهِ عَاقِبَتُهُ، وَالرُّشْدُ مُسْتَعْمَلٌ فِي كُلِّ مَا يُحْمَدُ وَيُرْتَضَى، كَمَا اسْتُعْمِلَ الْغَيُّ فِي كُلِّ مَا يُذَمُّ وَيُتَسَخَّطُ، وَيُقَالُ: قَدَّمَهُ بِمعْنَى تَقَدَّمَهُ، وَمِنْهُ: قَادِمَةُ الرَّحْلِ، كَمَا يُقَالُ: قَدَّمَهُ بِمَعْنَى تَقَدَّمَهُ، وَمِنْهُ مُقَدِّمَةُ الْجَيْشِ، وَأَقْدَمَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ مُقَدَّمُ الْعَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ فَيُورِدُهُمْ؟ وَلِمَ جِيءَ بِلَفْظِ الْمَاضِي؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمَاضِيَ يَدُلُّ عَلَى أَمْرٍ مَوْجُودٍ مَقْطُوعٍ بِهِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَقْدُمُهُمْ فَيُورِدُهُمُ النَّارَ لَا مَحَالَةَ.

وَ﴿الْوِرْدُ﴾[2]: الْمَوْرُودُ، وَ﴿الْمَوْرُودُ﴾[3]: الَّذِي وَرَدُوهُ، شُبِّهَ بِالْفَارِطِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْوَارِدَةَ إِلَى الْمَاءِ، وَشُبِّهَ أَتْبَاعُهُ بِالْوَارِدَةِ، ثُمَّ قِيلَ: بِئْسَ الْوِرْدُ الَّذِي يَرِدُونَهُ النَّارُ، لِأَنَّ الْوِرْدَ إِنَّمَا يُرَادُ لِتَسْكِينِ الْعَطَشِ وَتَبْرِيدِ الْأَكْبَادِ، وَالنَّارُ ضِدُّهُ.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾[4]: فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، ﴿لَعْنَةً﴾[5]، أَيْ: يُلْعَنُونَ فِي الدُّنْيَا، وَيُلْعَنُونَ فِي الْآخِرَةِ.

﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[6]: رِفْدُهُمْ، أَيْ: بِئْسَ الْعَوْنُ الْمُعَانُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّعْنَةَ فِي الدُّنْيَا رِفْدٌ لِلْعَذَابِ وَمَدَدٌ لَهُ، وَقَدْ رُفِدَتْ بِاللَّعْنَةِ فِي الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: بِئْسَ الْعَطَاءُ الْمُعْطَى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[7]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

﴿ذَلِكَ﴾[1]: مُبْتَدَأٌ، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾[2]: خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَيْ: ذَلِكَ النَّبَأُ بَعْضُ أَنْبَاءِ الْقُرَى الْمُهْلَكَةِ مَقْصُوصٌ عَلَيْكَ.

﴿مِنْهَا﴾[3]: الضَّمِيرُ لِلْقُرَى، أَيْ: بَعْضُهَا بَاقٍ وَبَعْضُهَا عَافِي الْأَثَرِ، كَالزَّرْعِ الْقَائِمِ عَلَى سَاقِهِ وَالَّذِي حُصِدَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ هَذِهِ الْجُمْلَةِ؟

قُلْتُ: هِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾[4]: بِإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُمْ.

﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[5]: بِارْتِكَابِ مَا بِهِ أُهْلِكُوا.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾[6]: فَمَا قَدَرَتْ أَنْ تَرُدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ اللَّهِ.

﴿يَدْعُونَ﴾[7]: يَعْبُدُونَ، وَهِيَ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ.

وَ﴿لَمَّا﴾: مَنْصُوبٌ بِمَا أَغْنَتْ.

﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾[8]: عَذَابُهُ وَنِقْمَتُهُ.

﴿تَتْبِيبٍ﴾[9]: تَخْسِيرٍ، يُقَالُ: تَبَّ إِذَا خَسِرَ، وَتَبَّبَهُ غَيْرُهُ، إِذَا أَوْقَعَهُ فِي الْخُسْرَانِ.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[10]

مَحَلُّ الْكَافِ: الرَّفْعُ، تَقْدِيرُهُ: وَمِثْلُ ذَلِكَ الْأَخْذِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .
[9] سورة هُودٍ، الآية .
[10] سورة هُودٍ، الآية .

﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾[1]: وَالنَّصْبُ فِيمَنْ قَرَأَ: "وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ"، بِلَفْظِ الْفِعْلِ.

وَقُرِئَ: "إِذْ أَخَذَ الْقُرَى"، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[2]: حَالٌ مِنَ الْقُرَى.

﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3]: وَجِيعٌ صَعْبٌ عَلَى الْمَأْخُوذِ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ وَخَامَةِ عَاقِبَةِ الظُّلْمِ لِكُلِّ أَهْلِ قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا، بَلْ لِكُلِّ مَنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ أَوْ نَفْسَهُ بِذَنْبٍ يَقْتَرِفُهُ، فَعَلَى كُلِّ مَنْ أَذْنَبَ أَنْ يَحْذَرَ أَخْذَ رَبِّهِ الْأَلِيمَ الشَّدِيدَ، فَيُبَادِرَ التَّوْبَةَ وَلَا يَغْتَرَّ بِالْإِمْهَالِ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[4]

﴿ذَلِكَ﴾[5]: إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَصَّ اللَّهُ مِنْ قَصَصِ الْأُمَمِ الْهَالِكَةِ بِذُنُوبِهِمْ.

﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ﴾[6]: لَعِبْرَةً لَهُ، لِأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا هُوَ إِلَّا أُنْمُوذَجٌ مِمَّا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. فَإِذَا رَأَى عِظَمَهُ وَشِدَّتَهُ، اعْتَبَرَ بِهِ عِظَمَ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِ؛ فَيَكُونُ لَهُ عِبْرَةً وَعِظَةً وَلُطْفًا فِي زِيَادَةِ التَّقْوَى وَالْخَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– ، وَنَحْوُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[7].

﴿ذَلِكَ﴾[8]: إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ دَلَّ عَلَيْهِ.

وَ﴿النَّاسُ﴾[9]: رُفِعَ بَاسِمِ الْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ مَجْمُوعٌ كَمَا يُرْفَعُ بِفِعْلِهِ إِذَا قُلْتَ يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِأَيِّ فَائِدَةٍ أُوثِرَ اسْمُ الْمَفْعُولِ عَلَى فِعْلِهِ؟

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة النَّازِعَاتُ، الآية 26.

[8] سورة هُودٍ، الآية .

[9] سورة هُودٍ، الآية .

قُلْتُ: لِمَا فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى ثَبَاتِ مَعْنَى الْجَمْعِ لِلْيَوْمِ، وَأَنَّهُ يَوْمٌ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِيعَادًا مَضْرُوبًا لِجَمْعِ النَّاسِ لَهُ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِذَلِكَ صِفَةً لَازِمَةً، وَهُوَ أَثْبَتُ أَيْضًا– لِإِسْنَادِ الْجَمْعِ إِلَى النَّاسِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ مِنْهُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْمُتَهَدِّدِ: إِنَّكَ لَمَنْهُوبٌ مَالُكَ مَحْرُوبٌ قَوْمُكَ، فِيهِ مِنْ تَمَكُّنِ الْوَصْفِ وَثَبَاتِهِ مَا لَيْسَ فِي الْفِعْلِ.

وَإِنْ شِئْتَ، فَوَازِنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[1] تَعْثُرْ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْتُ لَكَ.

وَمَعْنَى يُجْمَعُونَ لَهُ: يُجْمَعُونَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

﴿يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[2]: مَشْهُودٌ فِيهِ، فَاتَّسَعَ فِي الظَّرْفِ بِإِجْرَائِهِ مَجْرَى الْمَفْعُولِ بِهِ، كَقَوْلِهِ:

وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا.....

أَيْ يَشْهَدُ فِيهِ الْخَلَائِقُ الْمَوْقِفَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَحَدٌ، وَالْمُرَادُ بِالْمَشْهُودِ: الَّذِي كَثُرَ شَاهِدُوهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لِفُلَانٍ مَجْلِسٌ مَشْهُودٌ، وَطَعَامٌ مَحْضُورٌ، قَالَ:

.....فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْيَوْمَ مَشْهُودًا فِي نَفْسِهِ دُونَ أَنْ تَجْعَلَهُ مَشْهُودًا فِيهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[3]؟

قُلْتُ: الْغَرَضُ وَصْفُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْهَوْلِ وَالْعِظَمِ وَتَمَيُّزُهُ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، فَإِنْ جَعَلْتَهُ مَشْهُودًا فِي نَفْسِهِ، فَسَائِرُ الْأَيَّامِ كَذَلِكَ مَشْهُودَاتٌ كُلُّهَا، وَلَكِنْ يُجْعَلُ مَشْهُودًا فِيهِ حَتَّى يَحْصُلَ التَّمَيُّزُ كَمَا تَمَيَّزَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَنْ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ بِكَوْنِهِ مَشْهُودًا فِيهِ دُونَهَا، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ مَشْهُودًا فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ سَائِرَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ مِثْلُهُ يَشْهَدُهَا كُلُّ مَنْ يَشْهَدُهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[4]: الشَّهْرُ مُنْتَصِبٌ ظَرْفًا لَا مَفْعُولًا بِهِ. وَكَذَلِكَ الضَّمِيرُ فِي: "فَلْيَصُمْهُ".

---

[1] سورة التَّغَابُنُ، الآية 99.

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 185.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

وَالْمَعْنَى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ فِي الشَّهْرِ فَلْيَصُمْ فِيهِ، يَعْنِي: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُقِيمًا حَاضِرًا لِوَطَنِهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلْيَصُمْ فِيهِ، وَلَوْ نَصَبْتَهُ مَفْعُولًا، فَالْمُسَافِرُ وَالْمُقِيمُ كِلَاهُمَا يَشْهَدَانِ الشَّهْرَ، لَا يَشْهَدُهُ الْمُقِيمُ، وَيَغِيبُ عَنْهُ الْمُسَافِرُ.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾[1]، الْأَجَلُ: يُطْلَقُ عَلَى مُدَّةِ التَّأْجِيلِ كُلِّهَا وَعَلَى مُنْتَهَاهَا، فَيَقُولُونَ: انْتَهَى الْأَجَلُ، وَبَلَغَ الْأَجَلُ آخِرَهُ، وَيَقُولُونَ: حَلَّ الْأَجَلُ.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾[2]، يُرَادُ: آخِرُ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ، وَالْعَدُّ إِنَّمَا هُوَ لِلْمُدَّةِ لَا لِغَايَتِهَا وَمُنْتَهَاهَا.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾[3]: إِلَّا لِانْتِهَاءِ مُدَّةٍ مَعْدُودَةٍ بِحَذْفِ الْمُضَافِ، وَقُرِئَ: "وَمَا يُؤَخِّرُهُ" بِالْيَاءِ.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[4]

قُرِئَ: "يَوْمَ يَأْتِيهِمْ": بِغَيْرِ يَاءٍ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ: لَا أَدْرِ، حَكَاهُ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ، وَحَذْفُ الْيَاءِ وَالِاجْتِزَاءُ عَنْهَا بِالْكَسْرَةِ كَثِيرٌ فِي لُغَةِ هُذَيْلٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَاعِلُ يَأْتِي مَا هُوَ؟

قُلْتُ: اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾[5]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾[6] ، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[7].

وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ: "وَمَا يُؤَخِّرُهُ" بِالْيَاءِ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾[8].

---

1 سورة هُودٍ، الآية .
2 سورة الْأَعْرَاف، الآية 34.
3 سورة هُودٍ، الآية .
4 سورة هُودٍ، الآية .
5 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 210.
6 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 158.
7 سورة الْفَجْرُ، الآية 22.
8 سورة هُودٍ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ ضَمِيرَ الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَنْ تَأْتِيهُمُ السَّاعَةَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَا انْتَصَبَ الظَّرْفُ؟

قُلْتُ: إِمَّا أَنْ يَنْتَصِبَ بِلَا تَكَلَّمُ، وَإِمَّا بِإِضْمَارِ "اذْكُرْ"، وَإِمَّا بِالِانْتِهَاءِ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾[2]، أَيْ: يَنْتَهِي الْأَجَلُ يَوْمَ يَأْتِي.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا جَعَلْتَ الْفَاعِلَ ضَمِيرَ الْيَوْمِ، فَقَدْ جَعَلْتَ الْيَوْمَ وَقْتًا لِإِتْيَانِ الْيَوْمِ وَحَدَّدْتَ الشَّيْءَ بِنَفْسِهِ .

قُلْتُ: الْمُرَادُ إِتْيَانُ هَوْلِهِ وَشَدَائِدِهِ.

﴿لا تَكَلَّمُ﴾[3]: لَا تَتَكَلَّمُ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُوَفَّقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[5]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[6].

قُلْتُ: ذَلِكَ يَوْمٌ طَوِيلٌ لَهُ مَوَاقِفُ وَمَوَاطِنُ، فَفِي بَعْضِهَا يُجَادِلُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَفِي بَعْضِهَا يَكُفُّونَ عَنِ الْكَلَامِ، فَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ، وَفِي بَعْضِهَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَتَكَلَّمُونَ، وَفِي بَعْضِهَا: يُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَتَكَلَّمُ أَيْدِيهُمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ.

﴿فَمِنْهُمْ﴾[7]: الضَّمِيرُ: لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ وَلَمْ يُذْكَرُوا، لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾[8]: يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾[9].

وَالشَّقِيُّ الَّذِي وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ لِإِسَاءَتِهِ، وَالسَّعِيدُ الَّذِي وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ لِإِحْسَانِهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة النَّبَأُ، الآية 21.

[5] سورة النَّحْلُ، الآية 11.

[6] سورة الْمُرْسَلَاتُ، الآيتان 35–36.

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة هُودٍ، الآية .

[9] سورة هُودٍ، الآية 103.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[1]

قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِفَتْحِ الشِّينِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "شَقُوا" بِالضَّمِّ، كَمَا قُرِئَ: "سَعِدُوا"، وَالزَّفِيرُ: إِخْرَاجُ النَّفَسِ، وَالشَّهِيقُ: رَدُّهُ.

قَالَ الشَّمَّاخُ:

بَعِيدُ مَدَى التَّطْرِيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهِيقٌ مُحَشْرَجُ

﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأرض﴾[2]: فِيهِ وَجْهَانِ:

-أَحَدُهُمَا: أَنْ تُرَادَ سَمَوَاتُ الْآخِرَةِ وَأَرْضُهَا، وَهِيَ دَائِمَةٌ مَخْلُوقَةٌ لِلْأَبَدِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ لَهَا سَمَوَاتٍ وَأَرْضًا قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[3]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[4]، وَلِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِأَهْلِ الْآخِرَةِ مِمَّا يُقِلُّهُمْ وَيُظِلُّهُمْ: إِمَّا سَمَاءٌ يَخْلُقُهَا اللَّهُ، أَوْ يُظِلُّهُمُ الْعَرْشُ، وَكُلُّ مَا أَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ.

-وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنِ التَّأْبِيدِ وَنَفْيِ الِانْقِطَاعِ، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: مَا دَامَ تُعَارُ، وَمَا أَقَامَ ثَبِيرٌ، وَمَا لَاحَ كَوْكَبٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتِ التَّأْبِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى: الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[5]، وَقَدْ ثَبَتَ خُلُودُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الْأَبَدِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ؟

قُلْتُ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَمِنَ الْخُلُودِ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ وَحْدَهُ، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِالزَّمْهَرِيرِ وَبِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ سِوَى عَذَابِ النَّارِ، وَبِمَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا كُلِّهَا وَهُوَ سُخْطُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَخُسُوءُهُ لَهُمْ وَإِهَانَتُهُ

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 48.

[4] سورة الزُّمَرُ، الآية 74.

[5] سورة هُودٍ، الآية .

إِيَّاهُمْ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَهُمْ سِوَى الْجَنَّةِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا وَأَجَلُّ مَوْقِعًا مِنْهُمْ، وَهُوَ رِضْوَانُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، وَلَهُمْ مَا يَتَفَضَّلُ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ سِوَى ثَوَابِ الْجَنَّةِ مِمَّا لَا يَعْرِفُ كُنْهَهُ إِلَّا هُوَ، فَهُوَ الْمُرَادُ بِالِاسْتِثْنَاءِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ فِي مُقَابَلَتِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[3] أَنَّهُ يَفْعَلُ بِأَهْلِ النَّارِ مَا يُرِيدُ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا يُعْطِي أَهْلَ الْجَنَّةِ عَطَاءَهُ الَّذِي لَا انْقِطَاعَ لَهُ، فَتَأَمَّلْهُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَا يَخْدَعَنَّكَ عَنْهُ قَوْلُ الْمُجْبِرَةِ، إِنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِثْنَاءِ خُرُوجُ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ، فَإِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ الثَّانِيَ يُنَادِي عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، وَيُسَجِّلُ بِافْتِرَائِهِمْ.

وَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ لِمَا رَوَى لَهُمْ بَعْضُ الثَّوَابِتِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: لِيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ تُصَفِّقُ فِيهِ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ مِنَ الضُّلَّالِ مَنِ اغْتَرَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ.

وَهَذَا وَنَحْوُهُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ الْمُبِينِ –زَادَنَا اللَّهُ هِدَايَةً إِلَى الْحَقِّ وَمَعْرِفَةً بِكِتَابِهِ– وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنْ نَعْقِلَ عَنْهُ.

وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا عَنِ ابْنِ الْعَاصِ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ حَرِّ النَّارِ إِلَى بَرْدِ الزَّمْهَرِيرِ، فَذَلِكَ خُلُوُّ جَهَنَّمَ وَصَفْقُ أَبْوَابِهَا.

وَأَقُولُ: مَا كَانَ لِابْنِ عَمْرٍو فِي سَيْفَيْهِ، وَمُقَاتَلَتِهِ بِهِمَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– مَا يَشْغَلُهُ عَنْ تَسْيِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾[4]

---

[1] سورة التَّوْبَة، الآية 72.

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1]: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، وَلَكِنَّهُ مُمْتَدٌّ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[2].

لَمَّا قَصَّ قَصَصَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَذَكَرَ مَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنْ نَقَمِهِ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ، قَالَ: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾[3]، أَيْ: فَلَا تَشُكَّ بَعْدَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا الْقَصَصِ فِي سُوءِ عَاقِبَةِ عِبَادَتِهِمْ، وَتَعَرُّضِهِمْ بِهَا لِمَا أَصَابَ أَمْثَالَهُمْ قَبْلَهُمْ تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعِدَةً بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ وَوَعِيدًا لَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾[4]، يُرِيدُ: أَنَّ حَالَهُمْ فِي الشِّرْكِ مِثْلُ حَالِ آبَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ الْحَالَيْنِ، وَقَدْ بَلَغَكَ مَا نَزَلَ بِآبَائِهِمْ فَسَيَنْزِلَنَّ بِهِمْ مِثْلُهُ، وَهُوَ اسْتِئْنَافٌ مَعْنَاهُ تَعْلِيلُ النَّهْيِ عَنِ الْمِرْيَةِ.

وَ"مَا": فِي "مِمَّا"، وَ"كَمَا": يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً وَمَوْصُولَةً، أَيْ: مِنْ عِبَادَتِهِمْ، وَكَعِبَادَتِهِمْ، أَوْ مِمَّا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَمِثْلَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْهَا.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[5]، أَيْ: حَظَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا وَفَّيْنَا آبَاءَهُمْ أَنْصِبَاءَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ نُصِبَ ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾[6] حَالًا عَنِ النَّصِيبِ الْمُوَفي؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُوَفي وَهُوَ نَاقِصٌ، وَيُوَفي وَهُوَ كَامِلٌ، أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: وَفَّيْتُهُ شَطْرَ حَقِّهِ، وَثُلُثَ حَقِّهِ، وَحَقَّهُ كَامِلًا وَنَاقِصًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[7]

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة الِانْشِقَاقُ، الآية 25.

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾[1]: آمَنَ بِهِ قَوْمٌ وَكَفَرَ بِهِ قَوْمٌ، كَمَا اخْتُلِفَ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ﴾[2]، يَعْنِي: كَلِمَةَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[3]: بَيْنَ قَوْمِ مُوسَى أَوْ قَوْمِكَ، وَهَذِهِ مِنْ جُمْلَةِ التَّسْلِيَةِ، أَيْضًا.

﴿وَإِنَّ كُلا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ
إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4]

﴿وَإِنَّ كُلا﴾[5]: التَّنْوِينُ عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، يَعْنِي: وَإِنَّ كُلَّهُمْ، وَإِنَّ جَمِيعَ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ.

﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾[6]: جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَاللَّامُ فِي "لَمَّا": مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَ"مَا": مَزِيدَةٌ، وَالْمَعْنَى: وَإِنَّ جَمِيعَهُمْ وَاللَّهِ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ.

﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾[7]: مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَإِيمَانٍ وَجُحُودٍ، وَقُرِئَ: "وَإِنْ كُلًّا" بِالتَّخْفِيفِ عَلَى إِعْمَالِ الْمُخَفَّفَةِ عَمَلَ الثَّقِيلَةِ، اعْتِبَارًا لِأَصْلِهَا الَّذِي هُوَ التَّثْقِيلُ.

وَقَرَأَ أُبَيٌّ: "وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" عَلَى أَنَّ "إِنْ" نَافِيَةٌ، وَ"لَمَّا" بِمَعْنَى: إِلَّا، وَقِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ مُفَسِّرَةٌ لَهَا، وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ.

وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ وَسُلَيْمَانُ بْنُ أَرْقَمَ: "وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" بِالتَّنْوِينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَكْلا لَمًّا﴾[8].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

[8] سورة الْفَجْرُ، الآية **19**.

وَالْمَعْنَى: وَإِنَّ كُلًّا مَلْمُومِينَ، بِمَعْنَى: مَجْمُوعِينَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِنَّ كُلًّا جَمِيعًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[1].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[3]: فَاسْتَقِمِ اسْتِقَامَةً مِثْلَ الِاسْتِقَامَةِ الَّتِي أُمِرْتَ بِهَا عَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، غَيْرَ عَادِلٍ عَنْهَا.

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[4]: مَعْطُوفٌ عَلَى الْمُسْتَتِرِ فِي اسْتَقِمْ، وَإِنَّمَا جَازَ الْعَطْفُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُؤَكَّدْ بِمُنْفَصِلٍ لِقِيَامِ الْفَاصِلِ مَقَامَهُ.

وَالْمَعْنَى: فَاسْتَقِمْ أَنْتَ، وَلْيَسْتَقِمْ مَنْ تَابَ عَلَى الْكُفْرِ، وَآمَنَ مَعَكَ.

﴿وَلا تَطْغَوْا﴾[5]: وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ حُدُودِ اللَّهِ.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[6]: عَالِمٌ فَهُوَ مُجَازِيكُمْ بِهِ، فَاتَّقُوهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ آيَةٌ كَانَتْ أَشَدَّ وَلَا أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: "شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَأَخَوَاتُهُمَا".

وَرُوِيَ أَنَّ أَصْحَابَهُ قَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَسْرَعَ فِيكَ الشَّيْبُ، فَقَالَ: "شَيَّبَتْنِي هُودٌ"، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ لَهُ: رُوِيَ عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ، فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْهَا؟ أَقَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: "لَا"، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[7].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .

وَعَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ"، قَالَ: افْتَقِرْ إِلَى اللَّهِ بِصِحَّةِ الْعَزْمِ.

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[1]

قُرِئَ: "وَلَا تَرْكَنُوا" بِفَتْحِ الْكَافِ وَضَمِّهَا مَعَ فَتْحِ التَّاءِ.

وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو: بِكَسْرِ التَّاءِ وَفَتْحِ الْكَافِ، عَلَى لُغَةِ تَمِيمٍ فِي كَسْرِهِمْ حُرُوفَ الْمُضَارَعَةِ إِلَّا الْيَاءَ فِي كُلِّ مَا كَانَ مِنْ بَابِ عَلِمَ يَعْلَمُ.

وَنَحْوُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: "فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ" بِكَسْرِ التَّاءِ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: "وَلَا تُرْكَنُوا" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مِنْ أَرْكَنَهُ إِذَا أَمَالَهُ، وَالنَّهْيُ مُتَنَاوِلٌ لِلِانْحِطَاطِ فِي هَوَاهُمْ، وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِمْ، وَمُصَاحَبَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ، وَزِيَارَتِهِمْ، وَمُدَاهَنَتِهِمْ، وَالرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ، وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ، وَالتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ، وَمَدِّ الْعَيْنِ إِلَى زَهْرَتِهِمْ، وَذِكْرِهِمْ بِمَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لَهُمْ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾[2]: فَإِنَّ الرُّكُونَ هُوَ الْمَيْلُ الْيَسِيرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[3]، أَيْ: إِلَى الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمُ الظُّلْمُ، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى الظَّالِمِينَ.

وَحُكِيَ أَنَّ الْمُوَفَّقَ صَلَّى خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَرَأَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: هَذَا فِيمَنْ رَكَنَ إِلَى مَنْ ظَلَمَ، فَكَيْفَ بِالظَّالِمِ؟

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: جَعَلَ اللَّهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ: ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾[4]، ﴿وَلا تَرْكَنُوا﴾[5].

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة طَهَ، الآية 81.

[5] سورة هُودٍ، الآية .

وَلَمَّا خَالَطَ الزُّهْرِيُّ السَّلَاطِينَ كَتَبَ إِلَيْهِ أَخٌ لَهُ فِي الدِّينِ: عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَبَا بَكْرٍ مِنَ الْفِتَنِ، فَقَدْ أَصْبَحْتَ بِحَالٍ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَكَ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ اللَّهَ وَيَرْحَمَكَ: أَصْبَحْتَ شَيْخًا كَبِيرًا، وَقَدْ أَثْقَلَتْكَ نِعَمُ اللَّهِ بِمَا فَهَّمَكَ اللَّهُ مِنْ كِتَابِهِ وَعَلَّمَكَ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ أَخْذُ اللَّهِ الْمِيثَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ، قَالَ اللَّهُ –سُبْحَانَهُ–: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[1].

وَاعْلَمْ أَنَّ أَيْسَرَ مَا ارْتَكَبْتَ وَأَخَفَّ مَا احْتَمَلْتَ: أَنَّكَ آنَسْتَ وَحْشَةَ الظَّالِمِ، وَسَهَّلْتَ سَبِيلَ الْغَيِّ بِدُنُوِّكَ مِمَّنْ لَمْ يُؤَدِّ حَقًّا، وَلَمْ يَتْرُكْ بَاطِلًا، حِينَ أَدْنَاكَ اتِّخَاذُكَ قُطْبًا تَدُورُ عَلَيْكَ رَحَى بَاطِلِهِمْ، وَجِسْرًا يُعْبُرُونَ عَلَيْكَ إِلَى بَلَائِهِمْ، وَسُلَّمًا يَصْعَدُونَ فِيكَ إِلَى ضَلَالِهِمْ، يُدْخِلُونَ الشَّكَّ بِكَ عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَيَقْتَادُونَ بِكَ قُلُوبَ الْجُهَلَاءِ، فَمَا أَيْسَرَ مَا عَمَّرُوا لَكَ فِي جَنْبِ مَا خَرَّبُوا عَلَيْكَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَخَذُوا مِنْكَ فِي جَنْبِ مَا أَفْسَدُوا عَلَيْكَ مِنْ دِينِكَ، فَمَا يُؤَمِّنُكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2]، فَإِنَّكَ تُعَامِلُ مَنْ لَا يَجْهَلُ، وَيَحْفَظُ عَلَيْكَ مَنْ لَا يَغْفُلُ، فَدَاوِ دِينَكَ فَقَدْ دَخَلَهُ سُقْمٌ، وَهَيِّئْ زَادَكَ فَقَدْ حَضَرَ السَّفَرُ الْبَعِيدُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَالسَّلَامُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ: فِي جَهَنَّمَ وَادٍ لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا الْقُرَّاءُ الزَّائِرُونَ لِلْمُلُوكِ.

وَعَنِ الْأَوْزَاعِيِّ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ يَزُورُ عَامِلًا .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ: الذُّبَابُ عَلَى الْعَذِرَةِ، أَحْسَنُ مِنْ قَارِئٍ عَلَى بَابِ هَؤُلَاءِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ، فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللَّهُ فِي أَرْضِهِ"، وَلَقَدْ سُئِلَ سُفْيَانُ عَنْ ظَالِمٍ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ فِي بَرِّيَّةٍ، هَلْ يُسْقَى شَرْبَةَ مَاءٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقِيلَ لَهُ: يَمُوتُ؟ فَقَالَ: دَعْهُ يَمُوتُ.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[3]: حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾[4]، أَيْ: فَتَمَسُّكُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَمَعْنَاهُ: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَنْصَارٍ يَقْدِرُونَ عَلَى مَنْعِكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِكُمْ مِنْ غَيْرِهِ.

---

[1] سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 187.

[2] سورة مَرْيَمُ، الآية 59.

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

﴿ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[1]: ثُمَّ لَا يَنْصُرُكُمْ هُوَ، لِأَنَّهُ وَجَبَ فِي حِكْمَتِهِ تَعْذِيبُكُمْ وَتَرْكُ الْإِبْقَاءِ عَلَيْكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى "ثُمَّ"؟

قُلْتُ: مَعْنَاهَا: الِاسْتِبْعَادُ، لِأَنَّ النُّصْرَةَ مِنَ اللَّهِ مُسْتَبْعَدَةٌ مَعَ اسْتِيجَابِهِمُ الْعَذَابَ وَاقْتِضَاءِ حِكْمَتِهِ لَهُ.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذَلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ﴾[2]

﴿طَرَفَيِ النَّهارِ﴾[3]: غَدْوَةً وَعَشِيَّةً.

﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾[4]: وَسَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَهِيَ سَاعَاتُهُ الْقَرِيبَةُ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ، مَنْ أَزْلَفَهُ إِذَا قَرَّبَهُ وَازْدَلَفَ إِلَيْهِ، وَصَلَاةُ الْغُدْوَةِ: الْفَجْرُ، وَصَلَاةُ الْعَشِيَّةِ: الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ عَشِيٌّ، وَصَلَاةُ الزُّلَفِ: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وَانْتِصَابُ طَرَفَيِ النَّهَارِ عَلَى الظَّرْفِ، لِأَنَّهُمَا مُضَافَانِ إِلَى الْوَقْتِ، كَقَوْلِكَ: أَقَمْتُ عِنْدَهُ جَمِيعَ النَّهَارِ، وَأَتَيْتُهُ نِصْفَ النَّهَارِ، وَأَوَّلَهُ، وَآخِرَهُ، تَنْصِبُ هَذَا كُلَّهُ عَلَى إِعْطَاءِ الْمُضَافِ حُكْمَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾[5].

وَقُرِئَ: "وَزُلُفًا" بِضَمَّتَيْنِ، "وَزُلْفًا" بِسُكُونِ اللَّامِ، "وَزُلْفِي": بِوَزْنِ قُرْبَى، فَالزُّلَفُ: جَمْعُ زُلْفَةٍ، كَظُلَمٍ فِي ظُلْمَةٍ، وَالزُّلْفُ بِالسُّكُونِ: نَحْوُ: بُسْرَةٍ وَبُسْرٍ، وَالزُّلُفُ بِضَمَّتَيْنِ نَحْوُ: بُسُرٍ فِي بُسْرٍ.

وَالزُّلْفِي بِمَعْنَى: الزُّلْفَةُ، كَمَا أَنَّ الْقُرْبَى بِمَعْنَى الْقُرْبَةِ: وَهُوَ مَا يَقْرُبُ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ مِنَ اللَّيْلِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة طَهَ، الآية 130.

وَقِيلَ: "وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ": وُقْرَبًا مِنَ اللَّيْلِ، وَحَقُّهَا عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ تُعْطَفَ عَلَى الصَّلَاةِ، أَيْ: أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، وَأَقِمْ زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ، عَلَى مَعْنَى: وَأَقِمْ صَلَاةً تَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فِي بَعْضِ اللَّيْلِ.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[1]: فِيهِ وَجْهَانِ:

–أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ تَكْفِيرُ الصَّغَائِرِ بِالطَّاعَاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ".

–وَالثَّانِي: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2]: بِأَنْ يَكُنَّ لُطْفًا فِي تَرْكِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[3].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي الْيُسْرِ عَمْرِو ابْنِ غَزِيَّةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ يَبِيعُ التَّمْرَ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ فِي الْبَيْتِ أَجْوَدَ مِنْ هَذَا التَّمْرِ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى بَيْتِهِ فَضَمَّهَا إِلَى نَفْسِهِ وَقَبَّلَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ، فَتَرَكَهَا وَنَدِمَ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأَخْبَرَهُ بِمَا فَعَلَ، فَقَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنْتَظِرُ أَمْرَ رَبِّي"، فَلَمَّا صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ نَزَلَتْ، فَقَالَ: "نَعَمْ، اذْهَبْ، فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَا عَمِلْتَ، وَرُوِيَ أَنَّهُ أَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ إِلَى اللَّهِ، فَأَتَى عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَنَزَلَتْ، فَقَالَ عُمَرُ: أَهَذَا لَهُ خَاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةً؟ فَقَالَ: بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةً. وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ لَهُ: "تَوَضَّأْ وُضُوآ حَسَنًا وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ".

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[4]، ﴿ذَلِكَ﴾[5]: إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾[6]، فَمَا بَعْدَهُ: ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[7]: عِظَةٌ لِلْمُتَّعِظِينَ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة الْعَنْكَبُوتُ، الآية 45.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

[5] سورة هُودٍ، الآية .

[6] سورة هُودٍ، الآية .

[7] سورة هُودٍ، الآية .

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]

ثُمَّ كَرَّ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالصَّبْرِ بَعْدَمَا جَاءَ بِمَا هُوَ خَاتِمَةٌ لِلتَّذْكِيرِ، وَهَذَا الْكُرُورُ لِفَضْلِ خُصُوصِيَّةٍ وَمِزْيَةٍ ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَكَانِ الصَّبْرِ وَمَحَلِّهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَعَلَيْكَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِمَّا ذُكِّرْتَ بِهِ وَأَحَقُّ بِالتَّوْصِيَةِ، وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أُمِرْتَ بِهِ، وَالِانْتِهَاءُ عَمَّا نُهِيتَ عَنْهُ، فَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]: جَاءَ بِمَا هُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ وَالِانْتِهَاءِ عَنِ الطُّغْيَانِ، وَالرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ، وَالصَّبْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ.

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[3]

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾[4]: فَهَلَّا كَانَ، وَقَدْ حَكَوْا عَنِ الْخَلِيلِ: كُلُّ "لَوْلَا" فِي الْقُرْآنِ، فَمَعْنَاهَا: "هَلَّا" إِلَّا الَّتِي فِي الصَّافَّاتِ، وَمَا صَحَّتْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ.

فَفِي غَيْرِ الصَّافَّاتِ: ﴿لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾[5]، ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾[6]، ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾[7]، ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾[8]: أُولُو فَضْلٍ وَخَيْرٍ.

وَسَمَّى الْفَضْلَ وَالْجَوْدَةَ: بَقِيَّةً، لِأَنَّ الرَّجُلَ يَسْتَبْقِي مِمَّا يُخْرِجُهُ أَجْوَدَهُ وَأَفْضَلَهُ، فَصَارَ مَثَلًا فِي الْجَوْدَةِ وَالْفَضْلِ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ مِنْ بَقِيَّةِ الْقَوْمِ، أَيْ: مِنْ خِيَارِهِمْ، وَبِهِ فُسِّرَ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة الْقَلَمُ، الآية 49.
[6] سورة الْفَتْحُ، الآية 25.
[7] سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 74.
[8] سورة هُودٍ، الآية .

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فِي الزَّوَايَا خَبَايَا، وَفِي الرِّجَالِ بَقَايَا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَقِيَّةُ بِمَعْنَى: الْبَقْوَى، كَالتَّقِيَّةِ بِمَعْنَى: التَّقْوَى، أَيْ: فَهَلَّا كَانَ مِنْهُمْ ذَوُو بَقَاءٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصِيَانَةٍ لَهَا مِنْ سُخْطِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ؟

وَقُرِئَ: "أُولُو بِقْيَةٍ" بِوَزْنِ لِقْيَةٍ، مِنْ بَقَّاهُ يُبْقِيهِ إِذَا رَاقَبَهُ وَانْتَظَرَهُ وَمِنْهُ: بَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَالْبَقِيَّةُ الْمَرَّةُ مِنْ مَصْدَرِهِ.

وَالْمَعْنَى: فَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ أُولُو مُرَاقَبَةٍ وَخَشْيَةٍ مِنِ انْتِقَامِ اللَّهِ، كَأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ إِيقَاعَهُ بِهِمْ لِإِشْفَاقِهِمْ.

﴿إِلاَّ قَلِيلا﴾[1]: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، مَعْنَاهُ: وَلَكِنَّ قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنَ الْقُرُونِ نُهُوا عَنِ الْفَسَادِ، وَسَائِرُهُمْ تَارِكُونَ لِلنَّهْيِ.

وَ"مِنْ" فِي: ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾[2]: حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ لَا لِلتَّبْعِيضِ، لِأَنَّ النَّجَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلنَّاهِينَ وَحْدَهُمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِوُقُوعِ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ مُتَّصِلًا وَجْهٌ يُحْمَلُ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: إِنْ جَعَلْتَهُ مُتَّصِلًا عَلَى مَا عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ، كَانَ الْمَعْنَى فَاسِدًا، لِأَنَّهُ يَكُونُ تَخْصِيصًا لِأُولِي الْبَقِيَّةِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ، إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِنَ النَّاجِينَ مِنْهُمْ كَمَا تَقُولُ: هَلَّا قَرَأَ قَوْمُكَ الْقُرْآنَ إِلَّا الصُّلَحَاءَ مِنْهُمْ، تُرِيدُ اسْتِثْنَاءَ الصُّلَحَاءِ مِنَ الْمُحَضَّضِينَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَإِنْ قُلْتَ فِي تَحْضِيضِهِمْ عَلَى النَّهْيِ عَلَى الْفَسَادِ مَعْنَى نَفْيِهِ عَنْهُمْ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ أُولُو بَقِيَّةٍ إِلَّا قَلِيلًا، كَانَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا وَمَعْنًى صَحِيحًا، وَكَانَ انْتِصَابُهُ عَلَى أَصْلِ الِاسْتِثْنَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْأَفْصَحُ أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْبَدَلِ.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾[4]: أَرَادَ بِالَّذِينِ ظَلَمُوا: تَارِكِي النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ، أَيْ: لَمْ يَهْتَمُّوا بِمَا هُوَ رُكْنٌ عَظِيمٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 165.

[4] سورة هُودٍ، الآية .

عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَقَدُوا هِمَمَهُمْ بِالشَّهَوَاتِ، وَاتَّبَعُوا مَا عَرَفُوا فِيهِ التَّنَعُّمَ وَالتَّتَرُّفَ، مِنْ حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَالثَّرْوَةِ، وَطَلَبِ أَسْبَابِ الْعَيْشِ الْهَنِيءِ، وَرَفَضُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو فِي رِوَايَةِ الْجَعْفِيِّ: "وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا"، يَعْنِي: وَاتْبَعُوا جَزَاءَ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ: أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا جَزَاءَ إِتْرَافِهِمْ.

وَهَذَا مَعْنًى قَوِيٌّ لِتَقَدُّمِ الْإِنْجَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَهَلَكَ السَّائِرُ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[1]؟

قُلْتُ: إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ: وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، كَانَ مَعْطُوفًا عَلَى مُضْمَرٍ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ نَهَوْا عَنِ الْفَسَادِ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا شَهَوَاتِهِمْ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى "نَهَوْا".

وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ: وَاتْبَعُوا جَزَاءَ الْإِتْرَافِ، فَالْوَاوُ لِلْحَالِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْجَيْنَا الْقَلِيلَ، وَقَدِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا جَزَاءَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[2]؟

قُلْتُ: عَلَى ﴿أُتْرِفُوا﴾[3]، أَيْ: اتَّبَعُوا الْإِتْرَافَ وَكَوْنَهُمْ مُجْرِمِينَ، لِأَنَّ تَابِعَ الشَّهَوَاتِ مَغْمُورٌ بِالْآثَامِ، أَوْ أُرِيدَ بِالْإِجْرَامِ إِغْفَالُهُمْ لِلشُّكْرِ، أَوْ عَلَى "اتَّبَعُوا"، أَيِ: اتَّبَعُوا شَهَوَاتِهِمْ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ بِذَلِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اعْتِرَاضًا وَحُكْمًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[4]

(وَكَانَ): بِمَعْنَى: صَحَّ وَاسْتَقَامَ، وَاللَّامُ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .

[2] سورة هُودٍ، الآية .

[3] سورة هُودٍ، الآية .

[4] سورة هُودٍ، الآية .

وَ﴿بِظُلْمٍ﴾[1]: حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ، وَالْمَعْنَى: وَاسْتَحَالَ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ الْقُرَى ظَالِمًا لَهَا.

﴿وَأَهْلُهَا﴾[2]: قَوْمٌ، ﴿مُصْلِحُونَ﴾[3]: تَنْزِيهًا لِذَاتِهِ عَنِ الظُّلْمِ، وَإِيذَانًا بِأَنَّ إِهْلَاكَ الْمُصْلِحِينَ مِنَ الظُّلْمِ.

وَقِيلَ: الظُّلْمُ: الشِّرْكُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يُهْلِكُ الْقُرَى بِسَبَبِ شِرْكِ أَهْلِهَا وَهُمْ مُصْلِحُونَ، يَتَعَاطَوْنَ الْحَقَّ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا يَضُمُّونَ إِلَى شِرْكِهِمْ فَسَادًا آخَرَ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[5]، يَعْنِي: لَاضْطَرَّهُمْ إِلَى أَنْ يَكُونُوا أَهْلَ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ أَيْ: مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[6].

وَهَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الِاضْطِرَارِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَضْطَرَّهُمْ إِلَى الِاتِّفَاقِ عَلَى دِينِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ مَكَّنَهُمْ مِنَ الِاخْتِيَارِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ التَّكْلِيفِ، فَاخْتَارَ بَعْضُهُمُ الْحَقَّ وَبَعْضُهُمُ الْبَاطِلَ، فَاخْتَلَفُوا، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾[7] إِلَّا نَاسًا هَدَاهُمُ اللَّهُ وَلَطَفَ بِهِمْ، فَاتَّفَقُوا عَلَى دِينِ الْحَقِّ غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ فِيهِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1]: ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ وَتَضَمَّنَهُ، يَعْنِي: وَلِذَلِكَ مِنَ التَّمَكُّنِ وَالِاخْتِيَارِ الَّذِي كَانَ عَنْهُ الِاخْتِلَافُ خَلَقَهُمْ، لِيُثِيبَ مُخْتَارَ الْحَقِّ بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِ، وَيُعَاقِبَ مُخْتَارَ الْبَاطِلِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ:﴾[2]، وَهِيَ قَوْلُهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3]، لِعِلْمِهِ بِكَثْرَةِ مَنْ يَخْتَارُ الْبَاطِلَ.

﴿وَكُلًا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[4]

﴿وَكُلا﴾[5]: التَّنْوِينُ فِيهِ عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَكُلُّ نَبَإٍ، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾[6].

وَ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾[7]: بَيَانٌ لِكُلٍّ، وَ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[8]: بَدَلٌ مِنْ "كُلًّا".

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: كَلُّ اقْتِصَاصٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ، عَلَى مَعْنَى: وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الِاقْتِصَاصِ نَقُصُّ عَلَيْكَ، يَعْنِي: عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾[9]: مَفْعُولٌ ﴿نَقُصُّ﴾[10]، وَمَعْنَى تَثْبِيتِ فُؤَادِهِ: زِيَادَةُ يَقِينِهِ وَمَا فِيهِ طُمَأْنِينَةُ قَلْبِهِ، لِأَنَّ تَكَاثُرَ الْأَدِلَّةِ أَثْبَتُ لِلْقَلْبِ وَأَرْسَخُ لِلْعِلْمِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .
[9] سورة هُودٍ، الآية .
[10] سورة هُودٍ، الآية .

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾[1]، أَيْ: فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَوْ فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الْمُقْتَصَّةِ فِيهَا مَا هُوَ حَقٌّ.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2]: مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ، ﴿اعْمَلُوا﴾[3]: عَلَى حَالِكُمْ وَجِهَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا.

﴿إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا﴾[4]: بِنَا الدَّوَائِرَ.

﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾[5]: أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ نَحْوُ مَا اقْتَصَّ اللَّهُ مِنَ النِّقَمِ النَّازِلَةِ بِأَشْبَاهِكُمْ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[6]

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[7]: لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِمَّا يَجْرِي فِيهِمَا، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[8]: فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ وَأَمْرُكَ، فَيَنْتَقِمُ لَكَ مِنْهُمْ، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[9]، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَكَافِلُكَ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[10]، وَقُرِئَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾[11] بِالتَّاءِ، أَيْ: أَنْتَ وَهُمْ عَلَى تَغْلِيبِ الْمُخَاطَبِ.

---

[1] سورة هُودٍ، الآية .
[2] سورة هُودٍ، الآية .
[3] سورة هُودٍ، الآية .
[4] سورة هُودٍ، الآية .
[5] سورة هُودٍ، الآية .
[6] سورة هُودٍ، الآية .
[7] سورة هُودٍ، الآية .
[8] سورة هُودٍ، الآية .
[9] سورة هُودٍ، الآية .
[10] سورة هُودٍ، الآية .
[11] سورة هُودٍ، الآية .

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ هُودٍ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِنُوحٍ وَمَنْ كَذَّبَ بِهِ، وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَلُوطٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ السُّعَدَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ –تَعَالَى– ذَلِكَ.

سورة يوسف

سورة يوسف

مَكِّيَّةٌ [إِلَّا الْآيَاتِ 1 و 2 و 3 و 7 فَمَدَنِيَّةٌ]
وَهِيَ مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ هُودٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1]

﴿تِلْكَ﴾[2]: إِشَارَةٌ إِلَى آيَاتِ السُّورَةِ.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[3]: السُّورَةُ، أَيْ: تِلْكَ الْآيَاتُ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ آيَاتُ السُّورَةِ الظَّاهِرُ أَمْرُهَا فِي إِعْجَازِ الْعَرَبِ وَتَبْكِيتِهِمْ، أَوِ الَّتِي تُبَيِّنُ لِمَنْ تَدَبَّرَهَا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ الْبَشَرِ، أَوِ الْوَاضِحَةُ الَّتِي لَا تَشْتَبِهُ عَلَى الْعَرَبِ مَعَانِيهَا لِنُزُولِهَا بِلِسَانِهِ، أَوْ قَدْ أُبِينَ فِيهَا مَا سَأَلَتْ عَنْهُ الْيَهُودُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ قَالُوا لِكُبَرَاءِ الْمُشْرِكِينَ: سَلُوا مُحَمَّدًا، لِمَ انْتَقَلَ آلُ يَعْقُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَعَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾[1]: أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ قِصَّةُ يُوسُفَ فِي حَالِ كَوْنِهِ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[2]، وَسَمَّى بَعْضَ الْقُرْآنِ قُرْآنًا، لِأَنَّ الْقُرْآنَ اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَى كُلِّهِ وَبَعْضِهِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]: إِرَادَةَ أَنْ تَفْهَمُوهُ وَتُحِيطُوا بِمَعَانِيهِ وَلَا يَلْتَبِسَ عَلَيْكُمْ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[4].

﴿الْقَصَصِ﴾[5]: عَلَى وَجْهَيْنِ:

-يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَى: الِاقْتِصَاصِ، تَقُولُ: قَصَّ الْحَدِيثَ يَقُصُّهُ قَصَصًا، كَقَوْلِكَ: شَلَّهُ يَشُلُّهُ شَلَلًا، إِذَا طَرَدَهُ.

-وَيَكُونُ: "فَعَلًا" بِمَعْنَى: "مَفْعُولٍ"، كَالنَّفْضِ وَالْحَسْبِ، وَنَحْوُهُ: النَّبَأُ وَالْخَبَرُ: فِي مَعْنَى الْمُنَبَّأِ بِهِ وَالْمُخْبَرِ بِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْمَصْدَرِ، كَالْخَلْقِ وَالصَّيْدِ، وَإِنْ أُرِيدَ الْمَصْدَرُ، فَمَعْنَاهُ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[6]، أَيْ: بِإِيحَائِنَا إِلَيْكَ هَذِهِ السُّورَةَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَحْسَنُ مَنْصُوبًا نَصْبَ الْمَصْدَرِ، لِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ الْمَقْصُوصُ مَحْذُوفًا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[7]: مُغْنٍ عَنْهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ هَذَا الْقُرْآنَ بِنَقُصَّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الِاقْتِصَاصِ هَذَا الْقُرْآنَ بِإِيحَائِنَا إِلَيْكَ، وَالْمُرَادُ بِأَحْسَنِ الِاقْتِصَاصِ: أَنَّهُ أُقْتُصَّ عَلَى أَبْدَعِ طَرِيقَةٍ وَأَعْجَبِ أُسْلُوبٍ.

أَلَا تَرَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُقْتَصٌّ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَفِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية 44.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَلَا تَرَى اقْتِصَاصَهُ فِي كِتَابٍ مِنْهَا مُقَارِبًا لِاقْتِصَاصِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَإِنْ أُرِيدَ بِالْقَصَصِ الْمَقْصُوصُ، فَمَعْنَاهُ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ مَا يُقَصُّ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

وَإِنَّمَا كَانَ أَحْسَنَهُ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْعِبَرِ وَالنُّكَتِ وَالْحِكَمِ وَالْعَجَائِبِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا.

وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا يُقْتَصُّ فِي بَابِهِ، كَمَا يُقَالُ فِي الرَّجُلِ: هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ، يُرَادُ فِي فَنِّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِمَّ اشْتِقَاقُ الْقَصَصِ؟

قُلْتُ: مِنْ قَصَّ أَثَرَهُ إِذَا اتَّبَعَهُ، لِأَنَّ الَّذِي يَقُصُّ الْحَدِيثَ يَتْبَعُ مَا حَفِظَ مِنْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا يُقَالُ: تَلَا الْقُرْآنَ، إِذَا قَرَأَهُ، لِأَنَّهُ يَتْلُو، أَيْ: يَتْبَعُ مَا حَفِظَ مِنْهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ.

﴿وَإِنْ كُنْتَ﴾[1]: ﴿إِنْ﴾[2] مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَّامُ هِيَ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّافِيَةِ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿قَبْلِهِ﴾[3]: رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا أَوْحَيْنَا﴾[4].

وَالْمَعْنَى: وَإِنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ إِيحَائِنَا إِلَيْكَ مِنَ الْغَافِلِينَ عَنْهُ، أَيْ: مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ، مَا كَانَ لَكَ فِيهِ عِلْمٌ قَطُّ، وَلَا طَرَقَ سَمْعَكَ طَرَفٌ مِنْهُ.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[5]

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾[6]: بَدَلٌ مِنْ أَحْسَنِ الْقَصَصِ، وَهُوَ مِنْ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ، لِأَنَّ الْوَقْتَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْقَصَصِ وَهُوَ الْمَقْصُوصُ، فَإِذَا قَصَّ وَقْتَهُ فَقَدْ قَصَّ، أَوْ بِإِضْمَارِ: "اذْكُرْ"، وَيُوسُفُ اسْمٌ عِبْرَانِيٌّ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ عَرَبِيٌّ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَرَبِيًّا لَانْصَرَفَ، لِخُلُوِّهِ عَنْ سَبَبٍ آخَرَ سِوَى التَّعْرِيفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ قَرَأَ: "يُوسِفُ" بِكَسْرِ السِّينِ، أَوْ "يُوسَفُ" بِفَتْحِهَا، هَلْ يَجُوزُ عَلَى قِرَاءَتِهِ أَنْ يُقَالَ: "هُوَ عَرَبِيٌّ"، لِأَنَّهُ عَلَى وَزْنِ الْمُضَارِعِ الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ أَوِ الْمَفْعُولِ مِنْ آسَفَ، وَإِنَّمَا مُنِعَ الصَّرْفَ لِلتَّعْرِيفِ وَوَزْنِ الْفِعْلِ؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ الْمَشْهُورَةَ قَامَتْ بِالشَّهَادَةِ، عَلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ أَعْجَمِيَّةٌ، فَلَا تَكُونُ عَرَبِيَّةً تَارَةً وَأَعْجَمِيَّةً أُخْرَى، وَنَحْوُ يُوسُفَ: يُونُسُ، رُوِيَتْ فِيهِ هَذِهِ اللُّغَاتُ الثَّلَاثُ، وَلَا يُقَالُ: هُوَ عَرَبِيٌّ، لِأَنَّهُ فِي لُغَتَيْنِ مِنْهَا بِوَزْنِ الْمُضَارِعِ مِنْ آنَسَ وَأُونِسَ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِذَا قِيلَ: مَنِ الْكَرِيمُ؟ فَقُولُوا: الْكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ".

﴿يَا أَبَتِ﴾[1]: قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هَذِهِ التَّاءُ؟

قُلْتُ: تَاءُ تَأْنِيثٍ وَقَعَتْ عِوَضًا مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا تَاءُ تَأْنِيثٍ قَلْبُهَا هَاءً فِي الْوَقْفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ إِلْحَاقُ تَاءِ التَّأْنِيثِ بِالْمُذَكَّرِ؟

قُلْتُ: كَمَا جَازَ نَحْوُ قَوْلِكَ: حَمَامَةٌ ذَكَرٌ، وَشَاةٌ ذَكَرٌ، وَرَجُلٌ رَبْعَةٌ، وَغُلَامٌ يَفْعَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ سَاغَ تَعْوِيضُ تَاءِ التَّأْنِيثِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ التَّأْنِيثَ وَالْإِضَافَةَ يَتَنَاسَبَانِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زِيَادَةٌ مَضْمُومَةٌ إِلَى الِاسْمِ فِي آخِرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا هَذِهِ الْكَسْرَةُ؟

قُلْتُ: هِيَ الْكَسْرَةُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْيَاءِ فِي قَوْلِكَ: يَا أَبِي، قَدْ زُحْلِقَتْ إِلَى التَّاءِ، لِاقْتِضَاءِ تَاءِ التَّأْنِيثِ أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهَا مَفْتُوحًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بَالُ الْكَسْرَةِ لَمْ تَسْقُطْ بِالْفَتْحَةِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا التَّاءُ وَتَبْقَى التَّاءُ سَاكِنَةً؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُلْتُ: امْتَنَعَ ذَلِكَ فِيهَا، لِأَنَّهَا اسْمٌ، وَالْأَسْمَاءُ: حَقُّهَا التَّحْرِيكُ، لِأَصَالَتِهَا فِي الْإِعْرَابِ، وَإِنَّمَا جَازَ تَسْكِينُ الْيَاءِ وَأَصْلُهَا أَنْ تُحَرَّكَ تَخْفِيفًا، لِأَنَّهَا حَرْفُ لِينٍ.

وَأَمَّا التَّاءُ: فَحَرْفٌ صَحِيحٌ نَحْوُ كَافِ الضَّمِيرِ، فَلَزِمَ تَحْرِيكُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: يُشْبِهُ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّاءِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْكَسْرَةِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ مِنْهُ، لِأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْيَاءِ، إِذَا قُلْتَ: يَا غُلَامِ، فَكَمَا لَا يَجُوزُ: "يَا أَبَتِي"، لَا يَجُوزُ: ﴿يَا أَبَتِ﴾[1].

قُلْتُ: الْيَاءُ وَالْكَسْرَةُ قَبْلَهَا شَيْئَانِ، وَالتَّاءُ عِوَضٌ مِنْ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ، وَهُوَ الْيَاءُ، وَالْكَسْرَةُ غَيْرُ مُتَعَرَّضٍ لَهَا، فَلَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ مِنْهُ، إِلَّا إِذَا جُمِعَ بَيْنَ التَّاءِ وَالْيَاءِ لَا غَيْرُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: "يَا أَبَتَا" مَعَ كَوْنِ الْأَلِفِ فِيهِ بَدَلًا مِنَ التَّاءِ، كَيْفَ جَازَ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّاءِ، وَلَمْ يُعَدَّ ذَلِكَ جَمْعًا بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ مِنْهُ، فَالْكَسْرَةُ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ دَلَّتِ الْكَسْرَةُ فِي: "يَا غُلَامِ" عَلَى الْإِضَافَةِ، لِأَنَّهَا قَرِينَةُ الْيَاءِ وَلِصِيقَتِهَا.

فَإِنْ دَلَّتْ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي: ﴿يَا أَبَتِ﴾[2]، فَالتَّاءُ الْمُعَوَّضَةُ لَغْوٌ: وُجُودُهَا كَعَدَمِهَا.

قُلْتُ: بَلْ حَالُهَا مَعَ التَّاءِ كَحَالِهَا مَعَ الْيَاءِ إِذَا قُلْتَ يَا أَبِي.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ مَنْ قَرَأَ بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّهَا؟

قُلْتُ: أَمَّا مَنْ فَتَحَ فَقَدْ حَذَفَ الْأَلِفَ مِنْ: "يَا أَبَتَا"، وَاسْتَبْقَى الْفَتْحَةَ قَبْلَهَا، كَمَا فَعَلَ مِنْ حَذْفِ الْيَاءِ فِي: "يَا غُلَامِ".

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: حَرَّكَهَا بِحَرَكَةِ الْبَاءِ الْمُعَوَّضِ مِنْهَا فِي قَوْلِكَ: "يَا أَبِي"، وَأَمَّا مَنْ ضَمَّ فَقَدْ رَأَى اسْمًا فِي آخِرِهِ تَاءُ تَأْنِيثٍ، فَأَجْرَاهُ مَجْرَى الْأَسْمَاءِ الْمُؤَنَّثَةِ بِالتَّاءِ، فَقَالَ: ﴿"يَا أَبَتِ﴾[3]، كَمَا تَقُولُ: "يَا تَبَةَ"، مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ، لِكَوْنِهَا عِوَضًا مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقُرِئَ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾[1] بِتَحْرِيكِ الْيَاءِ، وَأَحَدَ عَشَرَ: بِسُكُونِ الْعَيْنِ، تَخْفِيفًا لِتَوَالِي الْمُتَحَرِّكَاتِ فِيمَا هُوَ فِي حُكْمِ اسْمٍ وَاحِدٍ، وَكَذَا إِلَى تِسْعَةَ عَشَرَ، إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ، لِئَلَّا يَلْتَقِيَ سَاكِنَانِ.

وَ﴿رَأَيْتُ﴾[2] مِنَ الرُّؤْيَا، لَا مِنَ الرُّؤْيَةِ، لِأَنَّ مَا ذَكَرَهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ مَنَامٌ، لِأَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَوِ اجْتَمَعَا مَعَ الْكَوَاكِبِ سَاجِدَةً لِيُوسُفَ فِي حَالِ الْيَقَظَةِ، لَكَانَتْ آيَةً عَظِيمَةً لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمَا خَفِيَتْ عَلَيْهِ وَعَلَى النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَسْمَاءُ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ؟

قُلْتُ: رَوَى جَابِرٌ أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ النُّجُومِ الَّتِي رَآهُنَّ يُوسُفُ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِلْيَهُودِيِّ: "إِنْ أَخْبَرْتُكَ هَلْ تُسْلِمُ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "جَرَيَانُ، وَالطَّارِقُ، وَالذَّيَّالُ، وَقَابِسُ، وَعَمُودَانِ، وَالْفُلَيْقُ، وَالْمُصْبِحُ، وَالضَّرُوحُ، وَالْفُرُغُ، وَوَثَّابٌ، وَذُو الْكَتِفَيْنِ، رَآهَا يُوسُفُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ نَزَلْنَ مِنَ السَّمَاءِ وَسَجَدْنَ لَهُ". فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِي وَاللَّهِ، إِنَّهَا لَأَسْمَاؤُهَا.

وَقِيلَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَبَوَاهُ، وَقِيلَ: أَبُوهُ وَخَالَتُهُ: وَالْكَوَاكِبُ، إِخْوَتُهُ.

وَعَنْ وَهْبٍ أَنَّ يُوسُفَ رَأَى وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ عَصًا طِوَالًا كَانَتْ مَرْكُوزَةً فِي الْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدَّارَةِ، وَإِذَا عَصًا صَغِيرَةٌ تَثِبُ عَلَيْهَا حَتَّى اقْتَلَعَتْهَا وَغَلَبَتْهَا، فَوَصَفَ ذَلِكَ لِأَبِيهِ، فَقَالَ: إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ هَذَا لِإِخْوَتِكَ، ثُمَّ رَأَى وَهُوَ ابْنُ ثِنْتَيِ عَشْرَةَ سَنَةً: الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ تَسْجُدُ لَهُ، فَقَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَقْصُصْهَا عَلَيْهِمْ، فَيَبْغُوا لَكَ الْغَوَائِلَ.

وَقِيلَ: كَانَ بَيْنَ رُؤْيَا يُوسُفَ وَمَصِيرِ إِخْوَتِهِ إِلَيْهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: ثَمَانُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؟

قُلْتُ: أَخَّرَهُمَا لِيَعْطِفَهُمَا عَلَى الْكَوَاكِبِ عَلَى طَرِيقِ الِاخْتِصَاصِ، بَيَانًا لِفَضْلِهِمَا وَاسْتِبْدَادِهِمَا بِالْمَزِيَّةِ عَلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الطَّوَالِعِ، كَمَا أَخَّرَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ عَطَفَهُمَا عَلَيْهَا لِذَلِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ بِمَعْنَى "مَعَ"، أَيْ: رَأَيْتُ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَكْرَارِ ﴿رَأَيْتُ﴾[1]؟

قُلْتُ: لَيْسَ بِتَكْرَارٍ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ وَقَعَ جَوَابًا لَهُ، كَأَنَّ يَعْقُوبَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– قَالَ لَهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[2]: كَيْفَ رَأَيْتَهَا سَائِلًا عَنْ حَالِ رُؤْيَتِهَا؟ فَقَالَ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ أُجْرِيَتْ مَجْرَى الْعُقَلَاءِ فِي رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهَا بِمَا هُوَ خَاصٌّ بِالْعُقَلَاءِ وَهُوَ السُّجُودُ، أَجْرَى عَلَيْهَا حُكْمَهُمْ، كَأَنَّهَا عَاقِلَةٌ، وَهَذَا كَثِيرٌ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ، أَنْ يُلَابِسَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَيُعْطَى حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهِ، إِظْهَارًا لِأَثَرِ الْمُلَابَسَةِ وَالْمُقَارَبَةِ.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[4]

عَرَفَ يَعْقُوبُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– دَلَالَةَ الرُّؤْيَا عَلَى أَنَّ يُوسُفَ يُبَلِّغُهُ اللَّهُ مَبْلَغًا مِنَ الْحِكْمَةِ، وَيَصْطَفِيهِ لِلنُّبُوَّةِ، وَيُنْعِمُ عَلَيْهِ بِشَرَفِ الدَّارِينَ، كَمَا فَعَلَ بِآبَائِهِ، فَخَافَ عَلَيْهِ حَسَدَ الْإِخْوَةِ وَبَغْيَهُمْ، وَالرُّؤْيَا بِمَعْنَى: الرُّؤْيَةِ، إِلَّا أَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِمَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَنَامِ دُونَ الْيَقَظَةِ، فَرَّقَ بَيْنَهُمَا بِحَرْفَيِ التَّأْنِيثِ، كَمَا قِيلَ: الْقُرْبَةُ وَالْقُرْبَى.

وَقُرِئَ: "رُوياكَ" بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ وَاوًا.

وَسَمِعَ الْكِسَائِيُّ: "رُيَّاكَ" وَ"رِيَّاكَ" بِالْإِدْغَامِ وَضَمِّ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، لِأَنَّ الْوَاوَ فِي تَقْدِيرِ الْهَمْزَةِ، فَلَا يَقْوَى إِدْغَامُهَا كَمَا لَمْ يَقْوَ الْإِدْغَامُ فِي قَوْلِهِمْ: "اتَّزَرَ": مِنَ الْإِزَارِ، وَ"اتَّجَرَ": مِنَ الْأَجْرِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿فَيَكِيدُوا﴾[1]: مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ: "أَنْ"، وَالْمَعْنَى: إِنْ قَصَصْتَهَا عَلَيْهِمْ كَادُوكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: فَيَكِيدُوكَ، كَمَا قِيلَ: فَكِيدُونِي؟

قُلْتُ: ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ، لِيُفِيدَ مَعْنَى فِعْلِ الْكَيْدِ، مَعَ إِفَادَةِ مَعْنَى الْفِعْلِ الْمُضَمَّنِ، فَيَكُونُ آكَدَ وَأَبْلَغَ فِي التَّخْوِيفِ، وَذَلِكَ نَحْوُ: فَيَحْتَالُوا لَكَ.

أَلَا تَرَى إِلَى تَأْكِيدِهِ بِالْمَصْدَرِ، ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2]: ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ لِمَا فَعَلَ بِآدَمَ وَحَوَّاءَ، وَلِقَوْلِهِ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[3]، فَهُوَ يُحْمَلُ عَلَى الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ وَكُلِّ شَرٍّ، لِيُوَرِّطَ مَنْ يَحْمِلُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى مِثْلِهِ؟

﴿وَكَذَلِكَ﴾[4]: وَمِثْلَ ذَلِكَ الِاجْتِبَاءِ.

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[5]، يَعْنِي: وَكَمَا اجْتَبَاكَ لِمِثْلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى شَرَفٍ وَعِزٍّ وَكِبْرِيَاءِ شَأْنٍ، كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ لِأُمُورٍ عِظَامٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾[6]: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي حُكْمِ التَّشْبِيهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَهُوَ يُعَلِّمُكَ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، وَالِاجْتِبَاءُ: الِاصْطِفَاءُ، افْتِعَالٌ مَنْ جَبَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا حَصَّلْتَهُ لِنَفْسِكَ، وَجَبَيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ: جَمَعْتُهُ، وَالْأَحَادِيثُ: الرُّؤْيَا، لِأَنَّ الرُّؤْيَا إِمَّا حَدِيثُ نَفْسٍ أَوْ مَلَكٍ أَوْ شَيْطَانٍ، وَتَأْوِيلُهَا عِبَارَتُهَا وَتَفْسِيرُهَا، وَكَانَ يُوسُفُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَعْبَرَ النَّاسِ لِلرُّؤْيَا، وَأَصَحَّهُمْ عِبَارَةً لَهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ: مَعَانِيَ كُتُبِ اللَّهِ وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا غَمُضَ وَاشْتَبَهَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَغْرَاضِهَا وَمَقَاصِدِهَا، يُفَسِّرُهَا لَهُمْ وَيَشْرَحُهَا وَيَدُلُّهُمْ عَلَى مُودَعَاتِ حِكَمِهَا، وَسُمِّيَتْ: أَحَادِيثَ، لِأَنَّهُ يُحَدَّثُ بِهَا عَنِ اللَّهِ وَرَسُلِهِ، فَيُقَالُ: قَالَ اللَّهُ، وَقَالَ الرَّسُولُ كَذَا وَكَذَا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَافُ، الآية **16**.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾[2]: وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ لِلْحَدِيثِ وَلَيْسَ بِجَمْعٍ أُحْدُوثَةٍ؟

وَمَعْنَى إِتْمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُ وَصَلَ لَهُمْ نِعْمَةَ الدُّنْيَا بِنِعْمَةِ الْآخِرَةِ، بِأَنْ جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ فِي الدُّنْيَا وَمُلُوكًا، وَنَقَلَهُمْ عَنْهَا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْجَنَّةِ.

وَقِيلَ: أَتَمَّهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ، وَالْإِنْجَاءِ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ ذَبْحِ الْوَلَدِ، وَعَلَى إِسْحَاقَ بِإِنْجَائِهِ مِنَ الذَّبْحِ، وَفِدَائِهِ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَبِإِخْرَاجِ يَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ مِنْ صُلْبِهِ، وَقِيلَ: عَلِمَ يَعْقُوبُ أَنَّ يُوسُفَ يَكُونُ نَبِيًّا وَإِخْوَتُهُ أَنْبِيَاءَ، اسْتِدْلَالًا بِضَوْءِ الْكَوَاكِبِ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾[3].

وَقِيلَ: لَمَّا بَلَغَتِ الرُّؤْيَا إِخْوَةَ يُوسُفَ حَسَدُوهُ، وَقَالُوا: مَا رَضِيَ أَنْ سَجَدَ لَهُ إِخْوَتُهُ حَتَّى سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ.

وَقِيلَ: كَانَ يَعْقُوبُ مُؤْثِرًا لَهُ بِزِيَادَةِ الْمَحَبَّةِ وَالشَّفَقَةِ، لِصِغَرِهِ، وَلِمَا يَرَى فِيهِ مِنَ الْمَخَايِلِ، وَكَانَ إِخْوَتُهُ يَحْسُدُونَهُ. فَلَمَّا رَأَى الرُّؤْيَا، ضَاعَفَ لَهُ الْمَحَبَّةَ، فَكَانَ يَضُمُّهُ كُلَّ سَاعَةٍ إِلَى صَدْرِهِ وَلَا يَصْبِرُ عَنْهُ، فَتَبَالَغَ فِيهِمُ الْحَسَدُ.

وَقِيلَ: لَمَّا قَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى يَعْقُوبَ، قَالَ: هَذَا أَمْرٌ مُشَتَّتٌ يَجْمَعُ اللَّهُ لَكَ بَعْدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ.

وَآلُ يَعْقُوبَ: أَهْلُهُ، وَهُمْ نَسْلُهُ وَغَيْرُهُمْ.

وَأَصْلُ آلٍ: أَهْلٌ، بِدَلِيلِ تَصْغِيرِهِ عَلَى أُهَيْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَنْ لَهُ خَطَرٌ، يُقَالُ: آلُ النَّبِيِّ، وَآلُ الْمَلِكِ، وَلَا يُقَالُ: آلُ الْحَائِكِ، وَلَا آلُ الْحَجَّامِ، وَلَكِنْ أَهْلُهُمَا.

وَأَرَادَ بِالْأَبَوَيْنِ: الْجَدَّ، وَأَبَا الْجَدِّ، لِأَنَّهُمَا فِي حُكْمِ الْأَبِ فِي الْأَصَالَةِ، وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُونَ: ابْنُ فُلَانٍ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فُلَانٍ عِدَّةٌ.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[4]: عَطْفُ بَيَانٍ لِأَبَوَيْكَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾[5]: يَعْلَمُ مَنْ يَحِقُّ لَهُ الِاجْتِبَاءُ.

---

[1] سورة الْمُرْسَلَاتُ، الآية 50.

[2] سورة الزُّمَرُ، الآية 23.

[3] سورة يُوسُفَ، الآية 6.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿حَكِيمٌ﴾[1]: لَا يُتِمُّ نِعْمَتَهُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]

﴿لَيُوسُفُ﴾[3]: اللَّامُ: لِلِابْتِدَاءِ، وَفِيهَا تَأْكِيدٌ وَتَحْقِيقٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ، أَرَادُوا أَنَّ زِيَادَةَ مَحَبَّتِهِ لَهُمَا أَمْرٌ ثَابِتٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ.

﴿وَأَخُوهُ﴾[4]: هُوَ: بِنْيَامِينُ، وَإِنَّمَا قَالُوا: أَخُوهُ، وَهُمْ جَمِيعًا إِخْوَتُهُ، لِأَنَّ أُمَّهُمَا كَانَتْ وَاحِدَةً.

وَقِيلَ: ﴿أَحَبُّ﴾[5]: فِي الِاثْنَيْنِ، لِأَنَّ "أَفْعَلَ مِنْ" لَا يُفَرَّقُ فِيهِ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَمَا فَوْقَهُ، وَلَا بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ إِذَا كَانَ مَعَهُ: "مِنْ"، وَلَا بُدَّ مِنَ الْفَرْقِ مَعَ لَامِ التَّعْرِيفِ، وَإِذَا أُضِيفَ جَازَ الْأَمْرَانِ.

وَالْوَاوُ فِي: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[6]: وَاوُ الْحَالِ، يَعْنِي: أَنَّهُ يُفَضِّلُهُمَا فِي الْمَحَبَّةِ عَلَيْنَا، وَهُمَا اثْنَانِ صَغِيرَانِ لَا كِفَايَةَ فِيهِمَا وَلَا مَنْفَعَةَ، وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ عَشَرَةُ رِجَالٍ كَفَأَةٌ نَقُومُ بِمَرَافِقِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِزِيَادَةِ الْمَحَبَّةِ مِنْهُمَا، لِفَضْلِنَا بِالْكَثْرَةِ وَالْمَنْفَعَةِ عَلَيْهِمَا.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[7]، أَيْ: فِي ذَهَابٍ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ فِي ذَلِكَ، وَالْعُصْبَةُ وَالْعِصَابَةُ: الْعَشْرَةُ فَصَاعِدًا.

وَقِيلَ: إِلَى الْأَرْبَعِينَ، سُمُّوا بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ تُعْصَبُ بِهِمُ الْأُمُورُ وَيَسْتَكْفُونَ النَّوَائِبَ.

وَرَوَى النَّزَالُ بْنُ سَبْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "وَنَحْنُ عُصْبَةً" بِالنَّصْبِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَنَحْنُ نَجْتَمِعُ عُصْبَةً.

وَعَنِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ: هَذَا كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ، إِنَّمَا الْعَامِرِيُّ: عَمَّتْهُ، أَيْ: يَتَعَهَّدُ عَمَّتَهُ.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1]

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾[2]: مِنْ جُمْلَةِ مَا حَكَى بَعْدَ قَوْلِهِ: "إِذْ قَالُوا"، كَأَنَّهُمْ أَطْبَقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ قَالَ: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾[3].

وَقِيلَ: الْآمِرُ بِالْقَتْلِ شَمْعُونُ، وَقِيلَ:دَانُ، وَالْبَاقُونَ: كَانُوا رَاضِينَ، فَجُعِلُوا آمِرِينَ.

﴿أَرْضًا﴾[4]: أَرْضًا مَنْكُورَةً، مَجْهُولَةً، بَعِيدَةً مِنَ الْعُمْرَانِ، وَهُوَ مَعْنَى تَنْكِيرِهَا وَإِخْلَائِهَا مِنَ الْوَصْفِ، وَلِإِبْهَامِهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ نُصِبَتْ نَصْبَ الظُّرُوفِ الْمُبْهَمَةِ.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[5]: يُقْبِلُ عَلَيْكُمْ إِقْبَالَةً وَاحِدَةً لَا يَلْتَفِتُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمُرَادُ: سَلَامَةُ مَحَبَّتِهِ لَهُمْ مِمَّنْ يُشَارِكُهُمْ فِيهَا وَيُنَازِعُهُمْ إِيَّاهَا، فَكَانَ ذِكْرُ الْوَجْهِ لِتَصْوِيرِ مَعْنَى إِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْوَجْهِ: الذَّاتُ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[6].

وَقِيلَ: "يَخْلُ لَكُمْ": يَفْرَغْ لَكُمْ مِنَ الشُّغْلِ بِيُوسُفَ.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾[7]: مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ، أَيْ: مِنْ بَعْدِ كِفَايَتِهِ بِالْقَتْلِ أَوِ التَّغْرِيبِ، أَوْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إِلَى مَصْدَرِ اقْتُلُوا أَوِ اطْرَحُوا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة الرَّحْمَنُ، الآية 27.

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1]: تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ مِمَّا جَنَيْتُمْ عَلَيْهِ، أَوْ يَصْلُحُ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَبِيكُمْ بِعُذْرٍ تُمَهِّدُونَهُ، أَوْ تَصْلُحُ دُنْيَاكُمْ وَتَنْتَظِمُ أُمُورُكُمْ بَعْدَهُ بِخُلُوِّ وَجْهِ أَبِيكُمْ.

وَ﴿تَكُونُواْ﴾[2]: إِمَّا مَجْزُومٌ عَطْفًا عَلَى ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾[3]، أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ: "أَنْ"، وَ"الْوَاوُ" بِمَعْنَى: مَعَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾[4].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[5]

﴿قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾[6]: هُوَ يَهُوذَا، وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ فِيهِ رَأْيًا، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ، قَالَ لَهُمْ: الْقَتْلُ عَظِيمٌ.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾[7]: وَهِيَ غَوْرُهُ وَمَا غَابَ مِنْهُ عَنْ عَيْنِ النَّاظِرِ وَأَظْلَمَ مِنْ أَسْفَلِهِ.

قَالَ الْمُنَخِّلُ:

وَإِنْ أَنَا يَوْمًا غَيَّبَتْنِي غَيَابَتِي... فَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

أَرَادَ غَيَابَةَ حُفْرَتِهِ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا.

وَقُرِئَ: "غَيَابَاتِ": عَلَى الْجَمْعِ، وَ"غَيَّابَاتِ" بِالتَّشْدِيدِ.

وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ: "غَيْبَةِ".

وَالْجُبُّ: الْبِئْرُ لَمْ تُطْوَ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَجُبُّ جَبًّا لَا غَيْرُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 42.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾[1]: يَأْخُذْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ بَعْضُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَقُرِئَ: "تَلْتَقِطْهُ" بِالتَّاءِ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ بَعْضَ السَّيَّارَةِ سَيَّارَةٌ، كَقَوْلِهِ:

..... كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وَمِنْهُ: ذَهَبَتْ بَعْضُ أَصَابِعِهِ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2]: إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَحْصُلُ بِهِ غَرَضُكُمْ، فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]

﴿مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا﴾[4]: قُرِئَ بِإِظْهَارِ النُّونَيْنِ، وَبِالْإِدْغَامِ بِإِشْمَامٍ وَبِغَيْرِ إِشْمَامٍ.

وَ"تِيمَنَّا" بِكَسْرِ التَّاءِ مَعَ الْإِدْغَامِ، وَالْمَعْنَى: لِمَ تَخَافُنَا عَلَيْهِ وَنَحْنُ نُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ وَنُحِبُّهُ وَنُشْفِقُ عَلَيْهِ؟ وَمَا وُجِدَ مِنَّا فِي بَابِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ النَّصِيحَةِ وَالْمِقَةِ، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ لَمَّا عَزَمُوا عَلَى كَيْدِ يُوسُفَ اسْتِنْزَالَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَعَادَتِهِ فِي حِفْظِهِ مِنْهُمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَحَسَّ مِنْهُمْ بِمَا أَوْجَبَ أَلَّا يَأْمَنَهُمْ عَلَيْهِ.

﴿يَرْتَعْ﴾[5]: يَتَّسِعْ فِي أَكْلِ الْفَوَاكِهِ وَغَيْرِهَا، وَأَصْلُ الرَّتَعَةِ: الْخِصْبُ وَالسَّعَةُ.

وَقُرِئَ: "نَرْتَعِ": مِنِ ارْتَعَى يَرْتَعِي.

وَقُرِئَ: "يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ" بِالْيَاءِ، وَيَرْتَعْ: مِنْ أَرْتَعَ مَاشِيَتَهُ.

وَقَرَأَ الْعَلَاءُ بْنُ سَيَابَةَ: " يَرْتَعِ" بِكَسْرِ الْعَيْنِ، وَ"يَلْعَبُ" بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَجَازَ لَهُمْ يَعْقُوبُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– اللَّعِبَ؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُلْتُ: كَانَ لَعِبُهُمُ الْاسْتِبَاقَ وَالِانْتِضَالَ، لِيَضْرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ لَا لِلَّهْوِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[1]، وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ لَعِبًا، لِأَنَّهُ فِي صُورَتِهِ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[2]

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾[3]: اللَّامُ: لَامُ الِابْتِدَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[4]، وَدُخُولُهَا أَحَدُ مَا ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ مِنْ سَبَبِي الْمُضَارَعَةِ، اعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ بِشَيْئَيْنِ:

–أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَهَابَهُمْ بِهِ وَمُفَارَقَتَهُ إِيَّاهُ مِمَّا يُحْزِنُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ سَاعَةً.

–وَالثَّانِي: خَوْفُهُ عَلَيْهِ مِنْ عَدْوَةِ الذِّئْبِ إِذَا غَفَلُوا عَنْهُ بِرَعْيِهِمْ وَلَعِبِهِمْ، أَوْ قَلَّ بِهِ اهْتِمَامُهُمْ وَلَمْ تَصْدُقْ بِحِفْظِهِ عِنَايَتُهُمْ.

وَقِيلَ: رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّ الذِّئْبَ قَدْ شَدَّ عَلَى يُوسُفَ، فَكَانَ يَحْذَرُهُ، فَمِنْ ثَمَّ قَالَ ذَلِكَ فَلَقَّنَهُمُ الْعِلَّةَ، وَفِي أَمْثَالِهِمْ: "الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ".

وَقُرِئَ: "الذِّئْبُ" بِالْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ وَبِالتَّخْفِيفِ، وَقِيلَ: اشْتِقَاقُهُ مَنْ "تَذَاءَبَتِ الرِّيحُ": إِذَا أَتَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[5]

الْقَسَمُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَاللَّهِ، ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[6]: وَاللَّامُ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية 17.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة النَّحْلُ، الآية 124.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[1]: جَوَابٌ لِلْقَسَمِ، مُجْزِئٌ عَنْ جَزَاءِ الشَّرْطِ.

وَالْوَاوُ فِي: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[2]: وَاوُ الْحَالِ، حَلَفُوا لَهُ: لَئِنْ كَانَ مَا خَافَهُ مِنْ خَطْفَةِ الذِّئْبِ أَخَاهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ –وَحَالُهُمْ أَنَّهُمْ عَشَرَةُ رِجَالٍ، بِمِثْلِهِمْ تُعْصَبُ الْأُمُورُ وَتُكْفَى الْخُطُوبُ– إِنَّهُمْ إِذًا لَقَوْمٌ خَاسِرُونَ، أَيْ: هَالِكُونَ ضَعْفًا وَخَوَرًا وَعَجْزًا، أَوْ مُسْتَحِقُّونَ أَنْ يَهْلَكُوا، لِأَنَّهُ لَا غِنَاءَ عِنْدَهُمْ وَلَا جَدْوَى فِي حَيَاتِهِمْ، أَوْ مُسْتَحِقُّونَ، لِأَنْ يُدْعَى عَلَيْهِمْ بِالْخَسَارَةِ وَالدَّمَارِ، وَأَنْ يُقَالَ: خَسَّرَهُمُ اللَّهُ، وَدَمَّرَهُمْ حِينَ أَكَلَ الذِّئْبُ بَعْضَهُمْ، وَهُمْ حَاضِرُونَ.

وَقِيلَ: إِنْ لَمْ نَقْدِرْ عَلَى حِفْظِ بَعْضِنَا، فَقَدْ هَلَكَتْ مَوَاشِينَا إِذًا وَخَسِرْنَاهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ بِعُذْرَيْنِ، فَلِمَ أَجَابُوا عَنْ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ؟

قُلْتُ: هُوَ الَّذِي كَانَ يَغِيظُهُمْ وَيُذِيقُهُمُ الْأَمَرَّيْنِ فَأَعَارُوهُ آذَانًا صُمًّا وَلَمْ يَعْبَؤُوا بِهِ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[3]

﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾[4]: مَفْعُولُ، ﴿أَجْمَعُوا﴾[5]: مِنْ قَوْلِكَ: أَجْمَعَ الْأَمْرَ وَأَزْمَعَهُ.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾[6]، وَقُرِئَ: "فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ".

وَقِيلَ: هُوَ بِئْرُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقِيلَ: بِأَرْضِ الْأُرْدُنِّ، وَقِيلَ: بَيْنَ مِصْرَ وَمَدْيَنَ، وَقِيلَ: عَلَى ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ مِنْ مَنْزِلِ يَعْقُوبَ.

وَجَوَابُ "لَمَّا" مَحْذُوفٌ، وَمَعْنَاهُ: فَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا مِنَ الْأَذَى، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا بَرَزُوا بِهِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ أَظْهَرُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَأَخَذُوا يَهِينُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ. وَكُلَّمَا اسْتَغَاثَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

لَمْ يُغِثْهُ إِلَّا بِالهانَةِ وَالضَّرْبِ، حَتَّى كَادُوا يَقْتُلُونَهُ، فَجَعَلَ يَصِيحُ: يَا أَبَتَاهُ، لَوْ تَعْلَمُ مَا يَصْنَعُ بِابْنِكَ أَوْلَادُ الْإِمَاءِ، فَقَالَ يَهُوذَا: أَمَا أَعْطَيْتُمُونِي مَوْثِقًا أَلَّا تَقْتُلُوهُ؟

فَلَمَّا أَرَادُوا إِلْقَاءَهُ فِي الْجُبِّ تَعَلَّقَ بِثِيَابِهِمْ فَنَزَعُوهَا مِنْ يَدِهِ، فَتَعَلَّقَ بِحَائِطِ الْبِئْرِ فَرَبَطُوا يَدَيْهِ وَنَزَعُوا قَمِيصَهُ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ، رُدُّوا عَلَيَّ قَمِيصِي أَتَوَارَى بِهِ، وَإِنَّمَا نَزَعُوهُ لِيُلَطِّخُوهُ بِالدَّمِ وَيَحْتَالُوا بِهِ عَلَى أَبِيهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: ادْعُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا تُؤْنِسْكَ، وَدَلَّوْهُ فِي الْبِئْرِ.

فَلَمَّا بَلَغَ نِصْفَهَا أَلْقَوْهُ لِيَمُوتَ، وَكَانَ فِي الْبِئْرِ مَاءٌ فَسَقَطَ فِيهِ، ثُمَّ أَوَى إِلَى صَخْرَةٍ فَقَامَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَبْكِي، فَنَادَوْهُ فَظَنَّ أَنَّهَا رَحْمَةٌ أَدْرَكَتْهُمْ، فَأَجَابَهُمْ فَأَرَادُوا أَنْ يَرْضَخُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فَمَنَعَهُمْ يَهُوذَا؛ وَكَانَ يَهُوذَا يَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ.

وَيُرْوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَجُرِّدَ عَنْ ثِيَابِهِ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ بِقَمِيصٍ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ، فَدَفَعَهُ إِبْرَاهِيمُ إِلَى إِسْحَاقَ، وَإِسْحَاقُ إِلَى يَعْقُوبَ، فَجَعَلَهُ يَعْقُوبُ فِي تَمِيمَةٍ عَلَّقَهَا فِي عُنُقِ يُوسُفَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَأَخْرَجَهُ وَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾[1]: قِيلَ: أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي الصِّغَرِ كَمَا أُوحِيَ إِلَى يَحْيَى وَعِيسَى.

وَقِيلَ: كَانَ إِذْ ذَاكَ مُدْرِكًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: كَانَ لَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾[2]: وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ لِيُؤْنَسَ فِي الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشَةِ، وَيُبَشَّرَ بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَمَعْنَاهُ: لِتَتَخَلَّصَنَّ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، وَلِتُحَدِّثَنَّ إِخْوَتَكَ بِمَا فَعَلُوا بِكَ، ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[3]: أَنَّكَ يُوسُفُ، لِعُلُوِّ شَأْنِكَ وَكِبْرِيَاءِ سُلْطَانِكَ، وَبُعْدِ حَالِكَ عَنْ أَوْهَامِهِمْ، وَلِطُولِ الْعَهْدِ الْمُبَدِّلِ لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ مُمْتَارِينَ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ، دَعَا بِالصُّوَاعِ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، ثُمَّ نَقَرَهُ فَطَنَّ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيُخْبِرُنِي هَذَا الْجَامُ أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ أَخٌ مِنْ أَبِيكُمْ يُقَالُ لَهُ: يُوسُفُ، وَكَانَ يُدْنِيهِ دُونَكُمْ، وَأَنَّكُمُ انْطَلَقْتُمْ بِهِ وَأَلْقَيْتُمُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ، وَقُلْتُمْ لِأَبِيكُمْ: أَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَبِعْتُمُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾[2]: عَلَى أَنَّا آنَسْنَاهُ بِالْوَحْيِ وَأَزَلْنَا عَنْ قَلْبِهِ الْوَحْشَةَ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ذَلِكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ مُرْهَقٌ مُسْتَوْحِشٌ لَا أَنِيسَ لَهُ، وَقُرِئَ: "لَنُنَبِّئَنَّهُمْ" بِالنُّونِ عَلَى أَنَّهُ وَعِيدٌ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[3]: مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾[4] لَا غَيْرُ.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[5]

وَعَنِ الْحَسَنِ: "عُشِيًّا": عَلَى تَصْغِيرِ عَشِيٍّ، يُقَالُ: لَقِيتُهُ عَشِيًّا وَعَشَيَانًا، وَأَصِيلًا وَأُصَيْلَانًا.

وَرَوَاهُ ابْنُ جِنِّيٍّ: "عُشًى" بِضَمِّ الْعَيْنِ وَالْقَصْرِ، وَقَالَ: "عَشْوًا" مِنَ الْبُكَاءِ.

وَرَوَى أَنَّ امْرَأَةً حَاكَمَتْ إِلَى شُرَيْحٍ فَبَكَتْ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ: يَا أَبَا أُمَيَّةَ، أَمَا تَرَاهَا تَبْكِي؟ فَقَالَ: قَدْ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَبْكُونَ وَهُمْ ظَلَمَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقْضِيَ إِلَّا بِمَا أُمِرَ أَنْ يَقْضِيَ بِهِ مِنَ السُّنَّةِ الْمُرْضِيَةِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ صَوْتَهُمْ فَزِعَ وَقَالَ: مَالَكُمْ يَا بَنِيَّ؟ هَلْ أَصَابَكُمْ فِي غَنَمِكُمْ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَمَا لَكُمْ وَأَيْنَ يُوسُفُ؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[6]، أَيْ: نَتَسَابَقُ، وَالِافْتِعَالُ وَالتَّفَاعُلُ يَشْتَرِكَانِ كَالِانْتِضَالِ وَالتَّنَاضُلِ، وَالِارْتِمَاءِ وَالتَّرَامِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالْمَعْنَى: نَتَسَابَقُ فِي الْعَدْوِ أَوْ فِي الرَّمْيِ، وَجَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: نَنْتَضِلُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[1]: بِمُصَدِّقٍ لَنَا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[2]: وَلَوْ كُنَّا عِنْدَكَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالثِّقَةِ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِكَ لِيُوسُفَ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ سَيِّئُ الظَّنِّ بِنَا، غَيْرُ وَاثِقٍ بِقَوْلِنَا؟!

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[3]

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[4]: ذِي كَذِبٍ، أَوْ وُصِفَ بِالْمَصْدَرِ مُبَالَغَةً، كَأَنَّهُ نَفْسُ الْكَذِبِ وَعَيْنُهُ، كَمَا يُقَالُ لِلْكَذَّابِ: هُوَ الْكَذِبُ بِعَيْنِهِ، وَالزُّورُ بِذَاتِهِ، وَنَحْوُهُ:

..... فَهُنَّ بِهِ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهِ بُخْلُ

وَقُرِئَ: "كَذِبًا" نَصْبًا عَلَى الْحَالِ، بِمَعْنَى: جَاؤُوا بِهِ كَاذِبِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ.

وَقَرَأَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: "كَدِبٍ" بِالدَّالِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ: كَدِرٍ.

وَقِيلَ: "طَرِيٍّ".

وَقَالَ ابْنُ جِنِّيٍّ: أَصْلُهُ مِنَ الْكَدَبِ، وَهُوَ الْفُوفُ الْبَيَاضِ الَّذِي يَخْرُجُ عَلَى أَظْفَارِ الْأَحْدَاثِ، كَأَنَّهُ دَمٌ قَدْ أَثَّرَ فِي قَمِيصِهِ.

رُوِيَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا سَخْلَةً وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا، وَزَلَّ عَنْهُمْ أَنْ يُمَزِّقُوهُ، وَرُوِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ يُوسُفَ، صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ الْقَمِيصُ؟ فَأَخَذَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ وَبَكَى حَتَّى خَضَّبَ وَجْهَهُ بِدَمِ الْقَمِيصِ، وَقَالَ: تَاللَّهِ، مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ذِئْبًا أَحْلَمَ مِنْ هَذَا، أَكَلَ ابْنِي وَلَمْ يُمَزِّقْ عَلَيْهِ قَمِيصَهُ.

وَقِيلَ: كَانَ فِي قَمِيصِ يُوسُفَ ثَلَاثُ آيَاتٍ: كَانَ دَلِيلًا لِيَعْقُوبَ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَأَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، وَدَلِيلًا عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ حِينَ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿عَلَى قَمِيصِهِ﴾[1] مَا مَحَلُّهُ؟

قُلْتُ: مَحَلُّهُ: النَّصْبُ عَلَى الظَّرْفِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَجَاءُوا فَوْقَ قَمِيصِهِ بِدَمٍ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَ عَلَى جِمَالِهِ بِأَحْمَالٍ .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مُتَقَدِّمَةً؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ حَالَ الْمَجْرُورِ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ.

﴿سَوَّلَتْ﴾[2]: سَهَّلَتْ مِنَ السَّوْلِ، وَهُوَ الِاسْتِرْخَاءُ، أَيْ: سَهَّلَتْ.

﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[3]: عَظِيمًا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنْ يُوسُفَ، وَهَوَّنَتْهُ فِي أَعْيُنِكُمْ، اسْتُدِلَّ عَلَى فِعْلِهِمْ بِهِ بِمَا كَانَ يَعْرِفُ مِنْ حَسَدِهِمْ وَبِسَلَامَةِ الْقَمِيصِ، أَوْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ قَصَدُوهُ.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[4]: خَبَرٌ أَوْ مُبْتَدَأٌ، لِكَوْنِهِ مَوْصُوفًا، أَيْ: فَأَمْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، أَوْ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أَمْثَلُ.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: "فَصَبْرًا جَمِيلًا"، وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ: "أَنَّهُ الَّذِي لَا شَكْوَى فِيهِ إِلَى الْخَلْقِ".

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[5]؟

وَقِيلَ: لَا أُعَايِشُكُمْ عَلَى كَآبَةِ الْوَجْهِ، بَلْ أَكُونُ لَكُمْ كَمَا كُنْتُ، وَقِيلَ: سَقَطَ حَاجِبَا يَعْقُوبَ عَلَى عَيْنَيْهِ، فَكَانَ يَرْفَعُهُمَا بِعِصَابَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: طُولُ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةُ الْأَحْزَانِ، فَأَوْحَى اللَّهُ -تَعَالَى- إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ، أَتَشْكُونِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، خَطِيئَةٌ، فَاغْفِرْهَا لِي.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[6]، أَيْ: أَسْتَعِينُهُ ﴿عَلَى﴾[7]: احْتِمَالِ، ﴿مَا تَصِفُونَ﴾[8]: مِنْ هَلَاكِ يُوسُفَ، وَالصَّبْرِ عَلَى الرُّزْءِ فِيهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية 86.

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[2]: رُفْقَةٌ تَسِيرُ مِنْ قِبَلِ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ إِلْقَاءِ يُوسُفَ فِي الْجُبِّ، فَأَخْطَئُوا الطَّرِيقَ فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُ، وَكَانَ الْجُبُّ فِي قَفْرَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ الْعُمْرَانِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِلرُّعَاةِ.

وَقِيلَ: كَانَ مَاؤُهَا مِلْحًا، فَعَذُبَ حِينَ أُلْقِيَ فِيهِ يُوسُفُ.

﴿فَأَرْسَلُوا﴾[3]: رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ ابْنُ ذُعْرٍ الْخُزَاعِيُّ، لِيَطْلُبَ لَهُمُ الْمَاءَ.

وَالْوَارِدُ: الَّذِي يَرِدُ الْمَاءَ لِيَسْتَقِيَ لِلْقَوْمِ.

﴿يَا بُشْرَى﴾: نَادَى الْبُشْرَى، كَأَنَّهُ يَقُولُ: تَعَالَيْ، فَهَذَا مِنْ آوِنَتِكِ.

وَقُرِئَ: "يَا بُشْرَايَ" عَلَى إِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ.

وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ: "يَا بُشْرِي" بِالْيَاءِ مَكَانَ الْأَلِفِ، جُعِلَتِ الْيَاءُ بِمَنْزِلَةِ الْكَسْرَةِ قَبْلَ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَهِيَ لُغَةٌ لِلْعَرَبِ مَشْهُورَةٌ سَمِعْتُ أَهْلَ السَّرَوَاتِ يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: يَا سَيِّدِي وَمَوْلِيِّ،

وَعَنْ نَافِعٍ: "يَا بُشْرَايْ" بِالسُّكُونِ، وَلَيْسَ بِالْوَجْهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ، إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ الْوَقْفَ.

وَقِيلَ: لَمَّا أَدْلَى دَلْوَهُ أَيْ: أَرْسَلَهَا فِي الْجُبِّ تَعَلَّقَ يُوسُفُ بِالْحَبَلِ، فَلَمَّا خَرَجَ، إِذَا هُوَ بِغُلَامٍ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، فَقَالَ: يَا بُشْرَايَ.

﴿هَذَا غُلَامٌ﴾[4]، وَقِيلَ: ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ أَصْحَابِهِ صَاحَ بِذَلِكَ يُبَشِّرُهُمْ بِهِ.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾[5]: الضَّمِيرُ لِلْوَارِدِ وَأَصْحَابِهِ: أَخْفَوْهُ مِنَ الرُّفْقَةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: أَخْفَوْا أَمْرَهُ وَوِجْدَانَهُمْ لَهُ فِي الْجُبِّ، وَقَالُوا لَهُمْ: دَفَعَهُ إِلَيْنَا أَهْلُ الْمَاءِ لِنَبِيعَهُ لَهُمْ بِمِصْرَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الضَّمِيرَ لِإِخْوَةِ يُوسُفَ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا لِلرُّفْقَةِ: هَذَا غُلَامٌ لَنَا قَدْ أَبَقَ فَاشْتَرُوهُ مِنَّا، وَسَكَتَ يُوسُفُ، مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلُوهُ.

وَ﴿بِضَاعَةً﴾[1]: نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: أَخْفَوْهُ مَتَاعًا لِلتِّجَارَةِ، وَالْبِضَاعَةُ: مَا بُضِعَ مِنَ الْمَالِ لِلتِّجَارَةِ، أَيْ: قُطِعَ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[2]: لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ إِسْرَارُهُمْ، وَهُوَ وَعِيدٌ لَهُمْ حَيْثُ اسْتَبْضَعُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ، أَوْ: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِأَبِيهِمْ وَأَخِيهِمْ مِنْ سُوءِ الصَّنِيعِ.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[3]

﴿وَشَرَوْهُ﴾[4]: وَبَاعُوهُ، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[5]: مَبْخُوسٍ نَاقِصٍ عَنِ الْقِيمَةِ نُقْصَانًا ظَاهِرًا، أَوْ زَيْفٍ نَاقِصِ الْعِيَارِ.

﴿دَرَاهِمَ﴾[6]: لَا دَنَانِيرَ، ﴿مَعْدُودَةٍ﴾[7]: قَلِيلَةٍ، تُعَدُّ عَدًّا، وَلَا تُوزَنُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزِنُونَ إِلَّا مَا بَلَغَ الْأُوقِيَّةَ، وَهِيَ الْأَرْبَعُونَ، وَيَعُدُّونَ مَا دُونَهَا، وَقِيلَ: لِلْقَلِيلَةِ مَعْدُودَةٌ، لِأَنَّ الْكَثِيرَةَ يَمْتَنِعُ مِنْ عَدِّهَا، لِكَثْرَتِهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ.

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة ، الآية .
3 سورة ، الآية .
4 سورة ، الآية .
5 سورة ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1]: مِمَّنْ يَرْغَبُ عَمَّا فِي يَدِهِ فَيَبِيعُهُ بِمَا طُفَّ مِنَ الثَّمَنِ لِأَنَّهُمُ الْتَقَطُوهُ، وَالْمُلْتَقِطُ لِلشَّيْءِ: مُتَهَاوِنٌ بِهِ لَا يُبَالِي بِمَا بَاعَهُ، وَلِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ مُسْتَحِقٌّ يَنْتَزِعُهُ مِنْ يَدِهِ فَيَبِيعَهُ مِنْ أَوَّلِ مُسَاوِمٍ بِأَوْكَسِ الثَّمَنِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى: "وَشَرَوْهُ": وَاشْتَرَوْهُ، يَعْنِي: الرُّفْقَةَ مِنْ إِخْوَتِهِ.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[2]، لِأَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ آبِقٌ، فَخَافُوا أَنْ يُخْطِرُوا بِمَالِهِمْ فِيهِ.

وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَتَهُ اتَّبَعُوهُمْ يَقُولُونَ لَهُمْ: اسْتَوْثِقُوا مِنْهُ لَا يَأْبَقُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهِ﴾[3]: لَيْسَ مِنْ صِلَةِ ﴿الزَّاهِدِينَ﴾[4]، لِأَنَّ الصِّلَةَ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَى الْمَوْصُولِ.

أَلَا تَرَاكَ لَا تَقُولُ: وَكَانُوا زَيْدًا مِنَ الضَّارِبِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ؟ كَأَنَّهُ قِيلَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهِدُوا؟ فَقَالَ: زَهِدُوا فِيهِ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[5]

﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾[6]: قِيلَ: هُوَ قِطْفِيرٌ أَوْ أَطْفِيرٌ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي كَانَ عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ، وَالْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ: الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ، رَجُلٌ مِنَ الْعَمَالِيقِ، وَقَدْ آمَنَ بِيُوسُفَ، وَمَاتَ فِي حَيَاةِ يُوسُفَ؛ فَمَلَكَ بَعْدَهُ قَابُوسُ بْنُ مُصْعَبٍ، فَدَعَاهُ يُوسُفُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَى؛ وَاشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ، وَهُوَ ابْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَقَامَ فِي مَنْزِلِهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَاسْتَوْزَرَهُ رَيَّانُ بْنُ الْوَلِيِّ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَآتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: كَانَ الْمَلِكُ فِي أَيَّامِهِ فِرْعَوْنَ مُوسَى، عَاشَ أَرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1].

وَقِيلَ: فِرْعَوْنُ مُوسَى مِنْ أَوْلَادِ فِرْعَوْنِ يُوسُفَ.

وَقِيلَ: اشْتَرَاهُ الْعَزِيزُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا وَزَوْجَيْ نَعْلٍ وَثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ.

وَقِيلَ: أَدْخَلُوهُ السُّوقَ يَعْرِضُونَهُ، فَتَرَافَعُوا فِي ثَمَنِهِ، حَتَّى بَلَغَ ثَمَنُهُ وَزْنُهُ مِسْكًا وَوَرِقًا وَحَرِيرًا، فَابْتَاعَهُ قِطْفِيرٌ بِذَلِكَ الْمَبْلَغِ.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[2]: اجْعَلِي مَنْزِلَهُ وَمَقَامَهُ عِنْدَنَا كَرِيمًا، أَيْ: حَسَنًا مَرْضِيًّا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[3] .

وَالْمُرَادُ: تَفَقَّدِيهِ بِالْإِحْسَانِ وَتَعَهَّدِيهِ بِحُسْنِ الْمَلَكَةِ، حَتَّى تَكُونَ نَفْسُهُ طَيِّبَةً فِي صُحْبَتِنَا، سَاكِنَةً فِي كَنَفِنَا.

وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: كَيْفَ أَبُو مَثْوَاكَ وَأُمُّ مَثْوَاكَ لِمَنْ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ، يُرَادُ: هَلْ تَطِيبُ نَفْسُكَ بِثَوَائِكَ عِنْدَهُ، وَهَلْ يُرَاعِي حَقَّ نُزُولِكَ بِهِ.

وَاللَّامُ فِي ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾[4] مُتَعَلِّقَةٌ يُقَالُ: لَا بِاشْتَرَاهُ.

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾[5]: لَعَلَّهُ إِذَا تَدَرَّبَ وَرَاضَ الْأُمُورَ وَفَهِمَ مَجَارِيَهَا، نَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى بَعْضِ مَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ، فَيَنْفَعُنَا فِيهِ بِكِفَايَتِهِ وَأَمَانَتِهِ، أَوْ نَتَبَنَّاهُ وَنُقِيمُهُ مَقَامَ الْوَلَدِ، وَكَانَ قِطْفِيرٌ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ، وَقَدْ تَفَرَّسَ فِيهِ الرُّشْدَ فَقَالَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ:

–الْعَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فِي يُوسُفَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾[6].

–وَالْمَرْأَةُ الَّتِي أَتَتْ مُوسَى، وَقَالَتْ لِأَبِيهَا: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾[7].

---

[1] سورة غَافِرٌ، الآية 34.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية 23.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية 23.

[7] سورة الْقَصَصُ، الآية 26.

-وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، وَرُوِيَ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِنَسَبِهِ فَعَرَفَهُ.

﴿وَكَذَلِكَ﴾[1]: الْإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِنْجَائِهِ، وَعَطْفِ قَلْبِ الْعَزِيزِ عَلَيْهِ.

وَالْكَافُ مَنْصُوبٌ تَقْدِيرُهُ: وَمِثْلَ ذَلِكَ الْإِنْجَاءِ وَالْعَطْفِ.

﴿مَكَّنَّا﴾[2]: لَهُ، أَيْ: كَمَا أَنْجَيْنَاهُ وَعَطَّفْنَا عَلَيْهِ الْعَزِيزَ، كَذَلِكَ مَكَّنَا لَهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَجَعَلْنَاهُ مَلِكًا يَتَصَرَّفُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[3]: كَانَ ذَلِكَ الْإِنْجَاءُ وَالتَّمْكِينُ، لِأَنَّ غَرَضَنَا لَيْسَ إِلَّا مَا تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾[4]: عَلَى أَمْرِ نَفْسِهِ: لَا يُمْنَعُ عَمَّا يَشَاءُ وَلَا يُنَازَعُ مَا يُرِيدُ وَيَقْضِي، أَوْ عَلَى أَمْرِ يُوسُفَ يُدَبِّرُهُ لَا يَكِلُهُ إِلَى غَيْرِهِ، قَدْ أَرَادَ إِخْوَتُهُ بِهِ مَا أَرَادُوا، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا أَرَادَ اللَّهُ وَدَبَّرَهُ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[5]: أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[6]

قِيلَ فِي الْأَشُدِّ: ثَمَانِي عَشْرَةَ، وَعِشْرُونَ، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ، وَأَرْبَعُونَ، وَقِيلَ: أَقْصَاهُ ثِنْتَانِ وَسِتُّونَ.

﴿حُكْمًا﴾[7]: حِكْمَةً، وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ وَاجْتِنَابُ مَا يُجْهَلُ فِيهِ، وَقِيلَ: حُكْمًا بَيْنَ النَّاسِ وَفِقْهًا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1]: تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ، مُتَّقِيًا فِي عُنْفُوَانِ أَمْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ آتَاهُ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: مَنْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ فِي شَيْبَتِهِ، آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي اكْتِهَالِهِ.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2]

الْمُرَاوَدَةُ: مُفَاعَلَةٌ، مِنْ رَادَ يَرُودُ إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ، كَأَنَّ الْمَعْنَى: خَادَعَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، أَيْ: فَعَلَتْ مَا يَفْعَلُ الْمُخَادِعُ لِصَاحِبِهِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ يَدِهِ، يَحْتَالُ أَنْ يَغْلِبَهُ عَلَيْهِ وَيَأْخُذَهُ مِنْهُ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحَمُّلِ لِمُوَاقَعَتِهِ إِيَّاهَا.

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾[3]: قِيلَ: كَانَتْ سَبْعَةً.

وَقُرِئَ: "هَيْتَ" بِفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا مَعَ فَتْحِ التَّاءِ، وَبِنَاؤُهَا كَبِنَاءِ أَيْنَ، وَعَيْطِ، وَهِيتِ كَحِيرٍ، وَهَيْتُ كَحَيْثُ، وَهِئْتُ بِمَعْنَى: تَهَيَّأْتُ، يُقَالُ: هَاءَ يَهِيءُ، كَجَاءَ تَجِيءُ: إِذَا تَهَيَّأَ، وَهُيِّئْتُ لَكَ، وَاللَّامُ مِنْ صِلَةِ الْفِعْلِ.

وَأَمَّا فِي الْأَصْوَاتِ فَلِلْبَيَانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَكَ أَقُولُ هَذَا، كَمَا تَقُولُ: هَلُمَّ لَكَ.

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾[4]: أَعُوذُ بِاللَّهِ مَعَاذًا.

﴿إِنَّهُ﴾[5]: إِنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ.

﴿رَبِّي﴾[6]: سَيِّدِي وَمَالِكِي، يُرِيدُ قِطْفِيرَ.

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[7]: حِينَ قَالَ لَكِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، فَمَا جَزَاؤُهُ أَنْ أَخْلُفَهُ فِي أَهْلِهِ سُوءَ الْخِلَافَةِ وَأَخُونَهُ فِيهِمْ.

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة يُوسُفَ، الآية .
3 سورة يُوسُفَ، الآية .
4 سورة يُوسُفَ، الآية .
5 سورة يُوسُفَ، الآية .
6 سورة ، الآية .
7 سورة ، الآية .

﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1]: الَّذِينَ يُجَازُونَ الْحَسَنَ بِالسَّيِّئِ.

وَقِيلَ: أَرَادَ الزُّنَاةَ، لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ أَنْفُسَهُمْ.

وَقِيلَ: أَرَادَ اللَّهَ -تَعَالَى-، لِأَنَّهُ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2]

هَمَّ بِالْأَمْرِ: إِذَا قَصَدَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ.

قَالَ:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِـــي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلائِلُهْ

وَمِنْهُ قَوْلُكَ: لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَا كَيْدًا وَلَا هَمًّا، أَيْ: وَلَا أَكَادُ أَنْ أَفْعَلَهُ كَيْدًا، وَلَا أَهُمُّ بِفِعْلِهِ هَمًّا.

حَكَاهُ سِيبَوَيْهِ، وَمِنْهُ: الْهُمَامُ، وَهُوَ الَّذِي إِذَا هَمَّ بِأَمْرٍ أَمْضَاهُ، وَلَمْ يُنَكِّلْ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾[3]، مَعْنَاهُ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِمُخَالَطَتِهِ.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[4]: وَهَمَّ بِمُخَالَطَتِهَا.

﴿لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[5]: جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَخَالَطَهَا، فَحَذَفَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[6] يَدُلُّ عَلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: هَمَمْتُ بِقَتْلِهِ لَوْلَا أَنِّي خِفْتُ اللَّهَ، مَعْنَاهُ: لَوْلَا أَنِّي خِفْتُ اللَّهَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ هَمٌّ بِالْمَعْصِيَةِ وَقَصْدٌ إِلَيْهَا؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ أَنَّ نَفْسَهُ مَالَتْ إِلَى الْمُخَالَطَةِ، وَنَازَعَتْ إِلَيْهَا عَنْ شَهْوَةِ الشَّبَابِ وَقَرَمِهِ، مَيْلًا يُشْبِهُ الْهَمَّ بِهِ وَالْقَصْدَ إِلَيْهِ، وَكَمَا تَقْتَضِيهِ صُورَةُ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي تَكَادُ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

تَذْهَبُ بِالْعُقُولِ وَالْعَزَائِمِ، وَهُوَ يَكْسِرُ مَا بِهِ وَيَرُدُّهُ بِالنَّظَرِ فِي بُرْهَانِ اللَّهِ الْمَأْخُوذِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مِنْ وُجُوبِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَيْلُ الشَّدِيدُ الْمُسَمَّى هَمًّا لِشِدَّتِهِ، لَمَا كَانَ صَاحِبُهُ مَمْدُوحًا عِنْدَ اللَّهِ بِالِامْتِنَاعِ، لِأَنَّ اسْتِعْظَامَ الصَّبْرِ عَلَى الِابْتِلَاءِ، عَلَى حَسَبِ عِظَمِ الِابْتِلَاءِ وَشِدَّتِهِ.

وَلَوْ كَانَ هَمُّهُ كَهَمِّهَا عَنْ عَزِيمَةٍ، لَمَا مَدَحَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[1]: وَشَارَفَ أَنْ يَهُمَّ بِهَا، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ: قَتَلْتُهُ لَوْ لَمْ أَخَفِ اللَّهَ، يُرِيدُ مُشَارَفَةَ الْقَتْلِ وَمُشَافَهَتَهُ، كَأَنَّهُ شَرَعَ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[2]: دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أَمْ هُوَ خَارِجٌ مِنْهُ؟

قُلْتُ: الْأَمْرَانِ جَائِزَانِ، وَمِنْ حَقِّ الْقَارِئِ إِذَا قَدَّرَ خُرُوجَهُ مِنْ حُكْمِ الْقَسَمِ وَجَعَلَهُ كَلَامًا بِرَأْسِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾[3]، وَيَبْتَدِئَ قَوْلَهُ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[4]، وَفِيهِ –أَيْضًا– إِشْعَارٌ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْهَمَّيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَعَلْتَ جَوَابَ ﴿لَوْلَا﴾[5] مَحْذُوفًا يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿هَمَّ بِهَا﴾، وَهَلَّا جَعَلْتَهُ هُوَ الْجَوَابَ مُقَدَّمًا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ ﴿لَوْلَا﴾[6] لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا جَوَابُهَا، مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ فِي حُكْمِ الشَّرْطِ، وَلِلشَّرْطِ صَدْرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ مَعَ مَا فِي حَيِّزِهِ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ مِثْلُ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ بَعْضِ الْكَلِمَةِ عَلَى بَعْضٍ. وَأَمَّا حَذْفُ بَعْضِهَا إِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، فَجَائِزٌ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَعَلْتَ ﴿لَوْلَا﴾[1] مُتَعَلِّقَةً بِـ ﴿هَمَّ بِهَا﴾[2] وَحْدَهُ، وَلَمْ تَجْعَلْهَا مُتَعَلِّقَةً بِجُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾[3]، لِأَنَّ الْهَمَّ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَاهِرِ وَلَكِنْ بِالْمَعَانِي؛ فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُخَالَطَةِ؛ وَالْمُخَالَطَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنِ اثْنَيْنِ مَعًا.

فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَقَدْ هَمَّا بِالْمُخَالَطَةِ لَوْلَا أَنْ مَنَعَ مَانِعٌ أَحَدَهُمَا؟

قُلْتُ: نِعْمَ مَا قُلْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قَدْ جَاءَ بِالْهَمَّيْنِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾[4]، فَكَانَ إِغْفَالُهُ إِلْغَاءً لَهُ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِمُخَالَطَتِهِ وَهَمَّ بِمُخَالَطَتِهَا، عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُخَالَطَتَيْنِ: تَوَصُّلُهَا إِلَى مَا هُوَ حَظُّهَا مِنْ قَضَاءِ شَهْوَتِهَا مِنْهُ، وَتَوَصُّلُهُ إِلَى مَا هُوَ حَظُّهُ مِنْ قَضَاءِ شَهْوَتِهِ مِنْهَا.

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[5]، فَتَرَكَ التَّوَصُّلَ إِلَى حَظِّهِ مِنَ الشَّهْوَةِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَتْ ﴿لَوْلَا﴾[6] حَقِيقَةً بِأَنْ تُعَلَّقَ بِـ ﴿هَمَّ بِهَا﴾[7] وَحْدَهُ، وَقَدْ فُسِّرَ هَمُّ يُوسُفَ بِأَنَّهُ حَلَّ الْهِمْيَانَ، وَجَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الْمُجَامِعِ، وَبِأَنَّهُ حَلَّ تِكَّةَ سَرَاوِيلِهِ وَقَعَدَ بَيْنَ شُعَبِهَا الْأَرْبَعِ، وَهِيَ مُسْتَلْقِيَةٌ عَلَى قَفَاهَا.

وَفُسِّرَ الْبُرْهَانُ بِأَنَّهُ سَمِعَ صَوْتًا: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا، فَلَمْ يَكْتَرِثْ لَهُ، فَسَمِعَهُ ثَانِيًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَسَمِعَ ثَالِثًا: أَعْرِضْ عَنْهَا، فَلَمْ يُنْجِعْ فِيهِ حَتَّى مُثِّلَ لَهُ يَعْقُوبُ عَاضًّا عَلَى أُنْمُلَتِهِ.

وَقِيلَ: ضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ، فَخَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَنَامِلِهِ، وَقِيلَ: كُلُّ وَلَدٍ يَعْقُوبَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا إِلَّا يُوسُفَ، فَإِنَّهُ وُلِدَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ وَلَدًا مِنْ أَجْلِ مَا نَقَصَ مِنْ شَهْوَتِهِ حِينَ هَمَّ.

وَقِيلَ: صِيحَ بِهِ: يَا يُوسُفُ، لَا تَكُنْ كَالطَّائِرِ: كَانَ لَهُ رِيشٌ، فَلَمَّا زَنَى قَعَدَ لَا رِيشَ لَهُ، وَقِيلَ: بَدَتْ كَفٌّ فِيمَا بَيْنَهُمَا لَيْسَ لَهَا عَضُدٌ وَلَا مِعْصَمٌ، مَكْتُوبٌ فِيهَا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[1]، فَلَمْ يَنْصَرِفْ، ثُمَّ رَأَى فِيهَا: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾[2]، فَلَمْ يَنْتَهِ، ثُمَّ رَأَى فِيهَا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[3]، فَلَمْ يُنْجِعْ فِيهِ؛ فَقَالَ اللَّهُ لِجِبْرِيلَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: أَدْرِكْ عَبْدِي قَبْلَ أَنْ يُصِيبَ الْخَطِيئَةَ، فَانْحَطَّ جِبْرِيلُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا يُوسُفُ، أَتُعْمَلُ عَمَلَ السُّفَهَاءِ وَأَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي دِيوَانِ الْأَنْبِيَاءِ؟

وَقِيلَ: رَأَى تِمْثَالَ الْعَزِيزِ.

وَقِيلَ: قَامَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى صَنَمٍ كَانَ هُنَاكَ، فَسَتَرَتْهُ وَقَالَتْ: أَسْتَحِي مِنْهُ أَنْ يَرَانَا، فَقَالَ يُوسُفُ: اسْتَحْيَيْتِ مِمَّنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا أَسْتَحْيِي مِنَ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ، الْعَلِيمِ بِذَوَاتِ الصُّدُورِ!

وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُورِدُهُ أَهْلُ الْحَشْوِ وَالْجَبْرِ الَّذِينَ دِينُهُمْ بَهْتُ اللَّهِ –تَعَالَى– وَأَنْبِيَائِهِ، وَأَهْلُ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ لَيْسُوا مِنْ مَقَالَاتِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمْ بِحَمْدِ اللَّهِ بِسَبِيلٍ؛ وَلَوْ وُجِدَتْ مِنْ يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَدْنَى زَلَّةٍ، لَنُعِيَتْ عَلَيْهِ، وَذُكِرَتْ تَوْبَتُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ، كَمَا نُعِيَتْ عَلَى آدَمَ زَلَّتُهُ، وَعَلَى دَاوُدَ، وَعَلَى نُوحٍ، وَعَلَى أَيُّوبَ، وَعَلَى ذِي النُّونِ، وَذُكِرَتْ تَوْبَتُهُمْ وَاسْتِغْفَارُهُمْ.

كَيْفَ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ، وَسَمَّى مُخْلَصًا؟! فَعُلِمَ بِالْقَطْعِ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الدَّحْضِ، وَأَنَّهُ جَاهَدَ نَفْسَهُ مُجَاهَدَةَ أُولِي الْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ، نَاظِرًا فِي دَلِيلِ التَّحْرِيمِ وَوَجْهِ الْقُبْحِ، حَتَّى اسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الثَّنَاءَ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، ثُمَّ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ حُجَّةٌ عَلَى سَائِرِ كُتُبِهِ وَمِصْدَاقٌ لَهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ إِلَّا عَلَى اسْتِيفَاءِ قِصَّتِهِ، وَضَرْبِ صُورَةٍ كَامِلَةٍ عَلَيْهَا، لِيَجْعَلَ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، كَمَا جَعَلَهُ لِجَدِّهِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، وَلِيَقْتَدِيَ بِهِ الصَّالِحُونَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ فِي الْعِفَّةِ وَطِيبِ الْإِزَارِ وَالتَّثَبُّتِ فِي مَوَاقِفِ الْعِثَارِ.

فَأَخْزَى اللَّهُ أُولَئِكَ فِي إِيرَادِهِمْ مَا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَكُونَ إِنْزَالُ اللَّهِ السُّورَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ لِيُقْتَدَى بِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فِي الْقُعُودِ بَيْنَ شُعَبِ الزَّانِيَةِ، وَفِي حَلِّ تِكَّتِهِ لِلْوُقُوعِ عَلَيْهَا، وَفِي أَنْ يَنْهَاهُ رَبُّهُ ثَلَاثَ كَرَّاتٍ، وَيُصَاحُ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ ثَلَاثَ صَيْحَاتٍ بِقَوَارِعِ الْقُرْآنِ، وَبِالتَّوْبِيخِ الْعَظِيمِ، وَبِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَبِالتَّشْبِيهِ بِالطَّائِرِ الَّذِي

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

سَقَطَ رِيشُهُ حِينَ سَفَدَ غَيْرَ أُنْثَاهُ، وَهُوَ جَاثِمٌ فِي مَرْبَضِهِ لَا يَتَحَلْحَلُ، وَلَا يَنْتَهِي، وَلَا يَنْتَبِهُ، حَتَّى يَتَدَارَكَهُ اللَّهُ بِجِبْرِيلَ وَبِإِجْبَارِهِ.

وَلَوْ أَنَّ أَوْقَحَ الزُّنَاةِ وَأَشْطَرَهُمْ وَأَحَدَّهُمْ حَدَقَةً وَأَصْلَحَهُمْ وَجْهًا لُقِيَ بِأَدْنَى مَا لُقِيَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ مِمَّا ذَكَرُوا، لَمَا بَقِيَ لَهُ عِرْقٌ يَنْبِضُ وَلَا عُضْوٌ يَتَحَرَّكُ، فَيَا لَهُ مِنْ مَذْهَبٍ مَا أَفْحَشَهُ، وَمِنْ ضَلَالٍ مَا أَبْيَنَهُ.

﴿كَذَلِكَ﴾[1]: الْكَافُ: مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ، أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ التَّثْبِيتِ ثَبَّتْنَاهُ، أَوْ مَرْفُوعُهُ، أَيْ: الْأَمْرُ مِثْلُ ذَلِكَ.

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾[2]: مِنْ خِيَانَةِ السَّيِّدِ.

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾[3]: مِنَ الزِّنَا.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[4]: الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَبِالْفَتْحِ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ بِأَنْ عَصَمَهُمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالسُّوءِ: مُقَدِّمَاتِ الْفَاحِشَةِ، مِنَ الْقُبْلَةِ وَالنَّظَرِ بِشَهْوَةٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾[5]: مَعْنَاهُ: بَعْضُ عِبَادِنَا، أَيْ: هُوَ مُخْلَصٌ مِنْ جُمْلَةِ الْمُخْلَصِينَ، أَوْ هُوَ نَاشِئٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾[6].

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[1]

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾[2]: وَتَسَابَقَا إِلَى الْبَابِ، عَلَى حَذْفِ الْجَارِّ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[3] عَلَى تَضْمِينِ: ﴿اسْتَبَقَا﴾[4] مَعْنَى: "ابْتَدَرَا"، نَفَرَ مِنْهَا يُوسُفُ، فَأَسْرَعَ يُرِيدُ الْبَابَ لِيَخْرُجَ، وَأَسْرَعَتْ وَرَاءَهُ لِتَمْنَعَهُ الْخُرُوجَ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَحَّدَ الْبَابَ، وَقَدْ جَمَعَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾[5]؟

قُلْتُ: أَرَادَ الْبَابَ الْبَرَانِيَّ الَّذِي هُوَ الْمَخْرَجُ مِنَ الدَّارِ وَالْمُخَلِّصُ مِنَ الْعَارِ، فَقَدْ رَوَى كَعْبٌ أَنَّهُ لَمَّا هَرَبَ يُوسُفُ، جَعَلَ فَرَاشَ الْقُفْلِ يَتَنَاثَرُ وَيَسْقُطُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْأَبْوَابِ.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾[6]: اجْتَذَبَتْهُ مِنْ خَلْفِهِ فَانْقَدَّ، أَيْ: انْشَقَّ حِينَ هَرَبَ مِنْهَا إِلَى الْبَابِ وَتَبِعَتْهُ تَمْنَعُهُ.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾[7]: وَصَادَفَا بَعْلَهَا وَهُوَ قِطْفِيرُ، تَقُولُ الْمَرْأَةُ لِبَعْلِهَا: سَيِّدِي.

وَقِيلَ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: سَيِّدُهُمَا، لِأَنَّ مِلْكَ يُوسُفَ لَمْ يَصِحَّ، فَلَمْ يَكُنْ سَيِّدًا لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، قِيلَ: أَلْفَيَاهُ مُقْبِلًا: يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ. وَقِيلَ: جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَمٍّ لِلْمَرْأَةِ، لَمَّا اطَّلَعَ مِنْهَا زَوْجُهَا عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ الْمُرِيبَةِ، وَهِيَ مُغْتَاظَةٌ عَلَى يُوسُفَ إِذْ لَمْ يُؤَاتِهَا، جَاءَتْ بِحِيلَةٍ جَمَعَتْ فِيهَا غَرَضَيْهَا، وَهُمَا:

– تَبْرِئَةُ سَاحَتِهَا عِنْدَ زَوْجِهَا مِنَ الرِّيبَةِ وَالْغَضَبِ عَلَى يُوسُفَ.

– وَتَخْوِيفُهُ طَمَعًا فِي أَنْ يُؤَاتِيَهَا، خِيفَةً مِنْهَا وَمِنْ مَكْرِهَا، وَكُرْهًا لَمَّا أَيِسَتْ مِنْ مُؤَاتَاتِهِ طَوْعًا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة الأَعْرَاف، الآية 15.

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهَا: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾[1]؟.

وَ﴿مَا﴾[2]: نَافِيَةٌ، أَيْ: لَيْسَ جَزَاؤُهُ إِلَّا السِّجْنُ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً، بِمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ إِلَّا السِّجْنُ، كَمَا تَقُولُ: مَنْ فِي الدَّارِ إِلَّا زَيْدٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ لَمْ تُصَرِّحْ فِي قَوْلِهَا بِذِكْرِ يُوسُفَ، وَإِنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوآ؟

قُلْتُ: قَصَدَتِ الْعُمُومَ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوآ فَحَقُّهُ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ يُعَذَّبَ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِيمَا قَصَدَتْهُ مِنْ تَخْوِيفِ يُوسُفَ.

وَقِيلَ: الْعَذَابُ الْأَلِيمُ: الضَّرْبُ بِالسِّيَاطِ، وَلَمَّا أَغْرَتْ بِهِ، وَعَرَّضَتْهُ لِلسَّجْنِ وَالْعَذَابِ، وَجَبَ عَلَيْهِ الدَّفْعُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾[3]، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَتَمَ عَلَيْهَا.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾[4]، قِيلَ: كَانَ ابْنَ عَمٍّ لَهَا، إِنَّمَا أَلْقَى اللَّهُ الشَّهَادَةَ عَلَى لِسَانِ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهَا، لِتَكُونَ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهَا، وَأَوْثَقَ لِبَرَاءَةِ يُوسُفَ، وَأَنْفَى لِلتُّهْمَةِ عَنْهُ.

وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي كَانَ جَالِسًا مَعَ زَوْجِهَا لَدَى الْبَابِ.

وَقِيلَ: كَانَ حَكِيمًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ وَيَسْتَشِيرُهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضَ أَهْلِهَا كَانَ فِي الدَّارِ، فَبَصُرَ بِهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ، فَأَغْضَبَهُ اللَّهُ لِيُوسُفَ بِالشَّهَادَةِ لَهُ وَالْقِيَامِ بِالْحَقِّ.

وَقِيلَ: كَانَ ابْنَ خَالٍ لَهَا صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَى".

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ قَوْلُهُ: شَهَادَةً، وَمَا هُوَ بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ؟

قُلْتُ: لَمَّا أَدَّى مُؤَدِّي الشَّهَادَةِ فِي أَنْ ثَبَتَ بِهِ قَوْلُ يُوسُفَ، وَبَطَلَ قَوْلُهَا سُمِّيَ شَهَادَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ كَيْفَ جَازَتْ حِكَايَتُهَا بَعْدَ فِعْلِ الشَّهَادَةِ؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية 32.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّهَا قَوْلٌ مِنَ الْقَوْلِ، أَوْ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَشَهِدَ شَاهِدٌ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ دَلَّ قَدُّ قَمِيصِهِ مِنْ دُبُرٍ عَلَى أَنَّهَا كَاذِبَةٌ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَبِعَتْهُ وَاجْتَبَذَتْ ثَوْبَهُ إِلَيْهَا فَقَدَّتْهُ، فَمِنْ أَيْنَ دَلَّ قَدُّهُ مِنْ قُبُلٍ عَلَى أَنَّهَا صَادِقَةٌ، وَأَنَّهُ كَانَ تَابِعَهَا؟

قُلْتُ: مِنْ وَجْهَيْنِ:

-أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ إِذَا كَانَ تَابِعَهَا، وَهِيَ دَافِعَتْهُ عَنْ نَفْسِهَا قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ قُدَّامِهِ بِالدَّفْعِ.

-وَالثَّانِي: أَنْ يُسْرِعَ خَلْفَهَا لِيَلْحَقَهَا فَيَتَعَثَّرَ فِي مَقَادِمِ قَمِيصِهِ فَيَشُقُّهُ.

وَقُرِئَ: "مِنْ قُبُلُ"، "وَمِنْ دُبُرُ": بِالضَّمِّ عَلَى مَذْهَبِ الْغَايَاتِ.

وَالْمَعْنَى: مِنْ قُبُلِ الْقَمِيصِ وَمِنْ دُبُرِهِ، وَأَمَّا التَّنْكِيرُ، فَمَعْنَاهُ: مِنْ جِهَةٍ يُقَالُ لَهَا: قُبُلٍ، وَمِنْ جِهَةٍ يُقَالُ لَهَا: دُبُرٍ.

وَعَنِ ابْنِ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَرَأَ: "مِنْ قُبُلَ"، وَ"مِنْ دُبُرَ" بِالْفَتْحِ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُمَا عَلَمَيْنِ لِلْجِهَتَيْنِ، فَمَنَعَهُمَا الصَّرْفَ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ، وَقُرِئَا بِسُكُونِ الْعَيْنِ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ الْجَمْعُ بَيْنَ ﴿إِنْ﴾[1] الَّذِي هُوَ لِلِاسْتِقْبَالِ وَبَيْنَ ﴿كَانَ﴾[2]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ، وَنَحْوُهُ كَقَوْلِكَ: إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ، فَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، لِمَنْ يَمْتَنُّ عَلَيْكَ بِإِحْسَانِهِ، تُرِيدُ: إِنْ تَمْنُنْ عَلَيَّ أَمْتَنَّ عَلَيْكَ.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾[3]، يَعْنِي: قِطْفِيرَ، وَعَلِمَ بَرَاءَةَ يُوسُفَ وَصِدْقَهُ وَكَذِبَهَا، ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾[4]: إِنَّ قَوْلَكِ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾[5]: أَوْ إِنَّ الْأَمْرَ، وَهُوَ طَمَعُهَا فِي يُوسُفَ.

﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾[6]: الْخِطَابُ لَهَا وَلِأُمَّتِهَا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَإِنَّمَا اسْتَعْظَمَ كَيْدَ النِّسَاءِ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الرِّجَالِ، إِلَّا أَنَّ النِّسَاءَ أَلْطَفُ كَيْدًا، وَأَنْفَذُ حِيلَةً، وَلَهُنَّ فِي ذَلِكَ نِيقَةٌ وَرِفْقٌ، وَبِذَلِكَ يَغْلِبْنَ الرِّجَالَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[1]، وَالْقُصْرَيَاتُ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَعَهُنَّ مَا لَيْسَ مَعَ غَيْرِهِنَّ مِنَ الْبَوَائِقِ.

وَعَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: أَنَا أَخَافُ مِنَ النِّسَاءِ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ مِنَ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ اللَّهَ – تَعَالَى– يَقُولُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2]، وَقَالَ لِلنِّسَاءِ: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[3].

﴿يُوسُفُ﴾[4]: حُذِفَ مِنْهُ حَرْفُ النِّدَاءِ، لِأَنَّهُ مُنَادًى قَرِيبٌ، مُفَاطِنٌ لِلْحَدِيثِ، وَفِيهِ تَقْرِيبٌ لَهُ، وَتَلْطِيفٌ لِمَحَلِّهِ.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[5]: الْأَمْرِ، وَاكْتُمْهُ، وَلَا تُحَدِّثْ بِهِ.

﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾[6] أَنْتِ، ﴿لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[7]: مِنْ جُمْلَةِ الْقَوْمِ الْمُتَعَمِّدِينَ لِلذَّنْبِ، يُقَالُ: خَطِئَ، إِذَا أَذْنَبَ مُتَعَمِّدًا.

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[8]: بِلَفْظِ التَّذْكِيرِ، تَغْلِيبًا لِلذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ، وَمَا كَانَ الْعَزِيزُ إِلَّا رَجُلًا حَلِيمًا، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

---

[1] سورة الْفَلَقُ، الآية 44.

[2] سورة النِّسَاءُ، الآية 76.

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1]

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾[2]: وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ وَكُنَّ خَمْسًا: امْرَأَةُ السَّاقِي، وَامْرَأَةُ الْخَبَّازِ، وَامْرَأَةُ صَاحِبِ الدَّوَابِّ، وَامْرَأَةُ صَاحِبِ السِّجْنِ، وَامْرَأَةُ الْحَاجِبِ.

وَالنِّسْوَةُ: اسْمٌ مُفْرَدٌ لِجَمْعِ الْمَرْأَةِ، وَتَأْنِيثُهُ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ كَتَأْنِيثِ اللَّمَّةِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَلْحَقْ فِعْلَهُ تَاءُ التَّأْنِيثِ، وَفِيهِ لُغَتَانِ: كَسْرُ النُّونِ وَضَمُّهَا.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾[3]: فِي مِصْرَ.

﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾[4]: يُرِدْنَ قِطْفِيرَ.

وَالْعَزِيزُ: الْمَلِكُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ.

﴿فَتَاهَا﴾: غُلَامَهَا، يُقَالُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، أَيْ: غُلَامِي وَجَارِيَتِي.

﴿شَغَفَهَا﴾[5]: خَرَقَ حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْفُؤَادِ، وَالشَّغَافُ: حِجَابُ الْقَلْبِ.

وَقِيلَ: جِلْدَةٌ رَقِيقَةٌ يُقَالُ لَهَا: لِسَانُ الْقَلْبِ.

قَالَ النَّابِغَةُ:

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ وَالِجُ... مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ

وَقُرِئَ: "شَعَفَهَا" بِالْعَيْنِ، مِنْ شَعِفَ الْبَعِيرُ إِذَا هَنَّأَهُ، فَأَحْرَقَهُ بِالْقَطِرَانِ.

قَالَ:

.....كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي

وَ﴿حُبًّا﴾[6]: نَصْبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]: فِي خَطَأٍ وَبُعْدٍ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ.

﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾[2]: بِاغْتِيَابِهِنَّ وَسُوءِ قَالَتِهِنَّ، وَقَوْلُهُنَّ: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ عَشِقْتَ عَبْدَهَا الْكَنْعَانِيَّ وَمَقَتَهَا. وَسُمِّيَ الِاغْتِيَابُ مَكْرًا، لِأَنَّهُ فِي خُفْيَةٍ وَحَالِي غِيبَةٍ، كَمَا يُخْفِي الْمَاكِرُ مَكْرَهُ.

وَقِيلَ: كَانَتِ اسْتَكْتَمَتْهُنَّ سِرَّهَا فَأَفْشَيْنَهُ عَلَيْهَا.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾[3]: دَعَتْهُنَّ.

قِيلَ: دَعَتْ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ الْخَمْسُ الْمَذْكُورَاتُ.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[4]: مَا يَتَّكِئْنَ عَلَيْهِ مِنْ نَمَارِقَ، قَصَدَتْ بِتِلْكَ الْهَيْئَةِ، وَهِيَ قُعُودُهُنَّ مُتَّكِئَاتٍ وَالسَّكَاكِينُ فِي أَيْدِيهِنَّ: أَنْ يُدْهَشْنَ وَيُبْهَتْنَ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وَيُشْغَلْنَ عَنْ نُفُوسِهِنَّ، فَتَقَعَ أَيْدِيهِنَّ عَلَى أَيْدِيهِنَّ فَيَقْطَعْنَهَا، لِأَنَّ الْمُتَّكِئَ إِذَا بُهِتَ لِشَيْءٍ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى يَدِهِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَقْصِدَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَكْرِ بِهِ وَبِهِنَّ، فَتَضَعَ الْخَنَاجِرَ فِي أَيْدِيهِنَّ لِيَقْطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، فَتُبَكِّتُهُنَّ بِالْحُجَّةِ، وَلِتُهَوِّلَ يُوسُفَ مِنْ مَكْرِهَا إِذَا خَرَجَ عَلَى أَرْبَعِينَ نِسْوَةً مُجْتَمِعَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ الْخَنَاجِرُ، وَتُوهِمُهُ أَنَّهُنَّ يَثِبْنَ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: ﴿مُتَّكَأً﴾[5]: مَجْلِسُ طَعَامٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّكِئُونَ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْحَدِيثِ كَعَادَةِ الْمُتْرَفِينَ، وَلِذَلِكَ: "نُهِيَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا"، وَآتَتْهُنَّ السَّكَاكِينَ لِيُعَالِجْنَ بِهَا مَا يَأْكُلْنَ.

وَقِيلَ: ﴿مُتَّكَأً﴾[6]: طَعَامًا، مِنْ قَوْلِكَ: اتَّكَأْنَا عِنْدَ فُلَانٍ: طَعِمْنَا، عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّ مَنْ دَعَوْتَهُ لِيَطْعَمَ عِنْدَكَ، اتَّخَذْتَ لَهُ تُكَأَةً يَتَّكِئُ عَلَيْهَا.

قَالَ جَمِيلٌ:

فَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا... وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَلِهْ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مُتَّكَأً﴾[1]: طَعَامًا يُحَزُّ حَزًّا، كَأَنَّ الْمَعْنَى يَعْتَمِدُ بِالسِّكِّينِ، لِأَنَّ الْقَاطِعَ يَتَّكِئُ عَلَى الْمَقْطُوعِ بِالسِّكِّينِ.

وَقُرِئَ: "مُتْكًا" بِغَيْرِ هَمْزٍ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "مُتْكَاءَ" بِالْمَدِّ، كَأَنَّهُ مُفْتَعَالَ، وَذَلِكَ لِإِشْبَاعِ فَتْحَةِ الْكَافِ، كَقَوْلِهِ:

....بِمُنْتَزَاحِ

بِمَعْنَى: بِمُنْتَزِحٍ، وَنَحْوُهُ:

يَنْبَاعُ ....

بِمَعْنَى: يَنْبُعُ، وَقُرِئَ: "مُتْكًا": وَهُوَ الْأُتْرُجُّ، وَأَنْشَدَ:

فَأَهْدَتْ مَتْكَةً لِبَنِي أَبِيهَا... تَخُبُّ بِهَا الْعَثْمَثَمَةُ الْوَقَاحُ

وَكَانَتْ أَهْدَتْ أُتْرُجَّةً عَلَى نَاقَةٍ، وَكَأَنَّهَا الْأُتْرُجَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ أَنَّهَا شُقَّتْ بِنِصْفَيْنِ، وَحُمِلَا كَالْعِدْلَيْنِ عَلَى جَمَلٍ، وَقِيلَ: الزَّمَاوَرْدُ.

وَعَنْ وَهْبٍ: أُتْرُجًّا وَمَوْزًا وَبِطِّيخًا، وَقِيلَ: أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَا يُقْطَعُ، مِنْ مَتَكَ الشَّيْءَ بِمَعْنَى: بَتَكَهُ إِذَا قَطَعَهُ.

وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ: ﴿مُتْكَأً﴾[2]: مُفْعَلًا، مِنْ تَكِئَ يَتَّكِأُ، إِذَا اتَّكَأَ.

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾[3]: أَعْظَمْنَهُ، وَهَبْنَ ذَلِكَ الْحُسْنَ الرَّائِعَ، وَالْجَمَالَ الْفَائِقَ.

قِيلَ: كَانَ فَضْلُ يُوسُفَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحُسْنِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى نُجُومِ السَّمَاءِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَرَرْتُ بِيُوسُفَ اللَّيْلَةَ الَّتِي عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: يُوسُفُ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ".

وَقِيلَ: كَانَ يُوسُفُ إِذَا سَارَ فِي أَزِقَّةِ مِصْرَ يُرَى تَلَأْلُؤُ وَجْهِهِ عَلَى الْجُدْرَانِ، كَمَا يُرَى نُورُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَاءِ عَلَيْهَا، وَقِيلَ: مَا كَانَ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ وَصْفَ يُوسُفَ، وَقِيلَ: كَانَ يُشْبِهُ آدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ رَبُّهُ، وَقِيلَ: وَرِثَ الْجَمَالَ مِنْ جَدَّتِهِ سَارَّةَ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: أَكْبَرْنَ بِمَعْنَى: حِضْنُ، وَالْهَاءُ: لِلسَّكْتِ، يُقَالُ: أَكْبَرَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا حَاضَتْ، وَحَقِيقَتُهُ: دَخَلَتْ فِي الْكِبَرِ، لِأَنَّهَا بِالْحَيْضِ تَخْرُجُ مِنْ حَدِّ الصِّغَرِ إِلَى حَدِّ الْكِبَرِ، وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ أَخَذَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ قَوْلَهُ:

خَفِ اللَّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالَ بِبُرْقُـــــعِ فَإِنْ لُحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[1]: جَرَحْنَهَا، كَمَا تَقُولُ: كُنْتُ أُقَطِّعُ اللَّحْمَ فَقَطَعْتُ يَدِي، تُرِيدُ: جَرَحْتُهَا.

(حَاشَا): كَلِمَةٌ تُفِيدُ مَعْنَى التَّنْزِيهِ فِي بَابِ الِاسْتِثْنَاءِ، تَقُولُ: أَسَاءَ الْقَوْمُ حَاشَا زَيْدٍ.

قَالَ:

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ. ....

[قَالَ:]

..... بِهِ... ضَنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّتْمِ

وَهِيَ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْجَرِّ، فَوُضِعَتْ مَوْضِعَ التَّنْزِيهِ وَالْبَرَاءَةِ، فَمَعْنَى: (حَاشَا اللَّهِ): بَرَاءَةُ اللَّهِ وَتَنْزِيهُ اللَّهِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَلَى إِضَافَةِ حَاشَا إِلَى اللَّهِ إِضَافَةَ الْبَرَاءَةِ.

وَمَنْ قَرَأَ: "حَاشَا لِلَّهِ"، فَنَحْوُ قَوْلِكَ: سَقْيًا لَكَ، كَأَنَّهُ قَالَ: بَرَاءَةً، ثُمَّ قَالَ: لِلَّهِ، لِبَيَانِ مَنْ يُبَرَّأُ وَيُنَزَّهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى تَنْزِيلِ "حَاشَا": مَنْزِلَةَ الْمَصْدَرِ: قِرَاءَةُ أَبِي السَّمَّالِ: "حَاشًا لِلَّهِ" بِالتَّنْوِينِ.

وَقِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو: "حَاشَ لِلَّهِ" بِحَذْفِ الْأَلِفِ الْآخِرَةِ.

وَقِرَاءَةُ الْأَعْمَشِ: "حَشَا لِلَّهِ" بِحَذْفِ الْأَلِفِ الْأُولَى.

وَقُرِئَ: "حَاشْ لِلَّهِ" بِسُكُونِ الشِّينِ، عَلَى أَنَّ الْفَتْحَةَ تَبِعَتِ الْأَلِفَ فِي الْإِسْقَاطِ، وَهِيَ: ضَعِيفَةٌ لِمَا فِيهَا مِنِ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ.

وَقُرِئَ: "حَاشَا الْإِلَهِ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَازَ فِي حَاشَا لِلَّهِ أَنْ لَا يُنَوَّنَ بَعْدَ إِجْرَائِهِ مَجْرَى: بَرَاءَةً لِلَّهِ؟

قُلْتُ: مُرَاعَاةً لِأَصْلِهِ الَّذِي هُوَ الْحَرْفِيَّةُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: جَلَسْتُ مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، كَيْفَ تَرَكُوا "عَنْ" غَيْرَ مُعْرَبٍ عَلَى أَصْلِهِ؟

وَعَلَى قَوْلِهِ:

غَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ ....

مُنْقَلِبَ الْأَلْفِ إِلَى الْيَاءِ مَعَ الضَّمِيرِ؟

وَالْمَعْنَى: تَنْزِيهُ اللَّهِ –تَعَالَى– مِنْ صِفَاتِ الْعَجْزِ، وَالتَّعَجُّبُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ جَمِيلٍ مِثْلِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾[1]: فَالتَّعَجُّبُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ جَمِيلٍ مِثْلِهِ.

﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾[2]: نَفَيْنَ عَنْهُ الْبَشَرِيَّةَ لِغَرَابَةِ جَمَالِهِ وَمُبَاعَدَةِ حُسْنِهِ، لِمَا عَلَيْهِ مَحَاسِنُ الصُّوَرِ، وَأَثْبَتْنَ لَهُ الْمَلَكِيَّةَ وَبَتَتْنَ بِهَا الْحُكْمَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– رَكَّزَ فِي الطِّبَاعِ أَنْ لَا أَحْسَنَ مِنَ الْمَلَكِ، كَمَا رَكَّزَ فِيهَا أَنْ لَا أَقْبَحَ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَلِذَلِكَ يُشَبَّهُ كُلُّ مُتَنَاهٍ فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ بِهِمَا.

وَمَا رَكَّزَ ذَلِكَ فِيهَا إِلَّا لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ كَذَلِكَ، كَمَا رَكَّزَ فِي الطِّبَاعِ أَلَّا أَدْخَلَ فِي الشَّرِّ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَلَا أَجْمَعَ لِلْخَيْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا مَا عَلَيْهِ الْفِئَةُ الْخَاسِئَةُ الْمُجْبِرَةُ مِنْ تَفْضِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْمَلَكِ، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ تَعْكِيسِهِمْ لِلْحَقَائِقِ، وَجُحُودِهِمْ لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ، وَمُكَابَرَتِهِمْ فِي كُلِّ بَابٍ.

وَإِعْمَالُ ﴿مَا﴾[3] عَمَلَ: "لَيْسَ" هِيَ اللُّغَةُ الْقُدْمَى الْحِجَازِيَّةُ، وَبِهَا وَرَدَ الْقُرْآنُ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾[4].

وَمَنْ قَرَأَ عَلَى سَلِيقَتِهِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قَرَأَ: "بَشَرٌ" بِالرَّفْعِ، وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَقُرِئَ: "مَا هَذَا بِشِرًى"، أَيْ: مَا هُوَ بِعَبْدٍ مَمْلُوكٍ لَئِيمٍ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة الْمُجَادَلَةُ، الآية 2.

﴿إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]، تَقُولُ: هَذَا بِشرَى، أَيْ: حَاصِلٌ بِشرَى، بِمَعْنَى: هَذَا بِشرَى، وَتَقُولُ: هَذَا لَكَ بِشرِيٍّ أَمْ بِكرِيٍّ؟

وَالْقِرَاءَةُ: هِيَ الْأُولَى، لِمُوَافَقَتِهَا الْمُصْحَفَ، وَمُطَابَقَةِ بَشَرٍ لِمَلَكٍ.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾[2]: وَلَمْ تَقُلْ: فَهَذَا وَهُوَ حَاضِرٌ، رَفْعًا لِمَنْزِلَتِهِ فِي الْحُسْنِ، وَاسْتِحْقَاقِ أَنْ يُحَبَّ وَيُفْتَتَنَ بِهِ، وَرَبْئًا بِحَالِهِ وَاسْتِبْعَادًا لِمَحَلِّهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى الْمَعْنَى بِقَوْلِهِنَّ: عَشِقَتْ عَبْدَهَا الْكَنْعَانِيَّ، تَقُولُ: هُوَ ذَلِكَ الْعَبْدُ الْكَنْعَانِيُّ الَّذِي صَوَّرْتُنَّ فِي أَنْفُسِكُنَّ، ثُمَّ لُمْتُنَّنِي فِيهِ، تَعْنِي: أَنَّكُنَّ لَمْ تُصَوِّرْنَهُ بِحَقِّ صُورَتِهِ، وَلَوْ صَوَّرْتُنَّهُ بِمَا عَايَنْتُنَّ لَعَذَرْتُنَّنِي فِي الِافْتِتَانِ بِهِ.

الِاسْتِعْصَامُ: بِنَاءُ مُبَالَغَةٍ يَدُلُّ عَلَى الِامْتِنَاعِ الْبَلِيغِ، وَالتَّحَفُّظِ الشَّدِيدِ، كَأَنَّهُ فِي عِصْمَةٍ، وَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي الِاسْتِزَادَةِ مِنْهَا، وَنَحْوُهُ: اسْتَمْسَكَ وَاسْتَوْسَعَ الْفَتْقُ، وَاسْتَجْمَعَ الرَّأْيُ، وَاسْتَفْحَلَ الْخُطَبُ.

وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا كَانَ مِنْ يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَبُرْهَانٌ لَا شَيْءَ أَنْوَرُ مِنْهُ، عَلَى أَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّا أَضَافَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْحَشْوِ مِمَّا فَسَّرُوا بِهِ الْهَمَّ وَالْبُرْهَانَ.

فَإِنْ قُلْتَ: الضَّمِيرُ فِي: ﴿آمُرُهُ﴾[3]: رَاجِعٌ إِلَى الْمَوْصُولِ، أَمْ إِلَى يُوسُفَ؟

قُلْتُ: بَلْ إِلَى الْمَوْصُولِ، وَالْمَعْنَى: مَا آمُرُ بِهِ، فَحُذِفَ الْجَارُّ كَمَا فِي قَوْلِكَ: أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ ﴿مَا﴾[4]: مَصْدَرِيَّةً، فَيَرْجِعَ إِلَى يُوسُفَ، وَمَعْنَاهُ: وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ أَمْرِي إِيَّاهُ، أَيْ: مُوجِبَ أَمْرِي وَمُقْتَضَاهُ.

قُرِئَ: "وَلَيَكُونًا" بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، وَالتَّخْفِيفُ أَوْلَى، لِأَنَّ النُّونَ كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ أَلِفًا عَلَى حُكْمِ الْوَقْفِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَفِيفَةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]

﴿السَّجْنُ﴾[2]: بِالْفَتْحِ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَقَالَ: ﴿يَدْعُونَنِي﴾[3]: عَلَى إِسْنَادِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِنَّ جَمِيعًا، لِأَنَّهُنَّ تَنَصَّحْنَ لَهُ وَزَيَّنَّ لَهُ مُطَاوَعَتَهَا، وَقُلْنَ لَهُ: إِيَّاكَ وَإِلْقَاءَ نَفْسِكَ فِي السِّجْنِ وَالصَّغَارَ، فَالْتَجَأَ إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: "رَبِّ، نُزُولُ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رُكُوبِ الْمَعْصِيَةِ".

فَإِنْ قُلْتَ: نُزُولُ السِّجْنِ مَشَقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدَةٌ، وَمَا دَعَوْنَهُ إِلَيْهِ لَذَّةٌ عَظِيمَةٌ، فَكَيْفَ كَانَتِ الْمَشَقَّةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّذَّةِ؟

قُلْتُ: كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَآثَرَ عِنْدَهُ، نَظَرًا فِي حُسْنِ الصَّبْرِ عَلَى احْتِمَالِهَا لِوَجْهِ اللَّهِ، وَفِي قُبْحِ الْمَعْصِيَةِ، وَفِي عَاقِبَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، لَا نَظَرًا فِي مُشْتَهَى النَّفْسِ وَمَكْرُوهِهَا.

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾[4]: فَزَعٌ مِنْهُ إِلَى أَلْطَافِ اللَّهِ وَعِصْمَتِهِ، كَعَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَوَطَّنَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ مِنَ الصَّبْرِ، لَا أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الْإِجْبَارَ عَلَى التَّعَفُّفِ وَالْإِلْجَاءِ إِلَيْهِ.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾[5]: أَمِلْ إِلَيْهِنَّ، وَالصَّبْوَةُ: الْمَيْلُ إِلَى الْهَوَى، وَمِنْهَا: الصَّبَا، لِأَنَّ النُّفُوسَ تَصْبُو إِلَيْهَا لِطِيبِ نَسِيمِهَا وَرَوْحِهَا.

وَقُرِئَ: "أُصْبِ إِلَيْهِنَّ" مِنَ الصَّبَابَةِ.

﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[6]: مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، لِأَنَّ مَنْ لَا جَدْوَى لِعِلْمِهِ فَهُوَ وَمَنْ لَا يَعْلَمُ سَوَاءٌ، أَوْ مِنَ السُّفَهَاءِ، لِأَنَّ الْحَكِيمَ لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ الِاسْتِجَابَةَ وَلَمْ يَتَقَدَّمِ الدُّعَاءُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي﴾[1]: فِيهِ مَعْنَى طَلَبِ الصَّرْفِ وَالدُّعَاءِ بِاللُّطْفِ.

﴿السَّمِيعُ﴾[2]: لِدَعَوَاتِ الْمُلْتَجِئِينَ إِلَيْهِ.

﴿الْعَلِيمُ﴾[3]: بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[4]

﴿بَدَا لَهُمْ﴾[5]: فَاعِلُهُ مُضْمَرٌ، لِدَلَالَةِ مَا يُفَسِّرُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ: "لِيَسْجُنُنَّهُ"، وَالْمَعْنَى: بَدَا لَهُمْ بَدَاءٌ، أَيْ: ظَهَرَ لَهُمْ رَأْيٌ لِيَسْجُنُنَّهُ.

وَالضَّمِيرُ فِي "لَهُمْ": لِلْعَزِيزِ وَأَهْلِهِ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾[6]: وَهِيَ الشَّوَاهِدُ عَلَى بَرَاءَتِهِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا بِاسْتِنْزَالِ الْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا، وَفَتْلِهَا مِنْهُ فِي الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ، وَكَانَ مِطْوَاعَةً لَهَا وَجَمِيلًا ذَلُولًا زِمَامُهُ فِي يَدِهَا، حَتَّى أَنْسَاهُ ذَلِكَ مَا عَايَنَ مِنَ الْآيَاتِ وَعَمِلَ بِرَأْيِهَا فِي سِجْنِهِ، وَإِلْحَاقِ الصَّغَارِ بِهِ كَمَا أَوْعَدَتْهُ بِهِ، وَذَلِكَ لَمَّا أَيِسَتْ مِنْ طَاعَتِهِ لَهَا، أَوْ لِطَمَعِهَا فِي أَنْ يُذَلِّلَهُ السِّجْنُ وَيُسَخِّرَهُ لَهَا.

وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: "لَتَسْجُنَنَّهُ" بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ: خَاطَبَ بِهِ بَعْضُهُمُ الْعَزِيزَ وَمَنْ يَلِيهِ، أَوِ الْعَزِيزَ وَحْدَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ.

﴿حَتَّى حِينٍ﴾[7]: إِلَى زَمَانٍ، كَأَنَّهَا اقْتَرَحَتْ أَنْ يُسْجَنَ زَمَانًا حَتَّى تُبْصِرَ مَا يَكُونُ مِنْهُ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "عَتَّى حِينٍ"، وَهِيَ لُغَةُ هُذَيْلٍ.

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة يُوسُفَ، الآية .
3 سورة يُوسُفَ، الآية .
4 سورة يُوسُفَ، الآية .
5 سورة يُوسُفَ، الآية .
6 سورة يُوسُفَ، الآية .
7 سورة يُوسُفَ، الآية .

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: "عَتَّى حِينٍ"، فَقَالَ: مَنْ أَقْرَأَكَ؟ قَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: "إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ فَجَعَلَهُ عَرَبِيًّا وَأَنْزَلَهُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، فَأَقْرِئِ النَّاسَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ وَلَا تُقْرِئْهُمْ بِلُغَةِ هُذَيْلٍ، وَالسَّلَامُ".

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]

(مَّعَ): يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الصُّحْبَةِ وَاسْتِحْدَاثِهَا، تَقُولُ: خَرَجْتُ مَعَ الْأَمِيرِ، تُرِيدُ: مُصَاحِبًا لَهُ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ دُخُولُهُمَا السِّجْنَ مُصَاحِبَيْنِ لَهُ.

﴿فَتَيَانِ﴾[2]: عَبْدَانِ لِلْمَلِكِ: خَبَّازُهُ وَشَرَابِيِّهِ: رَقِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا يَسُمَّانِهِ، فَأَمَرَ بِهِمَا إِلَى السِّجْنِ، فَأُدْخِلَا سَاعَةَ أُدْخِلَ يُوسُفُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–.

﴿إِنِّي أَرَانِي﴾[3]، يَعْنِي: فِي الْمَنَامِ، وَهِيَ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ، ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[4]: يَعْنِي عِنَبًا، تَسْمِيَةً لِلْعِنَبِ بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْخَمْرُ –بِلُغَةِ عَمَّانَ–: اسْمٌ لِلْعِنَبِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "أَعْصِرُ عِنَبًا".

﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5]: مِنَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ عِبَارَةَ الرُّؤْيَا، أَيْ: يُجِيدُونَهَا، رَأَيَاهُ يَقُصُّ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ السِّجْنِ رُؤْيَاهُ فَيُؤَوِّلُهَا لَهُ، فَقَالَا لَهُ ذَلِكَ، أَوْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّهُمَا سَمِعَاهُ يَذْكُرُ لِلنَّاسِ مَا عَلِمَا بِهِ أَنَّهُ عَالِمٌ، أَوْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ إِلَى أَهْلِ السِّجْنِ، فَأَحْسِنْ إِلَيْنَا بِأَنْ تُفَرِّجَ عَنَّا الْغُمَّةَ بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْنَا إِنْ كَانَتْ لَكَ يَدٌ فِي تَأْوِيلِ الرُّؤْيَ.

رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرِضَ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَامَ عَلَيْهِ، وَإِذَا أَضَاقَ وَسَّعَ لَهُ، وَإِذَا احْتَاجَ جَمَعَ لَهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَعَنْ قَتَادَةَ: كَانَ فِي السِّجْنِ نَاسٌ قَدِ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَطَالَ حُزْنُهُمْ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَبْشِرُوا، اصْبِرُوا تُؤْجَرُوا، إِنَّ لِهَذَا لَأَجْرًا، فَقَالُوا: بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ وَمَا أَحْسَنَ خُلُقَكَ! لَقَدْ بُورِكَ لَنَا فِي جِوَارِكَ، فَمَنْ أَنْتَ يَا فَتَى؟ قَالَ: "أَنَا يُوسُفُ ابْنُ صَفِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ ابْنِ ذَبِيحِ اللَّهِ إِسْحَاقَ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ"، فَقَالَ لَهُ عَامِلُ السِّجْنِ: لَوِ اسْتَطَعْتُ خَلَّيْتُ سَبِيلَكَ، وَلَكِنِّي أُحْسِنُ جِوَارَكَ، فَكُنْ فِي أَيِّ بُيُوتِ السِّجْنِ شِئْتَ.

وَرُوِيَ أَنَّ الْفَتَيَيْنِ قَالَا لَهُ: إِنَّا لَنُحِبُّكَ مِنْ حِينِ رَأَيْنَاكَ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ أَلَّا تُحِبَّانِي، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّنِي أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا دَخَلَ عَلَيَّ مِنْ حُبِّهِ بَلَاءٌ، لَقَدْ أَحَبَّتْنِي عَمَّتِي فَدَخَلَ عَلَيَّ مِنْ حُبِّهَا بَلَاءٌ، ثُمَّ أَحَبَّنِي أَبِي فَدَخَلَ عَلَيَّ مِنْ حُبِّهِ بَلَاءٌ، ثُمَّ أَحَبَّتْنِي زَوْجَةُ صَاحِبِي فَدَخَلَ عَلَيَّ مِنْ حُبِّهَا بَلَاءٌ، فَلَا تُحِبَّانِي –بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا–.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُمَا تَحَالَمَا لَهُ لِيَمْتَحِنَاهُ فَقَالَ الشَّرَابِيُّ: إِنِّي أَرَانِي فِي بُسْتَانٍ، فَإِذَا بِأَصْلِ حَبْلَةٍ عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ عَنَاقِيدَ مِنْ عِنَبٍ، فَقَطَفْتُهَا وَعَصَرْتُهَا فِي كَأْسِ الْمَلِكِ، وَسَقَيْتُهُ، وَقَالَ الْخَبَّازُ: إِنِّي أَرَانِي وَفَوْقَ رَأْسِي ثَلَاثُ سِلَالٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الْأَطْعِمَةِ، وَإِذَا سِبَاعُ الطَّيْرِ تَنْهَشُ مِنْهَا .

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَامَ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾[1]؟

قُلْتُ: إِلَى مَا قَصَّ عَلَيْهِ، وَالضَّمِيرُ يَجْرِي مَجْرَى اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي نَحْوِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ.

﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[2]

لَمَّا اسْتَعْبَرَاهُ وَوَصَفَاهُ بِالْإِحْسَانِ، افْتَرَصَ ذَلِكَ، فَوَصَلَ بِهِ وَصْفُ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ فَوْقَ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّهُ يُنَبِّئُهُمَا بِمَا يُحْمَلُ إِلَيْهِمَا مِنَ الطَّعَامِ فِي السِّجْنِ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمَا وَيَصِفَهُ لَهُمَا، وَيَقُولُ: الْيَوْمَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ مِنْ صِفَتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَيَجِدَانِهِ كَمَا أَخْبَرَهُمَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ تَخَلُّصًا إِلَى أَنْ يَذْكُرَ لَهُمَا التَّوْحِيدَ، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِمَا الْإِيمَانَ وَيُزَيِّنَهُ لَهُمَا، وَيُقَبِّحَ إِلَيْهِمَا الشِّرْكَ بِاللَّهِ.

وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ أَنْ يَسْلُكَهَا مَعَ الْجُهَّالِ وَالْفَسَقَةِ، إِذَا اسْتَفْتَاهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُقَدِّمَ الْهِدَايَةَ وَالْإِرْشَادَ وَالْمَوْعِظَةَ وَالنَّصِيحَةَ أَوَّلًا، وَيَدْعُوَهُ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى بِهِ وَأَوْجَبُ عَلَيْهِ مِمَّا اسْتَفْتَى فِيهِ ثُمَّ يُفْتِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَفِيهِ أَنَّ الْعَالِمَ إِذَا جُهِلَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْعِلْمِ فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ –وَغَرَضُهُ أَنْ يُقْتَبَسَ مِنْهُ، وَيُنْتَفَعَ بِهِ فِي الدِّينِ– لَمْ يَكُنْ مِنْ بَابِ التَّزْكِيَةِ.

﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾[1]: بِبَيَانِ مَاهِيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُشْبِهُ تَفْسِيرَ الْمُشْكِلِ وَالْإِعْرَابَ عَنْ مَعْنَاهُ.

﴿ذَلِكُمَا﴾[2]: إِشَارَةٌ لَهُمَا إِلَى التَّأْوِيلِ، أَيْ: ذَلِكَ التَّأْوِيلُ وَالْإِخْبَارُ بِالْمُغَيَّبَاتِ.

﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[3]: وَأَوْحَى بِهِ إِلَيَّ وَلَمْ أَقُلْهُ عَنْ تَكَهُّنٍ وَتَنَجُّمٍ.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾[4]: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدَأً، وَأَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا لِمَا قَبْلَهُ، أَيْ: عَلَّمَنِي ذَلِكَ وَأَوْحَى إِلَيَّ، لِأَنِّي رَفَضْتُ مِلَّةَ أُولَئِكَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَهِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ.

وَأَرَادَ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ: أَهْلَ مِصْرَ، وَمَنْ كَانَ الْفَتَيَانِ عَلَى دِينِهِمْ، وَتَكْرِيرُهُمْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ خُصُوصًا كَافِرُونَ بِالْآخِرَةِ، وَأَنَّ غَيْرَهُمْ كَانُوا قَوْمًا مُؤْمِنِينَ بِهَا، وَهُمُ الَّذِينَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَلِتَوْكِيدِ كُفْرِهِمْ بِالْجَزَاءِ تَنْبِيهًا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْكَبَائِرِ الَّتِي لَا يَرْتَكِبُهَا إِلَّا مَنْ هُوَ كَافِرٌ بِدَارِ الْجَزَاءِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِمَا مُنِيَ بِهِ مِنْ جِهَتِهِمْ حِينَ أَوْدَعُوهُ السِّجْنَ، بَعْدَمَا رَأَوُا الْآيَاتِ الشَّاهِدَةَ عَلَى بَرَاءَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَا لَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ هُوَ شَدِيدُ الْكُفْرِ بِالْجَزَاءِ، وَذَكَرَ آبَاءَهُ لِيُرِيَهُمَا أَنَّهُ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ عَرَّفَهُمَا أَنَّهُ نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ، بِمَا ذَكَرَ مِنْ إِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ، لِيُقَوِّيَ رَغْبَتَهُمَا فِي الِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَاتِّبَاعِ قَوْلِهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿مَا كَانَ لَنَا﴾[1]: مَا صَحَّ لَنَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾[2]: أَيَّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ مَلَكٍ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ إِنْسِيٍّ، فَضْلًا أَنْ نُشْرِكَ بِهِ صَنَمًا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾[3]: التَّوْحِيدُ.

﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾[4]، أَيْ: عَلَى الرُّسُلِ وَعَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ نَبَّهُوهُمْ عَلَيْهِ وَأَرْشَدُوهُمْ إِلَيْهِ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾[5]: الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ.

﴿لا يَشْكُرُونَ﴾[6]: فَضْلَ اللَّهِ فَيُشْرِكُونَ وَلَا يَنْتَبِهُونَ.

وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا، لِأَنَّهُ نَصَبَ لَنَا الْأَدِلَّةَ الَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا وَنَسْتَدِلُّ بِهَا، وَقَدْ نَصَبَ مِثْلَ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ لِسَائِرِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يَسْتَدِلُّونَ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ، فَيَبْقَوْنَ كَافِرِينَ غَيْرَ شَاكِرِينَ.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[7]

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .

2 سورة يُوسُفَ، الآية .

3 سورة يُوسُفَ، الآية .

4 سورة يُوسُفَ، الآية .

5 سورة يُوسُفَ، الآية .

6 سورة يُوسُفَ، الآية .

7 سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾[1]، يُرِيدُ: يَا صَاحِبَيَّ فِي السِّجْنِ، فَأَضَافَهُمَا إِلَى السِّجْنِ كَمَا تَقُولُ: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّيْلَةَ مَسْرُوقٌ فِيهَا غَيْرُ مَسْرُوقَةٍ، فَكَذَلِكَ السِّجْنُ مَصْحُوبٌ فِيهِ غَيْرُ مَصْحُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَصْحُوبُ غَيْرُهُ، وَهُوَ يُوسُفُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–.

وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ لِصَاحِبَيْكَ: يَا صَاحِبَيِ الصِّدْقِ، فَتُضِيفُهُمَا إِلَى الصِّدْقِ، وَلَا تُرِيدُ أَنَّهُمَا صَحِبَا الصِّدْقَ، وَلَكِنْ كَمَا تَقُولُ: رَجُلَا صِدْقٍ، وَسَمَّيْتَهُمَا صَاحِبَيْنِ، لِأَنَّهُمَا صَحِبَاكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: يَا سَاكِنَيِ السِّجْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[2].

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾[3]، يُرِيدُ: التَّفَرُّقَ فِي الْعَدَدِ وَالتَّكَاثُرِ، يَقُولُ أَأَنَّ تَكُونَ لَكُمَا أَرْبَابٌ شَتَّى، يَسْتَعْبِدُكُمَا هَذَا وَيَسْتَعْبِدُكُمَا هَذَا، ﴿خَيْرٌ﴾[4]: لَكُمَا، ﴿أَمِ﴾[5]: أَنْ يَكُونَ لَكُمَا رَبٌّ وَاحِدٌ قَهَّارٌ لَا يُغَالَبُ وَلَا يُشَارَكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، بَلْ هُوَ: ﴿الْقَهَّارُ﴾[6]: الْغَالِبُ؟

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَلِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾[7]: خِطَابٌ لَهُمَا، وَلِمَنْ عَلَى دِينِهِمَا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ.

﴿إِلاَّ أَسْمَاءً﴾[8]، يَعْنِي: أَنَّكُمْ سَمَّيْتُمْ مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ آلِهَةً، ثُمَّ طَفِقْتُمْ تَعْبُدُونَهَا، فَكَأَنَّكُمْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا أَسْمَاءً فَارِغَةً لَا مُسَمَّيَاتٍ تَحْتَهَا.

وَمَعْنَى ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾[9]: سَمَّيْتُمْ بِهَا، يُقَالُ: سَمَّيْتُهُ بِزَيْدٍ، وَسَمَّيْتُهُ زَيْدًا.

﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾[10]، أَيْ: بِتَسْمِيَتِهَا، ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾[11]: مِنْ حُجَّةٍ.

﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾[12]: فِي أَمْرِ الْعِبَادَةِ وَالدِّينِ.

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة الْحَشْرُ، الآية 20.
3 سورة يُوسُفَ، الآية .
4 سورة يُوسُفَ، الآية .
5 سورة يُوسُفَ، الآية .
6 سورة يُوسُفَ، الآية .
7 سورة يُوسُفَ، الآية .
8 سورة يُوسُفَ، الآية .
9 سورة يُوسُفَ، الآية .
10 سورة يُوسُفَ، الآية .
11 سورة يُوسُفَ، الآية .
12 سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿إِلاَّ لِلَّهِ﴾[1]: ثُمَّ بَيَّنَ مَا حَكَمَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2]: الثَّابِتُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ .

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[3]

﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾[4]: يُرِيدُ الشَّرَابِيَّ.

﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾[5]: سَيِّدَهُ.

وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ: "فَيُسْقَى رَبُّهُ"، أَيْ: يُسْقَى مَا يُرْوَى بِهِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِلْأَوَّلِ: مَا رَأَيْتَ مِنَ الْكَرْمَةِ وَحُسْنِهَا هُوَ الْمَلِكُ وَحُسْنُ حَالِكَ عِنْدَهُ.

وَأَمَّا الْقُضْبَانُ الثَّلَاثَةُ: فَإِنَّهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ تَمْضِي فِي السِّجْنِ، ثُمَّ تَخْرُجُ وَتَعُودُ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِلثَّانِي: مَا رَأَيْتَ مِنَ السِّلَالِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُقْتَلُ.

﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾[6]: قُطِعَ وَتَمَّ مَا.

﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾[7]: فِيهِ مِنْ أَمْرِكُمَا وَشَأْنِكُمَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا اسْتَفْتَيَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، بَلْ فِي أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، فَمَا وَجْهُ التَّوْحِيدِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: مَا اتُّهِمَا بِهِ مِنْ سَمِّ الْمَلِكِ وَمَا سُجِنَا مِنْ أَجْلِهِ، وَظَنَّا أَنَّ مَا رَأَيَاهُ فِي مَعْنَى مَا نَزَلَ بِهِمَا، فَكَأَنَّهُمَا كَانَا يَسْتَفْتِيَانِهِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمَا أَعَاقِبَتُهُ نَجَاةٌ أَمْ هَلَاكٌ، فَقَالَ لَهُمَا: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ، أَيْ: مَا يَجُرُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَاقِبَةِ، وَهِيَ هَلَاكُ أَحَدِهِمَا وَنَجَاةُ الْآخَرِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: جَحَدَا، وَقَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُمَا تَحَالَمَا لَهُ، فَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ صَدَقْتُمَا أَوْ كَذَبْتُمَا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1]

﴿ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾[2]: الظَّانُّ: هُوَ يُوسُفُ، إِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ بِطَرِيقِ الِاجْتِهَادِ، وَإِنْ كَانَ بِطَرِيقِ الْوَحْيِ، فَالظَّانُّ هُوَ الشَّرَابِيُّ، وَيَكُونُ الظَّنُّ بِمَعْنَى: الْيَقِينِ.

﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[3]: صِفْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ بِصِفَتِي، وَقُصَّ عَلَيْهِ قِصَّتِي لَعَلَّهُ يَرْحَمُنِي وَيَنْتَاشُنِي مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ.

﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾[4]: فَأَنْسَى الشَّرَابِيَّ.

﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[5]: أَنْ يَذْكُرَهُ لِرَبِّهِ، وَقِيلَ: فَأَنْسَى يُوسُفُ ذِكْرَ اللَّهِ حِينَ وَكَلَ أَمْرَهُ إِلَى غَيْرِهِ.

﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾[6]: الْبِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ، وَأَكْثَرُ الْأَقَاوِيلِ عَلَى أَنَّهُ لَبِثَ فِيهِ سَبْعَ سِنِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَقْدِرُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْإِنْسَانِ؟

قُلْتُ: يُوَسْوِسُ إِلَى الْعَبْدِ بِمَا يَشْغَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ مِنْ أَسْبَابِ النِّسْيَانِ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ وَيَزِلَّ عَنْ قَلْبِهِ ذِكْرُهُ.

وَأَمَّا الْإِنْسَاءُ ابْتِدَاءً، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–، ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾[7].

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَةُ، الآية **106**.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ إِضَافَةِ الذِّكْرِ إِلَى رَبِّهِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَلِكُ؟ وَمَا هِيَ بِإِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ وَلَا إِلَى الْمَفْعُولِ؟

قُلْتُ: قَدْ لَابَسَهُ فِي قَوْلِكَ: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[1]، أَوْ: عِنْدَ رَبِّهِ، فَجَازَتْ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْإِضَافَةَ تَكُونُ بِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ: فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ إِخْبَارِ رَبِّهِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ الَّذِي هُوَ الْإِخْبَارُ .

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ أَنْكَرَ عَلَى يُوسُفَ الِاسْتِعَانَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي كَشْفِ مَا كَانَ فِيهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[2].

وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ عِيسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[3].

وَفِي الْحَدِيثِ: "اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، "مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ الْآخِرَةِ".

وَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا –أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَمْ يَأْخُذْهُ النَّوْمُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، وَكَانَ يَطْلُبُ مَنْ يَحْرُسُهُ، حَتَّى جَاءَ سَعْدٌ فَسَمِعْتُ غَطِيطَهُ، وَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا مِثْلُ التَّدَاوِي بِالْأَدْوِيَةِ وَالتَّقَوِّي بِالْأَشْرِبَةِ وَالْأَطْعِمَةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ كَافِرًا، فَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ أَنْ يُسْتَعَانَ بِالْكُفَّارِ فِي دَفْعِ الظُّلْمِ، وَالْغَرَقِ، وَالْحَرْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَضَارِّ؟

قُلْتُ: كَمَا اصْطَفَى اللَّهُ –تَعَالَى– الْأَنْبِيَاءَ عَلَى خَلِيقَتِهِ، فَقَدِ اصْطَفَى لَهُمْ أَحْسَنَ الْأُمُورِ وَأَفْضَلَهَا وَأَوْلَاهَا، وَالْأَحْسَنُ وَالْأَوْلَى بِالنَّبِيِّ أَلَّا يَكِلَ أَمْرَهُ إِذَا ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ إِلَّا إِلَى رَبِّهِ، وَلَا يَعْتَضِدَ إِلَّا بِهِ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ الْمُعْتَضَدُ بِهِ كَافِرًا، لِئَلَّا يَشْمَتَ بِهِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُوا لَوْ كَانَ هَذَا عَلَى الْحَقِّ وَكَانَ لَهُ رَبٌّ يُغِيثُهُ لَمَا اسْتَغَاثَ بِنَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي إِذَا قَرَأَهَا وَيَقُولُ: نَحْنُ إِذَا نَزَلَ بِنَا أَمْرٌ فَزِعْنَا إِلَى النَّاسِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 2.

[3] سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1]

لَمَّا دَنَا فَرَجُ يُوسُفَ، رَأَى مَلِكُ مِصْرَ "الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ" رُؤْيَا عَجِيبَةً هَالَتْهُ: رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خَرَجْنَ مِنْ نَهْرٍ يَابِسٍ، وَسَبْعَ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ، فَابْتَلَعَتِ الْعِجَافُ السِّمَانَ، وَرَأَى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ قَدِ انْعَقَدَ حَبُّهَا، وَسَبْعًا أُخَرَ يَابِسَاتٍ قَدِ اسْتَحْصَدَتْ وَأَدْرَكَتْ، فَالْتَوَتِ الْيَابِسَاتُ عَلَى الْخُضْرِ حَتَّى غَلَبْنَ عَلَيْهَا، فَاسْتَعْبَرَهَا فَلَمْ يَجِدْ فِي قَوْمِهِ مَنْ يُحْسِنُ عِبَارَتَهَا.

﴿سِمَانٍ﴾[2]: جَمْعُ سَمِينٍ وَسَمِينَةٍ، وَكَذَلِكَ رِجَالٌ وَنِسْوَةٌ كِرَامٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ إِيقَاعِ: ﴿سِمَانٍ﴾[3] صِفَةً لِلْمُمَيَّزِ، وَهُوَ: ﴿بَقَرَاتٍ﴾[4] دُونَ الْمُمَيِّزِ، وَهُوَ: ﴿سَبْعَ﴾[5]، وَأَنْ يُقَالَ: سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانًا؟

قُلْتُ: إِذَا أَوْقَعْتَهَا صِفَةً لِبَقَرَاتٍ، فَقَدْ قَصَدْتَ إِلَى أَنْ تُمَيِّزَ السَّبْعَ بِنَوْعٍ مِنَ الْبَقَرَاتِ، وَهِيَ السِّمَانُ مِنْهُنَّ لَا بِجِنْسِهِنَّ، وَلَوْ وَصَفْتَ بِهَا السَّبْعَ لَقَصَدْتَ إِلَى تَمْيِيزِ السَّبْعِ بِجِنْسِ الْبَقَرَاتِ لَا بِنَوْعٍ مِنْهَا، ثُمَّ رَجَعْتَ فَوَصَفْتَ الْمُمَيَّزَ بِالْجِنْسِ بِالسِّمَنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: سَبْعُ عِجَافٍ عَلَى الْإِضَافَةِ؟

قُلْتُ، التَّمْيِيزُ مَوْضُوعٌ لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَالْعِجَافُ وَصْفٌ لَا يَقَعُ الْبَيَانُ بِهِ وَحْدَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ يَقُولُونَ: ثَلَاثَةُ فُرْسَانٍ وَخَمْسَةُ أَصْحَابٍ؟

قُلْتُ: الْفَارِسُ وَالصَّاحِبُ وَالرَّاكِبُ، وَنَحْوُهَا: صِفَاتٌ جَرَتْ مَجْرَى الْأَسْمَاءِ، فَأَخَذَتْ حُكْمَهَا، وَجَازَ فِيهَا مَا لَمْ يَجُزْ فِي غَيْرِهَا.

أَلَا تَرَاكَ لَا تَقُولُ: عِنْدِي ثَلَاثَةُ ضِخَامٍ وَأَرْبَعَةُ غِلَاظٍ؟

فَإِنْ قُلْتَ: ذَاكَ مِمَّا يُشْكِلُ وَمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: بَقَرَاتٌ سَبْعٌ عِجَافٌ، لِوُقُوعِ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمُرَادَ الْبَقَرَاتُ؟

قُلْتُ: تَرْكُ الْأَصْلِ لَا يَجُوزُ مَعَ وُقُوعِ الِاسْتِغْنَاءِ عَمَّا لَيْسَ بِأَصْلٍ، وَقَدْ وَقَعَ الِاسْتِغْنَاءُ بِقَوْلِكَ: "سَبْعٌ عِجَافٌ" عَمَّا تَقْتَرِحُهُ مِنَ التَّمْيِيزِ بِالْوَصْفِ، وَالْعَجْفُ: الْهُزَالُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ.

وَالسَّبَبُ فِي وُقُوعِ "عِجَافٍ" جَمْعًا "لِعَجْفَاءَ"، وَأَفْعَلُ وَفَعْلَاءُ لَا يُجْمَعَانِ عَلَى فِعَالٍ، حَمَلَهُ عَلَى سِمَانٍ، لِأَنَّهُ نَقِيضُهُ، وَمِنْ دَأْبِهِمْ حَمْلُ النَّظِيرِ عَلَى النَّظِيرِ، وَالنَّقِيضِ عَلَى النَّقِيضِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّنْبُلَاتِ الْيَابِسَةَ كَانَتْ سَبْعًا كَالْخُضْرِ؟

قُلْتُ: الْكَلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى انْصِبَابِهِ إِلَى هَذَا الْعَدَدِ فِي الْبَقَرَاتِ السِّمَانِ وَالْعِجَافِ وَالسَّنَابِلِ الْخُضْرِ، فَوَجَبَ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَعْنَى الْأُخَرِ السَّبْعَ، وَيَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾[1]، بِمَعْنَى: وَسَبْعًا أُخَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ قَوْلُهُ: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾[2] عَلَى ﴿سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾[3]، فَيَكُونُ مَجْرُورَ الْمَحَلِّ؟

قُلْتُ: يُؤَدِّي إِلَى تَدَافُعٍ، وَهُوَ أَنَّ عَطْفَهَا عَلَى: ﴿سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾[4] يَقْتَضِي أَنْ تَدْخُلَ فِي حُكْمِهَا، فَتَكُونَ مَعَهَا مُمَيِّزًا لِلسَّبْعِ الْمَذْكُورَةِ، وَلَفْظُ الْأُخَرِ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ غَيْرَ السَّبْعِ.

بَيَانُهُ: أَنَّكَ تَقُولُ: عِنْدِي سَبْعَةُ رِجَالٍ قِيَامٍ وَقُعُودٍ: بِالْجَرِّ، فَيَصِحُّ، لِأَنَّكَ مَيَّزْتَ السَّبْعَةَ بِرِجَالٍ مَوْصُوفِينَ بِالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ، عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قِيَامٌ وَبَعْضَهُمْ قُعُودٌ.

فَلَوْ قُلْتَ: عِنْدَهُ سَبْعَةُ رِجَالٍ قِيَامٍ وَآخَرِينَ قُعُودٍ، تَدَافَعَ فَفَسَدَ.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾[5]: كَأَنَّهُ أَرَادَ الْأَعْيَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلرُّؤْيَا﴾[1]: إِمَّا أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[2]؛ وَإِمَّا أَنْ تَدْخُلَ، لِأَنَّ الْعَامِلَ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ مَعْمُولُهُ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّتِهِ عَلَى الْعَمَلِ فِيهِ مِثْلَهُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُ، فَعُضِّدَ بِهَا كَمَا يُعَضَّدُ بِهَا اسْمُ الْفَاعِلِ، إِذَا قُلْتَ: هُوَ عَابِرٌ لِلرُّؤْيَا، لِانْحِطَاطِهِ عَنِ الْفِعْلِ فِي الْقُوَّةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلرُّؤْيَا خَبَرَ كَانَ، كَمَا تَقُولُ: كَانَ فُلَانٌ لِهَذَا الْأَمْرِ إِذَا كَانَ مُسْتَقِلًّا بِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ.

وَ﴿تَعْبُرُونَ﴾[3]: خَبَرٌ آخَرُ، أَوْ حَالٌ، وَأَنْ يُضَمَّنَ:

﴿تَعْبُرُونَ﴾[4]، مَعْنَى فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ كُنْتُمْ تُنْتَدَبُونَ لِعِبَارَةِ الرُّؤْيَا.

وَحَقِيقَةُ "عَبَرْتُ الرُّؤْيَا": ذَكَرْتُ عَاقِبَتَهَا وَآخِرَ أَمْرِهَا، كَمَا تَقُولُ: عَبَرْتُ النَّهْرَ، إِذَا قَطَعْتَهُ حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَ عَرْضِهِ وَهُوَ عَبْرُهُ، وَنَحْوُهُ: أَوَّلْتُ الرُّؤْيَا إِذَا ذَكَرْتَ مَآلَهَا وَهُوَ مَرْجِعُهَا، وَعَبَرْتُ الرُّؤْيَا: بِالتَّخْفِيفِ، هُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْأَثْبَاتُ، وَرَأَيْتُهُمْ يُنْكِرُونَ "عَبَّرْتُ": بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّعْبِيرَ وَالْمُعَبِّرَ.

وَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى بَيْتٍ أَنْشَدَهُ الْمُبَرِّدُ فِي كِتَابِ الْكَامِلِ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ:

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَـــــا ... وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّـــــارَا

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[5]

﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾[6]: تَخَالِيطُهَا وَأَبَاطِيلُهَا، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا مِنْ حَدِيثِ نَفْسٍ أَوْ وَسُوسَةِ شَيْطَانٍ، وَأَصْلُ الْأَضْغَاثِ: مَا جُمِعَ مِنْ أَخْلَاطِ النَّبَاتِ وَحُزِمَ، الْوَاحِدُ: ضِغْثٌ، فَاسْتُعِيرَتْ لِذَلِكَ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفُ، الآية 200.

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: "مِنْ"، أَيْ: أَضْغَاثٌ مِنْ أَحْلَامٍ، وَالْمَعْنَى: هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هُوَ إِلَّا حُلْمٌ وَاحِدٌ، فَلِمَ قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ فَجَمَعُوا؟

قُلْتُ: هُوَ كَمَا تَقُولُ: فُلَانٌ يَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيَلْبَسُ عَمَائِمَ الْخَزِّ، لِمَنْ لَا يَرْكَبُ إِلَّا فَرَسًا وَاحِدًا وَمَا لَهُ إِلَّا عِمَامَةٌ فَرْدَةٌ، تَزَيُّدًا فِي الْوَصْفِ، فَهَؤُلَاءِ -أَيْضًا- تَزَيَّدُوا فِي وَصْفِ الْحُلْمِ بِالْبُطْلَانِ، فَجَعَلُوهُ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَعَ هَذِهِ الرُّؤْيَا رُؤْيَا غَيْرَهَا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[1]: إِمَّا أَنْ يُرِيدُوا بِالْأَحْلَامِ: الْمَنَامَاتِ الْبَاطِلَةَ خَاصَّةً، فَيَقُولُوا: لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا تَأْوِيلٌ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَنَامَاتِ الصَّحِيحَةِ الصَّالِحَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِقُصُورِ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي تَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِنَحَارِيرَ.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[2]

قُرِئَ: "وَادَّكَرَ" بِالدَّالِ، وَهُوَ الْفَصِيحُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: "وَاذَّكَرَ" بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ، وَالْأَصْلُ: تَذَكَّرَ، أَيْ: تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنَ الْفَتَيَيْنِ مِنَ الْقَتْلِ يُوسُفَ وَمَا شَاهَدَ مِنْهُ.

﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[3]: بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ اسْتَفْتَى الْمَلِكَ فِي رُؤْيَاهُ وَأَعْضَلَ عَلَى الْمَلَأِ تَأْوِيلُهَا، تَذَكَّرَ النَّاجِي يُوسُفَ وَتَأْوِيلَهُ رُؤْيَاهُ وَرُؤْيَا صَاحِبِهِ، وَطَلَبَهُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ.

وَقَرَأَ الْأَشْهَبُ الْعَقِيلِيُّ: "بَعْدَ إِمَّةٍ" بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وَالْإِمَّةُ: النِّعْمَةُ.

قَالَ عَدِيٌّ:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّ... ـةَ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ الْقُبُـــــورُ

أَيْ: بَعْدَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالنَّجَاةِ، وَقُرِئَ: "بَعْدَ أَمَهٍ": بَعْدَ نِسْيَانٍ، يُقَالُ: أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهًا، إِذَا نَسِيَ، وَمَنْ قَرَأَ بِسُكُونِ الْمِيمِ فَقَدْ خَطِئَ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾[1]: أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِهِ عَمَّنْ عِنْدَهُ عِلْمُهُ.

وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: "أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ".

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾[2]: فَابْعَثُونِي إِلَيْهِ لِأَسْأَلَهُ، وَمُرُونِي بِاسْتِعْبَارِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمْ يَكُنِ السِّجْنُ فِي الْمَدِينَةِ.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3]

الْمَعْنَى: فَأَرْسَلُوهُ إِلَى يُوسُفَ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[4]: أَيُّهَا الْبَلِيغُ فِي الصِّدْقِ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَاقَ أَحْوَالَهُ، وَتَعَرَّفَ صِدْقَهُ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ وَرُؤْيَا صَاحِبِهِ، حَيْثُ جَاءَ كَمَا أَوَّلَ، وَلِذَلِكَ كَلَّمَهُ كَلَامَ مُحْتَرِزٍ، فَقَالَ: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[5]، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى يَقِينٍ مِنَ الرُّجُوعِ، فَرُبَّمَا اخْتَرَمَ دُونَهُ، وَلَا مِنْ عِلْمِهِمْ فَرُبَّمَا لَمْ يَعْلَمُوا، أَوْ مَعْنَى: "لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ": لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ فَضْلَكَ وَمَكَانَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَيَطْلُبُوكَ وَيُخَلِّصُوكَ مِنْ مِحْنَتِكَ.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[6]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿تَزْرَعُونَ﴾[1]: خَبَرٌ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾[2] .

وَإِنَّمَا يَخْرُجُ الْأَمْرُ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ، لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِيجَابِ إِيجَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَيُجْعَلُ كَأَنَّهُ يُوجَدُ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِهِ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ قَوْلُهُ: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، دَأَبًا﴾[3]: بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ وَتَحْرِيكِهَا، وَهُمَا مَصْدَرَا: دَأَبَ فِي الْعَمَلِ، وَهُوَ حَالٌ مِنَ الْمَأْمُورَيْنِ، أَيْ: دَائِبَيْنِ: إِمَّا عَلَى تَدْأَبُونَ دَأَبًا، وَإِمَّا عَلَى إِيقَاعِ الْمَصْدَرِ حَالًا، بِمَعْنَى: ذَوِي دَأْبٍ.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾[4]: لِئَلَّا يَتَسَوَّسَ.

وَ﴿يَأْكُلْنَ﴾[5]: مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ: جَعَلَ أَكْلَ أَهْلِهِنَّ مُسْنَدًا إِلَيْهِنَّ.

﴿تُحْصِنُونَ﴾[6]: تُحْرِزُونَ وَتُخَبِّؤُونَ.

﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾[7]: مِنَ الْغَوْثِ أَوْ مِنَ الْغَيْثِ، يُقَالُ: غِيثَتِ الْبِلَادُ، إِذَا مُطِرَتْ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْرَابِيَّةِ: غَثَّنَا مَا شِئْنَا.

﴿يَعْصِرُونَ﴾[8]: بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ: يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ وَالزَّيْتُونَ وَالسِّمْسِمَ.

وَقِيلَ: يَحْلِبُونَ الضُّرُوعَ.

وَقُرِئَ: "يُعْصَرُونَ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مِنْ عَصَرَهُ إِذَا أَنْجَاهُ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِلْإِغَاثَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَبْنِيُّ لِلْفَاعِلِ بِمَعْنَى: يَنْجُونَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُغِيثُونَ أَنْفُسَهُمْ، أَيْ: يُغِيثُهُمُ اللَّهُ وَيُغِيثُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا.

وَقِيلَ: "يُعْصَرُونَ" يُمْطَرُونَ، مِنْ أَعْصَرَتِ السَّحَابَةُ.

وَفِيهِ وَجْهَانِ:

– إِمَّا أَنْ يُضَمَّنَ أَعْصَرَتْ مَعْنَى مَطَرَتْ، فَيُعَدَّى تَعْدِيَتَهُ؛

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة الصَّفُّ، الآية 11.

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

– وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: الْأَصْلُ أَعْصَرْتُ عَلَيْهِمْ، فَحُذِفَ الْجَارُّ وَأُوصِلَ الْفِعْلُ.

تَأَوَّلَ الْبَقَرَاتِ السِّمَانَ، وَالسُّنْبُلَاتِ الْخُضْرَ بِسِنِينَ مَخَاصِيبَ، وَالْعِجَافَ وَالْيَابِسَاتِ بِسِنِينَ مُجْدِبَةٍ. ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا بِأَنَّ الْعَامَ الثَّامِنَ يَجِيءُ مُبَارَكًا خَصِيبًا، كَثِيرَ الْخَيْرِ، غَزِيرَ النِّعَمِ، وَذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: زَادَهُ اللَّهُ عِلْمَ سَنَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَعْلُومٌ أَنَّ السِّنِّيْنَ الْمُجْدِبَةَ إِذَا انْتَهَتْ كَانَ انْتِهَاؤُهَا بِالْخِصْبِ، وَإِلَّا لَمْ تُوصَفْ بِالِانْتِهَاءِ، فَلِمَ قُلْتَ: إِنَّ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ؟

قُلْتُ: ذَلِكَ مَعْلُومٌ عِلْمًا مُطْلَقًا لَا مُفَصَّلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]: تَفْصِيلٌ لَحَالِ الْعَامِ، وَذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْوَحْيِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2]

إِنَّمَا تَأَنَّى وَتَثَبَّتَ فِي إِجَابَةِ الْمَلِكِ، وَقَدَّمَ سُؤَالَ النِّسْوَةِ، لِيُظْهِرَ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ عَمَّا قُرِفَ بِهِ وَسُجِنَ فِيهِ، لِئَلَّا يَتَسَلَّقَ بِهِ الْحَاسِدُونَ إِلَى تَقْبِيحِ أَمْرِهِ عِنْدَهُ، وَيَجْعَلُوهُ سُلَّمًا إِلَى حَطِّ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْهِ؛ وَلِئَلَّا يَقُولُوا: مَا خُلِّدَ فِي السِّجْنِ سَبْعَ سِنِينَ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَجُرْمٍ كَبِيرٍ حَقَّ بِهِ أَنْ يُسْجَنَ وَيُعَذَّبَ وَيُسْتَكْفَ شَرُّهُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاجْتِهَادَ فِي نَفْيِ التُّهَمِ وَاجِبٌ وُجُوبَ اتِّقَاءِ الْوُقُوفِ فِي مَوَاقِفِهَا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

قَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقِفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَمِ"، وَمِنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِلْمَارِّينَ بِهِ فِي مُعْتَكَفِهِ وَعِنْدَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ: "هِيَ فُلَانَةُ" اتِّقَاءً لِلتُّهْمَةِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَكَرَمِهِ وَصَبْرِهِ –وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ– حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسِّمَانِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَخْبَرْتُهُمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ وَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَبَادَرْتُهُمُ الْبَابَ وَلَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ، إِنْ كَانَ لَحَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ".

وَإِنَّمَا قَالَ: سَلِ الْمَلِكَ عَنْ حَالِ النِّسْوَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: سَلْهُ أَنْ يُفَتِّشَ عَنْ شَأْنِهِنَّ، لِأَنَّ السُّؤَالَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْإِنْسَانَ وَيُحَرِّكُهُ لِلْبَحْثِ عَمَّا سُئِلَ عَنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُورِدَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ لِيَجِدَّ فِي التَّفْتِيشِ عَنْ حَقِيقَةِ الْقِصَّةِ وَفَصِّ الْحَدِيثِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ بَرَاءَتَهُ بَيَانًا مَكْشُوفًا يَتَمَيَّزُ فِيهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ.

وَقُرِئَ: "النُّسْوَةَ" بِضَمِّ النُّونِ، وَمِنْ كَرَمِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ: أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سَيِّدَتَهُ مَعَ مَا صَنَعَتْ بِهِ، وَتَسَبَّبَتْ فِيهِ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ، وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْمُقَطِّعَاتِ أَيْدِيهِنَّ.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾[1]: إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى–.

﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[2]: أَرَادَ أَنَّهُ كَيْدٌ عَظِيمٌ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، لِبُعْدِ غَوْرِهِ، أَوِ اسْتُشْهِدَ بِعِلْمِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُنَّ كِدْنَهُ، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّا قُرِفَ بِهِ، أَوْ أَرَادَ الْوَعِيدَ لَهُنَّ، أَيْ: هُوَ عَلِيمٌ بِكَيْدِهِنَّ فَمُجَازِيهِنَّ عَلَيْهِ.

﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾[3]: مَا شَأْنُكُنَّ.

﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ﴾[4]: هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مَيْلًا إِلَيْكُنَّ.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾[5]: تَعَجُّبًا مِنْ عِفَّتِهِ، وَذَهَابِهِ بِنَفْسِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الرِّيبَةِ وَمِنْ نَزَاهَتِهِ عَنْهَا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ﴾[1]، أَيْ: ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ.

وَقُرِئَ: "حَصْحَصَ" عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَهُوَ مِنْ حَصْحَصَ الْبَعِيرُ: إِذَا أَلْقَى ثَفَنَاتَهُ لِلْإِنَاخَةِ.

قَالَ:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَفَنَاتِهِ... وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوْءَةً ثُمَّ صَمَّمَا

وَلَا مَزِيدَ عَلَى شَهَادَتِهِنَّ لَهُ بِالْبَرَاءَةِ وَالنَّزَاهَةِ وَاعْتِرَافِهِنَّ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَرَفَتْهُ بِهِ، لِأَنَّهُنَّ خُصُومُهُ، وَإِذَا اعْتَرَفَ الْخَصْمُ بِأَنَّ صَاحِبَهُ عَلَى الْحَقِّ، وَهُوَ عَلَى الْبَاطِلِ، لَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مَقَالٌ.

وَقَالَتِ الْمُجْبِرَةُ وَالْحَشْوِيَّةُ: نَحْنُ قَدْ بَقِيَ لَنَا مَقَالٌ، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَدُقَّ فِي فَرْوَةِ مَنْ ثَبَتَتْ نَزَاهَتُهُ.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[2]

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾[3]: مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ، أَيْ: ذَلِكَ التَّثَبُّتُ وَالتَّشَمُّرُ لِظُهُورِ الْبَرَاءَةِ، لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ.

﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾[4]: بِظَهْرِ الْغَيْبِ فِي حُرْمَتِهِ.

وَمَحَلُّ ﴿بِالْغَيْبِ﴾: الْحَالُ مِنَ الْفَاعِلِ أَوِ الْمَفْعُولِ، عَلَى مَعْنَى: وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ خَفِيٌّ عَنْ عَيْنِهِ، أَوْ وَهُوَ غَائِبٌ عَنِّي، خَفِيٌّ عَنْ عَيْنِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا، أَيْ: بِمَكَانِ الْغَيْبِ، وَهُوَ الْخَفَاءُ وَالِاسْتِتَارُ وَرَاءَ الْأَبْوَابِ السَّبْعَةِ الْمُغْلَقَةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَ﴾[1]: لِيَعْلَمَ ﴿أَنَّ اللَّهَ لا يهدي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[2]: لَا يُنَفِّذُهُ وَلَا يُسَدِّدُهُ، وَكَأَنَّهُ تَعْرِيضٌ بِامْرَأَتِهِ فِي خِيَانَتِهَا أَمَانَةَ زَوْجِهَا، وَبِهِ فِي خِيَانَتِهِ أَمَانَةَ اللَّهِ، حِينَ سَاعَدَهَا بَعْدَ ظُهُورِ الْآيَاتِ عَلَى حَبْسِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْكِيدًا لِأَمَانَتِهِ؛ وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَائِنًا، لَمَا هَدَى اللَّهُ كَيْدَهُ وَلَا سَدَّدَهُ.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]

ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِلَّهِ وَيَهْضِمَ نَفْسَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ لَهَا مُزَكِّيًا وَبِحَالِهَا فِي الْأَمَانَةِ مُعْجَبًا وَمُفْتَخِرًا، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ"؛ وَلِيُبَيِّنَ أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْأَمَانَةِ لَيْسَ بِهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَلُطْفِهِ وَعِصْمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾[4]: مِنَ الزَّلَلِ، وَمَا أَشْهَدُ لَهَا بِالْبَرَاءَةِ الْكُلِّيَّةِ وَلَا أُزَكِّيهَا، وَلَا يَخْلُو، إِمَّا أَنْ يُرِيدَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ، لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْهَمِّ الَّذِي هُوَ مَيْلُ النَّفْسِ عَنْ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ الْبَشَرِيَّةِ، لَا عَنْ طَرِيقِ الْقَصْدِ وَالْعَزْمِ، وَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ عُمُومَ الْأَحْوَالِ.

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[5]: أَرَادَ الْجِنْسَ، أَيْ: إِنَّ هَذَا الْجِنْسَ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ، وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[6]: إِلَّا الْبَعْضَ الَّذِي رَحِمَهُ رَبِّي بِالْعِصْمَةِ كَالْمَلَائِكَةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَا رَحِمَ﴾: فِي مَعْنَى: الزَّمْنِ، أَيْ: إِلَّا وَقْتَ رَحْمَةِ رَبِّي، يَعْنِي: أَنَّهَا أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ، إِلَّا وَقْتَ الْعِصْمَةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا، أَيْ: وَلَكِنْ رَحْمَةُ رَبِّي هِيَ الَّتِي تَصْرِفُ الْإِسَاءَةَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلا رَحْمَةً﴾[1].

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ، لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ خِيَانَةٌ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي قُلْتُ: لِيَعْلَمَ يُوسُفُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ، وَلَمْ أَكْذِبْ عَلَيْهِ فِي حَالِ الْغَيْبَةِ، وَجِئْتُ بِالصَّحِيحِ وَالصِّدْقِ فِيمَا سُئِلْتُ عَنْهُ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنِّي قَدْ خُنْتُهُ حِينَ قَرَفْتُهُ، وَقُلْتُ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوآ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ وَأَوْدَعْتُهُ السِّجْنَ –تُرِيدُ الِاعْتِذَارَ مِمَّا كَانَ مِنْهَا– إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي: إِلَّا نَفْسًا رَحِمَهَا اللَّهُ بِالْعِصْمَةِ كَنَفْسِ يُوسُفَ.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]: اسْتَغْفَرَتْ رَبَّهَا وَاسْتَرْحَمَتْهُ مِمَّا ارْتَكَبَتْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يُجْعَلَ مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ؟

قُلْتُ: كَفَى بِالْمَعْنَى دَلِيلًا قَائِدًا إِلَى أَنْ يُجْعَلَ مِنْ كَلَامِهِ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾[3]، كَلَامُ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾[4] بِسِحْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[5]: وَهُوَ مِنْ كَلَامِ فِرْعَوْنَ يُخَاطِبُهُمْ وَيَسْتَشِيرُهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: هَذَا مِنْ تَقْدِيمِ الْقُرْآنِ وَتَأْخِيرِهِ، ذَهَبَ إِلَى أَنَّ: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ": مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[6]، وَلَقَدْ لَفَّقَتِ الْمُبْطِلَةُ رِوَايَاتٍ مَصْنُوعَةً، فَزَعَمُوا أَنَّ يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[7]: قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: وَلَا حِينَ هَمَمْتَ بِهَا، وَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: وَلَا حِينَ حَلَلْتَ تِكَّةَ سَرَاوِيلِكَ يَا يُوسُفُ، وَذَلِكَ لِتَهَالُكِهِمْ عَلَى بُهْتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

---

[1] سورة يَس، الآية 43.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 109.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية 50.

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1]

يُقَالُ: اسْتَخْلَصَهُ وَاسْتَخَصَّهُ، إِذَا جَعَلَهُ خَالِصًا لِنَفْسِهِ وَخَاصًّا بِهِ.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾[2]: وَشَاهَدَ مِنْهُ مَا لَمْ يَحْتَسِبْ، ﴿قَالَ﴾[3]: أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾[4]: ذُو مَكَانَةٍ وَمَنْزِلَةٍ، ﴿أَمِينٌ﴾[5]: مُؤْتَمَنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

رُوِيَ أَنَّ الرَّسُولَ جَاءَهُ فَقَالَ: أَجِبِ الْمَلِكَ، فَخَرَجَ مِنَ السِّجْنِ وَدَعَا لِأَهْلِهِ: "اللَّهُمَّ، أَعْطِفْ عَلَيْهِمْ قُلُوبَ الْأَخْيَارِ، وَلَا تُعَمِّ عَلَيْهِمُ الْأَخْبَارَ، فَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأَخْبَارِ فِي الْوَاقِعَاتِ"؛ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ السِّجْنِ: هَذِهِ مَنَازِلُ الْبَلْوَى، وَقُبُورُ الْأَحْيَاءِ، وَشَمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ، وَتَجْرِبَةُ الْأَصْدِقَاءِ؛ ثُمَّ اغْتَسَلَ وَتَنَظَّفَ مِنْ دَرَنِ السِّجْنِ، وَلَبِسَ ثِيَابًا جُدَدًا.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، قَالَ: "اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ بِخَيْرِكَ مِنْ خَيْرِهِ، وَأَعُوذُ بِعِزَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ مِنْ شَرِّهِ"، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِ، وَدَعَا لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَقَالَ: مَا هَذَا اللِّسَانُ؟ قَالَ: لِسَانُ آبَائِي، وَكَانَ الْمَلِكُ يَتَكَلَّمُ بِسَبْعِينَ لِسَانًا، فَكَلَّمَهُ بِهَا فَأَجَابَهُ بِجَمِيعِهَا؛ فَتَعَجَّبَ مِنْهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ رُؤْيَايَ مِنْكَ، فَقَالَ: رَأَيْتُ بَقَرَاتٍ، فَوَصَفَ لَوْنَهُنَّ وَأَحْوَالَهُنَّ وَمَكَانَ خُرُوجِهِنَّ، وَوَصَفَ السَّنَابِلَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي رَآهَا الْمَلِكُ لَا يَخْرِمُ مِنْهَا حَرْفًا، وَقَالَ لَهُ: مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَجْمَعَ الطَّعَامَ فِي الْأَهْرَاءِ، فَيَأْتِيَكَ الْخَلْقُ مِنَ النَّوَاحِي يَمْتَارُونَ مِنْكَ، وَيَجْتَمِعُ لَكَ مِنَ الْكُنُوزِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[6]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾[1]: وَلِنِي خَزَائِنَ أَرْضِكَ

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[2]: أَمِينٌ أَحْفَظُ مَا تَسْتَحْفِظُنِيهِ، عَالِمٌ بِوُجُوهِ التَّصَرُّفِ، وَصْفًا لِنَفْسِهِ بِالْأَمَانَةِ وَالْكِفَايَةِ اللَّتَيْنِ هُمَا طِلْبَةُ الْمُلُوكِ مِمَّنْ يُوَلُّونَهُ.

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى إِمْضَاءِ أَحْكَامِ اللَّهِ –تَعَالَى–، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ، وَبَسْطِ الْعَدْلِ، وَالتَّمَكُّنِ مِمَّا لِأَجْلِهِ تُبْعَثُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى الْعِبَادِ، وَلِعِلْمِهِ أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ، فَطَلَبَ التَّوْلِيَةَ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ لَا لِحُبِّ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ، لَوْ لَمْ يُقِلِ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، لَاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَخَّرَ ذَلِكَ سَنَةً".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يَتَوَلَّى عَمَلًا مِنْ يَدِ كَافِرٍ، وَيَكُونُ تَبَعًا لَهُ وَتَحْتَ أَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ؟

قُلْتُ: رَوَى مُجَاهِدٌ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ، هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّى الْإِنْسَانُ عَمَلًا مِنْ يَدِ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَتَوَلَّوْنَ الْقَضَاءَ مِنْ جِهَةِ الْبُغَاةِ وَيَرَوْنَهُ.

وَإِذَا عَلِمَ النَّبِيُّ أَوِ الْعَالِمُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْحُكْمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ إِلَّا بِتَمْكِينِ الْمَلِكِ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاسِقِ، فَلَهُ أَنْ يَسْتَظْهِرَ بِهِ.

وَقِيلَ: كَانَ الْمَلِكُ يُصْدِرُ عَنْ رَأْيِهِ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَا رَأَى، فَكَانَ فِي حُكْمِ التَّابِعِ لَهُ وَالْمُطِيعِ.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]

﴿وَكَذَلِكَ﴾[4]: وَمِثْلَ ذَلِكَ التَّمْكِينِ الظَّاهِرِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[1]: فِي أَرْضِ مِصْرَ، رُوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ فَرْسَخًا فِي أَرْبَعِينَ.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[2]: قُرِئَ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيْ: كُلَّ مَكَانٍ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَهُ مَنْزِلًا وَمُتَبَوَّأً لَهُ، لَمْ يُمْنَعْ مِنْهُ، لِاسْتِيلَائِهِ عَلَى جَمِيعِهَا وَدُخُولِهِ تَحْتَ مِلْكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

رُوِيَ: أَنَّ الْمَلِكَ تَوَّجَهُ، وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ، وَرَدَّاهُ بِسَيْفِهِ، وَوَضَعَ لَهُ سَرِيرًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلًا بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ.

رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: أَمَّا السَّرِيرُ: فَأَشُدُّ بِهِ مُلْكَكَ، وَأَمَّا الْخَاتَمُ: فَأُدَبِّرُ بِهِ أَمْرَكَ؛ وَأَمَّا التَّاجُ: فَلَيْسَ مِنْ لِبَاسِي وَلَا لِبَاسِ آبَائِي، فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتُهُ إِجْلَالًا لَكَ، وَإِقْرَارًا بِفَضْلِكَ، فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ وَهَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَفَوَّضَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، وَعَزَلَ قِطْفِيرَ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَهُ، فَزَوَّجَهُ الْمَلِكُ امْرَأَتَهُ زُلَيْخَا.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِمَّا طَلَبْتِ؟ فَوَجَدَهَا عَذْرَاءَ، فَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ: إِفْرَاثِيمَ وَمِيشَا، وَأَقَامَ الْعَدْلَ بِمِصْرَ، وَأَحَبَّتْهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ الْمَلِكُ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَبَاعَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي سِنِي الْقَحْطِ الطَّعَامَ بِالدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا، ثُمَّ بِالْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ، ثُمَّ بِالدَّوَابِّ، ثُمَّ بِالضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ، ثُمَّ بِرِقَابِهِمْ حَتَّى اسْتَرَقَّهُمْ جَمِيعًا؛ فَقَالُوا: وَاللَّهِ، مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ مَلِكًا أَجَلَّ وَلَا أَعْظَمَ مِنْهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: كَيْفَ رَأَيْتَ صُنْعَ اللهِ بِي فِيمَا خَوَّلَنِي فِيمَا تَرَى؟ قَالَ: الرَّأْيُ رَأْيُكَ: قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأُشْهِدُكَ أَنِّي أَعْتَقْتُ أَهْلَ مِصْرَ عَنْ آخِرِهِمْ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ أَمْلَاكَهُمْ، وَكَانَ لَا يَبِيعُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُمْتَارِينَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ، تَقْسِيطًا بَيْنَ النَّاسِ، وَأَصَابَ أَرْضَ كَنْعَانَ وَبِلَادَ الشَّامِ نَحْوُ مَا أَصَابَ أَرْضَ مِصْرَ، فَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ بَنِيهِ لِيَمْتَارُوا وَاحْتَبَسَ بِنْيَامِينَ.

﴿بِرَحْمَتِنَا﴾[3]: بِعَطَائِنَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمُلْكِ وَالْغِنَى وَغَيْرِهِمَا مِنَ النِّعَمِ.

﴿مَنْ نَشَاءُ﴾[4]: مَنِ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ نَشَاءَ لَهُ ذَلِكَ.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5]: أَنْ نَأْجُرَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[6]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾[1]: لَهُمْ.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْمُؤْمِنُ: يُثَابُ عَلَى حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْفَاجِرُ: يُعَجَّلُ لَهُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[2]

لَمْ يَعْرِفُوهُ، لِطُولِ الْعَهْدِ، وَمُفَارَقَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي سِنِّ الْحَدَاثَةِ، وَلِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، وَلِذَهَابِهِ عَنْ أَوْهَامِهِمْ، لِقِلَّةِ فِكْرِهُمْ فِيهِ وَاهْتِمَامِهِمْ بِشَأْنِهِ، وَلِبُعْدِ حَالِهِ الَّتِي بَلَغَهَا مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ عَنْ حَالِهِ الَّتِي فَارَقُوهُ عَلَيْهَا طَرِيحًا فِي الْبِئْرِ، مَشْرِيًّا بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، حَتَّى لَوْ تُخَيِّلَ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ لَكَذَّبُوا أَنْفُسَهُمْ وَظُنُونَهُمْ، وَلِأَنَّ الْمُلْكَ مِمَّا يُبَدِّلُ الزِّيَّ وَيُلْبِسُ صَاحِبَهُ مِنَ التَّهَيُّبِ وَالِاسْتِعْظَامِ مَا يُنْكَرُ لَهُ الْمَعْرُوفُ.

وَقِيلَ: رَأَوْهُ عَلَى زِيِّ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ ثِيَابُ الْحَرِيرِ، جَالِسًا عَلَى سَرِيرٍ فِي عُنُقِهِ طَوْقٌ مِنْ ذَهَبٍ وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ، فَمَا خَطَرَ بِبَالِهِمْ أَنَّهُ هُوَ، وَقِيلَ: مَا رَأَوْهُ إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ وَحِجَابٌ، وَمَا وَقَفُوا إِلَّا حَيْثُ يَقِفُ طُلَّابُ الْحَوَائِجِ، وَإِنَّمَا عَرَفَهُمْ، لِأَنَّهُ فَارَقَهُمْ وَهُمْ رِجَالٌ، وَرَأَى زِيَّهُمْ قَرِيبًا مِنْ زِيِّهِمْ إِذْ ذَاكَ، وَلِأَنَّ هِمَّتَهُ كَانَتْ مَعْقُودَةً بِهِمْ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ، فَكَانَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَفَطَّنُ، وَعَنِ الْحَسَنِ: مَا عَرَفَهُمْ حَتَّى تَعَرَّفُوا لَهُ.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾[3]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾[1]، أَيْ: أَصْلَحَهُمْ بِعُدَّتِهِمْ، وَهِيَ عُدَّةُ السَّفَرِ مِنَ الزَّادِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسَافِرُونَ، وَأَوْقَرَ رَكَائِبَهُمْ بِمَا جَاؤُوا لَهُ مِنَ الْمِيرَةِ.

وَقُرِئَ: "بِجِهَازِهِمْ" بِكَسْرِ الْجِيمِ.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾[2]: لَا بُدَّ مِنْ مُقَدِّمَةٍ سَبَقَتْ لَهُ مَعَهُمْ، حَتَّى اجْتَرَّ الْقَوْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ.

رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا رَآهُمْ وَكَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، قَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي مَنْ أَنْتُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ؟ فَإِنِّي أُنْكِرُكُمْ، قَالُوا: نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ رُعَاةٌ، أَصَابَنَا الْجَهْدُ فَجِئْنَا نَمْتَارُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ جِئْتُمْ عُيُونًا تَنْظُرُونَ عَوْرَةَ بِلَادِي؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ، نَحْنُ إِخْوَةٌ بَنُو أَبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ شَيْخٌ صِدِّيقٌ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، اسْمُهُ: يَعْقُوبُ، قَالَ: كَمْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ، فَهَلَكَ مِنَّا وَاحِدٌ، قَالَ: فَكَمْ أَنْتُمْ هَهُنَا؟ قَالُوا: عَشْرَةٌ، قَالَ: فَأَيْنَ الْأَخُ الْحَادِيَ عَشَرَ؟ قَالُوا: هُوَ عِنْدَ أَبِيهِ يَتَسَلَّى بِهِ مِنَ الْهَالِكِ، قَالَ: فَمَنْ يَشْهَدُ لَكُمْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ بِعُيُونٍ، وَأَنَّ الَّذِي تَقُولُونَ حَقٌّ؟ قَالُوا: إِنَّا بِبِلَادٍ لَا يَعْرِفُنَا فِيهَا أَحَدٌ فَيَشْهَدُ لَنَا، قَالَ: فَدَعُوا بَعْضَكُمْ عِنْدِي رَهِينَةً وَائْتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، وَهُوَ يَحْمِلُ رِسَالَةً مِنْ أَبِيكُمْ حَتَّى أُصَدِّقَكُمْ؛ فَاقْتَرَعُوا بَيْنَهُمْ، فَأَصَابَتِ الْقُرْعَةُ شَمْعُونَ –وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ رَأْيًا فِي يُوسُفَ–، فَخَلَّفُوهُ عِنْدَهُ، وَكَانَ قَدْ أَحْسَنَ إِنْزَالَهُمْ وَضِيَافَتَهُمْ.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾[3]: فِيهِ وَجْهَانِ:

–أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي حُكْمِ الْجَزَاءِ مَجْزُومًا، عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ قَوْلِهِ: ﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ﴾[4]، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ تُحْرَمُوا وَلَا تَقْرَبُوا، وَأَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى النَّهْيِ.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾[5]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾[1]: سَنُخَادِعُهُ عَنْهُ، وَسَنَجْتَهِدُ وَنَحْتَالُ حَتَّى نَنْتَزِعَهُ مِنْ يَدِهِ.

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾[2]: وَإِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ لَا نَتَعَانَى بِهِ، أَوْ: وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ لَا نُفَرِّطُ فِيهِ وَلَا نَتَوَانَى.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]

﴿لِفِتْيَانِهِ﴾[4]: وَقُرِئَ: "لِفِتْيَتِهِ"، وَهُمَا جَمْعُ فَتًى، كَإِخْوَةٍ وَإِخْوَانٍ فِي "أَخٍ"، وَ"فِعْلَةٌ": لِلْقِلَّةِ، وَ"فِعْلَانٌ": لِلْكَثْرَةِ، أَيْ: لِغِلْمَانِهِ الْكَيَّالِينَ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾[5]: لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَ حَقَّ رَدِّهَا وَحَقَّ التَّكَرُّمِ بِإِعْطَاءِ الْبَدَلَيْنِ.

﴿إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾[6]: وَفَرَّغُوا ظُرُوفَهُمْ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[7]: لَعَلَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِذَلِكَ تَدْعُوهُمْ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْنَا، وَكَانَتْ بِضَاعَتُهُمُ النِّعَالَ وَالْأَدَمَ.

وَقِيلَ: تَخَوَّفَ أَلَّا يَكُونَ عِنْدَ أَبِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ مَا يَرْجِعُونَ بِهِ.

وَقِيلَ: لَمْ يَرَ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ثَمَنًا.

وَقِيلَ: عَلِمَ أَنَّ دِيَانَتَهُمْ تَحْمِلُهُمْ عَلَى رَدِّ الْبِضَاعَةِ لَا يَسْتَحِلُّونَ إِمْسَاكَهَا فَيَرْجِعُونَ لِأَجْلِهَا.

وَقِيلَ: مَعْنَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[8]: لَعَلَّهُمْ يَرُدُّونَهَا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾[2]، يُرِيدُونَ: قَوْلَ يُوسُفَ: فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي، لِأَنَّهُمْ إِذَا أُنْذِرُوا بِمَنْعِ الْكَيْلِ فَقَدْ مُنِعَ الْكَيْلُ.

﴿نَكْتَلْ﴾[3]: نَرْفَعِ الْمَانِعَ مِنَ الْكَيْلِ، وَنَكْتَلْ مِنَ الطَّعَامِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَقُرِئَ: "يَكْتَلْ"، بِمَعْنَى: يَكْتَلْ أَخُونَا، فَيَنْضَمُّ اكْتِيَالُهُ إِلَى اكْتِيَالِنَا، أَوْ يَكُنْ سَبَبًا لِلاكْتِيَالِ، فَإِنَّ امْتِنَاعَهُ بِسَبَبِهِ.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[4]

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾[5]: يُرِيدُ أَنَّكُمْ قُلْتُمْ فِي يُوسُفَ.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[6]: كَمَا تَقُولُونَهُ فِي أَخِيهِ، ثُمَّ خُنْتُمْ بِضَمَانِكُمْ، فَمَا يُؤَمِّنُنِي مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾[7]: فَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِيهِ وَدَفَعَهُ إِلَيْهِمْ.

وَ﴿حَافِظًا﴾[8]: تَمْيِيزٌ، كَقَوْلِكَ: هُوَ خَيْرُهُمْ رَجُلًا، وَلِلَّهِ دَرُّهُ فَارِسًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا وَقُرِئَ: "حِفْظًا".

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: "فَاللَّهُ خَيْرُ حَافِظٍ".

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة يُوسُفَ، الآية .
3 سورة يُوسُفَ، الآية .
4 سورة يُوسُفَ، الآية .
5 سورة يُوسُفَ، الآية .
6 سورة يُوسُفَ، الآية .
7 سورة يُوسُفَ، الآية .
8 سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "خَيْرُ الْحَافِظِينَ".

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1]: فَأَرْجُو أَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِحِفْظِهِ وَلَا يَجْمَعَ عَلَيَّ مُصِيبَتَيْنِ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[2]

وَقُرِئَ: "رِدَّتْ إِلَيْنَا" بِالْكَسْرِ، عَلَى أَنَّ كَسْرَةَ الدَّالِ الْمُدْغَمَةَ نُقِلَتْ إِلَى الرَّاءِ، كَمَا فِي: قِيلَ وَبِيعَ.

وَحَكَى قُطْرُبٌ ضِرِبَ زَيْدٌ، عَلَى نَقْلِ كَسْرَةِ الرَّاءِ فِيمَنْ سَكَّنَهَا إِلَى الضَّادِ.

﴿مَا نَبْغِي﴾[3]: لِلنَّفْيِ، أَيْ: مَا نَبْغِي فِي الْقَوْلِ، وَمَا نَتَزَيَّدُ فِيمَا وَصَفْنَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِ الْمَلِكِ وَإِكْرَامِهِ، وَكَانُوا قَالُوا لَهُ: إِنَّا قَدِمْنَا عَلَى خَيْرِ رَجُلٍ، أَنْزَلَنَا وَأَكْرَمَنَا كَرَامَةً لَوْ كَانَ رَجُلًا مِنْ آلِ يَعْقُوبَ مَا أَكْرَمَنَا كَرَامَتَهُ، أَوْ مَا نَبْتَغِي شَيْئًا وَرَاءَ مَا فَعَلَ بِنَا مِنَ الْإِحْسَانِ، أَوْ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ، بِمَعْنَى: أَيَّ شَيْءٍ نَطْلُبُ وَرَاءَ هَذَا؟

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "مَا تَبْغِي" بِالتَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ يَعْقُوبَ، مَعْنَاهُ: أَيَّ شَيْءٍ تَطْلُبُ وَرَاءَ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، أَوْ مِنَ الشَّاهِدِ عَلَى صِدْقِنَا؟

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: مَا نُرِيدُ مِنْكَ بِضَاعَةً أُخْرَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[4]: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُوَضِّحَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا نَبْغِي﴾[5]، وَالْجُمَلُ بَعْدَهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهَا، عَلَى مَعْنَى: إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا، فَنَسْتَظْهِرُ بِهَا.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾[6]: فِي رُجُوعِنَا إِلَى الْمَلِكِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾[1]: فَمَا يُصِيبُهُ شَيْءٌ مِمَّا تَخَافُهُ، وَنَزْدَادُ بِاسْتِصْحَابِ أَخِينَا وَسْقَ بَعِيرٍ زَائِدًا عَلَى أَوْسَاقِ أَبَاعِرِنَا، فَأَيَّ شَيْءٍ نَبْتَغِي وَرَاءَ هَذِهِ الْمَبَاغِي الَّتِي نَسْتَصْلِحُ بِهَا أَحْوَالَنَا وَنُوَسِّعُ ذَاتَ أَيْدِينَا؟

وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾[2]: لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَ لَا يَزِيدُ لِلرَّجُلِ عَلَى حِمْلِ بَعِيرٍ لِلتَّقْسِيطِ .

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا إِذَا فَسَّرْتَ الْبَغْيَ بِالطَّلَبِ، فَأَمَّا إِذَا فَسَّرْتَهُ بِالْكَذِبِ وَالتَّزَيُّدِ فِي الْقَوْلِ، كَانَتِ الْجُمْلَةُ الْأُوْلَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[3]: بَيَانًا لِصِدْقِهِمْ وَانْتِفَاءِ التَّزَيُّدِ عَنْ قِيلِهِمْ، فَمَا تَصْنَعُ بِالْجُمَلِ الْبَوَاقِي؟

قُلْتُ: أَعْطِفُهَا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا نَبْغِي﴾[4]: عَلَى مَعْنَى: لَا نَبْغِي فِيمَا نَقُولُ.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾[5]: وَنَفْعَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدَأً، كَقَوْلِكَ: وَيَنْبَغِي أَنْ نَمِيرَ أَهْلَنَا، كَمَا تَقُولُ: سَعَيْتُ فِي حَاجَةِ فُلَانٍ، وَاجْتَهَدْتُ فِي تَحْصِيلِ غَرَضِهِ، وَيَجِبُ أَنْ أَسْعَى، وَيَنْبَغِي لِي أَلَّا أُقَصِّرَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: مَا نَبْغِي، وَمَا نَنْطِقُ إِلَّا بِالصَّوَابِ فِيمَا نُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ تَجْهِيزِنَا مَعَ أَخِينَا، ثُمَّ قَالُوا: هَذِهِ بِضَاعَتُنَا نَسْتَظْهِرُ بِهَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَفْعَلُ وَنَصْنَعُ، بَيَانًا لِأَنَّهُمْ لَا يَبْغُونَ فِي رَأْيِهِمْ وَأَنَّهُمْ مُصِيبُونَ فِيهِ، وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ وَاضِحٌ.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[6]، أَيْ: ذَلِكَ مَكِيلٌ قَلِيلٌ لَا يَكْفِينَا، يَعْنُونَ: مَا يُكَالُ لَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَزْدَادُوا إِلَيْهِ مَا يُكَالُ لِأَخِيهِمْ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى كَيْلِ بَعِيرٍ، أَيْ: ذَلِكَ الْكَيْلُ شَيْءٌ قَلِيلٌ يُجِيبُنَا إِلَيْهِ الْمَلِكُ وَلَا يُضَايِقُنَا فِيهِ، أَوْ سَهْلٌ عَلَيْهِ مُتَيَسِّرٌ لَا يَتَعَاظَمُهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ يَعْقُوبَ، وَأَنَّ حِمْلَ بَعِيرٍ وَاحِدٍ شَيْءٌ يَسِيرٌ لَا يُخَاطِرُ لِمِثْلِهِ بِالْوَلَدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾[7].

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية 52.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[1]

﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾[2]: مُنَافٍ لِحَالِي –وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمْ مَا رَأَيْتُ– إِرْسَالَهُ مَعَكُمْ.

﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾[3]: حَتَّى تُعْطُونِي مَا أَتَوَثَّقُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَرَادَ أَنْ يَحْلِفُوا لَهُ بِاللَّهِ. وَإِنَّمَا جَعَلَ الْحَلِفَ بِاللَّهِ مَوْثِقًا مِنْهُ لِأَنَّ الْحِلْفَ بِهِ مِمَّا تُؤَكَّدُ بِهِ الْعُهُودُ وَتُشَدَّدُ، وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، فَهُوَ إِذْنٌ مِنْهُ.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾[4]: جَوَابُ الْيَمِينِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: حَتَّى تَحْلِفُوا لَتَأْتُنَّنِي بِهِ.

﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾[5]: إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا فَلَمْ تُطِيقُوا الْإِتْيَانَ بِهِ، أَوْ إِلَّا أَنْ تَهْلِكُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: أَخْبِرْنِي عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ فَفِيهِ إِشْكَالٌ؟

قُلْتُ: ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾[6]: مَفْعُولٌ لَهُ، وَالْكَلَامُ الْمُثْبَتُ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾[7] فِي تَأْوِيلِ النَّفْيِ، مَعْنَاهُ: لَا تَمْتَنِعُونَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِهِ إِلَّا لِلْإِحَاطَةِ بِكُمْ، أَيْ: لَا تَمْتَنِعُونَ مِنْهُ لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ إِلَّا لِعِلَّةٍ وَاحِدَةٍ: وَهِيَ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ أَعَمِّ الْعَامِّ فِي الْمَفْعُولِ لَهُ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ أَعَمِّ الْعَامِّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّفْيِ وَحْدَهُ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِهِ بِالنَّفْيِ.

وَنَظِيرُهُ مِنَ الْإِثْبَاتِ الْمُتَأَوَّلِ بِمَعْنَى النَّفْيِ قَوْلُهُمْ: أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَمَّا فَعَلْتَ وَإِلَّا فَعَلْتَ، تُرِيدُ: مَا أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا الْفِعْلَ.

﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾[8]: مِنْ طَلَبِ الْمَوْثِقِ وَإِعْطَائِهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَكِيلٌ﴾[1]: رَقِيبٌ مُطَّلِعٌ.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]

وَإِنَّمَا نَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي بَهَاءٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، اشْتَهَرَهُمْ أَهْلُ مِصْرَ بِالْقُرْبَةِ عِنْدَ الْمَلِكِ وَالتَّكْرُمَةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لِغَيْرِهِمْ، فَكَانُوا مَظِنَّةً لِطُمُوحِ الْأَبْصَارِ إِلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الْوُفُودِ، وَأَنْ يُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ أَضْيَافُ الْمَلِكِ، انْظُرُوا إِلَيْهِمْ مَا أَحْسَنَهُمْ مِنْ فِتْيَانٍ، وَمَا أَحَقَّهُمْ بِالْإِكْرَامِ، لِأَمْرٍ مَا أَكْرَمَهُمُ الْمَلِكُ وَقَرَّبَهُمْ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْوَافِدِينَ عَلَيْهِ، فَخَافَ لِذَلِكَ أَنْ يَدْخُلُوا كَوْكَبَةً وَاحِدَةً، فَيُعَانُوا لِجَمَالِهِمْ وَجَلَالَةِ أَمْرِهِمْ فِي الصُّدُورِ، فَيُصِيبُهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُوصِهِمْ بِالتَّفَرُّقِ فِي الْكَرَّةِ الْأُولَى، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَجْهُولِينَ مَغْمُورِينَ بَيْنَ النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِلْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ وَجْهٌ تَصِحُّ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُحْدِثَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ، نُقْصَانًا فِيهِ وَخَلَلًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ، وَامْتِحَانًا لِعِبَادِهِ، لِيَتَمَيَّزَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَشْوِ، فَيَقُولُ الْمُحَقِّقُ: هَذَا فِعْلُ اللَّهِ.

وَيَقُولُ الْحَشَوِيُّ: هُوَ أَثَرُ الْعَيْنِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]، الْآيَةُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنَّهُ كَانَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَيَقُولُ: أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ".

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة الْمُدَّثِّرُ، الآية 31.

﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ شَيْءٍ﴾[1]، يَعْنِي: إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ سُوآ، لَمْ يَنْفَعْكُمْ، وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْكُمْ مَا أَشَرْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّفَرُّقِ، وَهُوَ مُصِيبُكُمْ لَا مَحَالَةَ.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ﴾[2].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾[3]، أَيْ: مُتَفَرِّقِينَ.

﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾[4]: رَأْيُ يَعْقُوبَ وَدُخُولُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ شَيْئًا قَطُّ، حَيْثُ أَصَابَهُمْ مَا سَاءَهُمْ مَعَ تَفَرُّقِهِمْ، مِنْ إِضَافَةِ السَّرِقَةِ إِلَيْهِمْ وَافْتِضَاحِهِمْ بِذَلِكَ، وَأَخْذِ أَخِيهِمْ بِوِجْدَانِ الصُّوَاعِ فِي رَحْلِهِ، وَتَضَاعُفِ الْمُصِيبَةِ عَلَى أَبِيهِمْ.

﴿إِلاَّ حَاجَةً﴾[5]: اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، عَلَى مَعْنَى: وَلَكِنْ حَاجَةً.

﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[6]: وَهِيَ شَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ، وَإِظْهَارُهَا بِمَا قَالَهُ لَهُمْ وَوَصَّاهُمْ بِهِ.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾[7]، يَعْنِي: قَوْلَهُ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ﴾[8]، وَعِلْمَهُ بِأَنَّ الْقَدَرَ لَا يُغْنِي عَنْهُ الْحَذَرُ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[9]

﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[10]: ضَمَّ إِلَيْهِ بِنْيَامِينَ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .
[9] سورة يُوسُفَ، الآية .
[10] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَرُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: هَذَا أَخُونَا قَدْ جِئْنَاكَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَحْسَنْتُمْ وَأَصَبْتُمْ، وَسَتَجِدُونَ ذَلِكَ عِنْدِي، فَأَنْزَلَهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ، ثُمَّ أَضَافَهُمْ وَأَجْلَسَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلَى مَائِدَةٍ، فَبَقِيَ بِنْيَامِينُ وَحْدَهُ، فَبَكَى وَقَالَ: لَوْ كَانَ أَخِي يُوسُفُ حَيًّا لَأَجْلَسَنِي مَعَهُ، فَقَالَ يُوسُفُ: بَقِيَ أَخُوكُمْ وَحِيدًا، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى مَائِدَتِهِ وَجَعَلَ يُوَاكِلُهُ، قَالَ: أَنْتُمْ عَشْرَةٌ، فَلْيَنْزِلْ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنْكُمْ بَيْتًا. وَهَذَا لَا ثَانِيَ لَهُ، فَيَكُونُ مَعِي.

فَبَاتَ يُوسُفُ يَضُمُّهُ إِلَيْهِ وَيَشُمُّ رَائِحَتَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، وَسَأَلَهُ عَنْ وَلَدِهِ؟ فَقَالَ: لِي عَشَرَةُ بَنِينَ اشْتَقَقْتُ أَسْمَاءَهُمْ مِن اسْمِ أَخٍ لِي هَلَكَ، فَقَالَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَخَاكَ بَدَلَ أَخِيكَ الْهَالِكِ؟ قَالَ: مَنْ يَجِدُ أَخًا مِثْلَكَ، وَلَكِنْ لَمْ يَلِدْكَ يَعْقُوبُ وَلَا رَاحِيلُ.

فَبَكَى يُوسُفُ، وَقَامَ إِلَيْهِ، وَعَانَقَهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾[1]: يُوسُفُ.

﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾[2]: فَلَا تَحْزَنْ.

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]: بِنَا فِيمَا مَضَى، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا وَجَمَعَنَا عَلَى خَيْرٍ، وَلَا تُعْلِمْهُمْ بِمَا أَعْلَمْتُكَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَعَرَّفَ إِلَيْهِ.

وَعَنْ وَهْبٍ: إِنَّمَا قَالَ لَهُ: أَنَا أَخُوكَ بَدَلَ أَخِيكَ الْمَفْقُودِ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كُنْتَ تَلْقَى مِنْهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْأَذَى فَقَدْ أَمِنْتَهُمْ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: أَنَا لَا أُفَارِقُكَ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ اغْتِمَامَ وَالِدِي بِي، فَإِذَا حَبَسْتُكَ ازْدَادَ غَمُّهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَنْسِبَكَ إِلَى مَا لَا يَجْمُلُ، قَالَ: لَا أُبَالِي فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَدُسُّ صَاعِي فِي رَحْلِكَ، ثُمَّ أُنَادِي عَلَيْكَ بِأَنَّكَ قَدْ سَرَقْتَهُ، لِيَتَهَيَّأَ لِي رَدُّكَ بَعْدَ تَسْرِيحِكَ مَعَهُمْ، قَالَ: افْعَلْ.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[4]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿السِّقَايَةَ﴾[1]: مَشْرَبَةٌ يُسْقَى بِهَا، وَهِيَ الصُّوَاعُ.

قِيلَ: كَانَ يُسْقَى بِهَا الْمَلِكُ، ثُمَّ جُعِلَتْ صَاعًا يُكَالُ بِهِ. وَقِيلَ: كَانَتِ الدَّوَابُّ تُسْقَى بِهَا وَيُكَالُ بِهَا. وَقِيلَ: كَانَتْ إِنَاءً مُسْتَطِيلًا يُشْبِهُ الْمَكُّوكَ.

وَقِيلَ: هِيَ الْمَكُّوكُ الْفَارِسِيُّ الَّذِي يَلْتَقِي طَرَفَاهُ تَشْرَبُ بِهِ الْأَعَاجِمُ. وَقِيلَ: كَانَتْ مِنْ فِضَّةٍ مُمَوَّهَةٍ بِالذَّهَبِ، وَقِيلَ: كَانَتْ مِنْ ذَهَبٍ، وَقِيلَ: كَانَتْ مُرَصَّعَةً بِالْجَوَاهِرِ.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾[2]: ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ، يُقَالُ: آذَنَهُ أَعْلَمَهُ، وَأَذَّنَ: أَكْثَرَ الْإِعْلَامَ، وَمِنْهُ الْمُؤَذِّنُ، لِكَثْرَةِ ذَلِكَ مِنْهُ.

رُوِيَ: أَنَّهُمُ ارْتَحَلُوا، وَأَمْهَلَهُمْ يُوسُفُ حَتَّى انْطَلَقُوا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَأُدْرِكُوا وَحُبِسُوا، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَالْعِيرُ: الْإِبِلُ الَّتِي عَلَيْهَا الْأَحْمَالُ، لِأَنَّهَا تُعِيرُ، أَيْ: تَذْهَبُ وَتَجِيءُ.

وَقِيلَ: هِيَ قَافِلَةُ الْحَمِيرِ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ قَافِلَةٍ: عِيرٌ، كَأَنَّهَا جَمْعُ عِيرٍ، وَأَصْلُهَا: فَعْلٌ كَسَقْفٍ وَسَقُفٌ، فُعِلَ بِهِ مَا فُعِلَ بِبَيْضٍ وَعِيدٍ.

وَالْمُرَادُ: أَصْحَابُ الْعِيرِ كَقَوْلِهِ: "يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي".

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "وَجَعَلَ السِّقَايَةَ"، عَلَى حَذْفِ جَوَابِ ﴿لَمَّا﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ، وَجَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، أَمْهَلَهُمْ حَتَّى انْطَلَقُوا، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ.

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: "تُفْقِدُونَ": مِنْ أَفْقَدْتُهُ إِذَا وَجَدْتَهُ فَقِيدًا.

وَقُرِئَ: "صُوَاعَ"، "وَصَاعَ"، "وَصَوْعَ"، "وَصُوعَ": بِفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا، وَالْعَيْنُ مُعْجَمَةً وَغَيْرَ مُعْجَمَةٍ.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾[4]: يَقُولُهُ الْمُؤَذِّنُ، يُرِيدُ: وَأَنَا بِحِمْلِ الْبَعِيرِ كَفِيلٌ، أُؤَدِّيهِ إِلَى مَنْ جَاءَ بِهِ، وَأَرَادَ وَسْقَ بَعِيرٍ مِنْ طَعَامٍ جُعْلًا لِمَنْ حَصَّلَهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[1]

﴿تَاللَّهِ﴾[2]: قَسَمٌ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مِمَّا أُضِيفَ إِلَيْهِمْ.

وَإِنَّمَا قَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾[3]: فَاسْتَشْهَدُوا بِعِلْمِهِمْ، لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ مِنْ دَلَائِلِ دِينِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ فِي كَرَّتَيْ مَجِيئِهِمْ وَمُدَاخَلَتِهِمْ لِلْمَلِكِ، وَلِأَنَّهُمْ دَخَلُوا وَأَفْوَاهُ رَوَاحِلِهِمْ مَكْعُومَةٌ، لِئَلَّا تَتَنَاوَلَ زَرْعًا أَوْ طَعَامًا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ السُّوقِ، وَلِأَنَّهُمْ رَدُّوا بِضَاعَتَهُمُ الَّتِي وَجَدُوهَا فِي رِحَالِهِمْ.

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[4]: وَمَا كُنَّا قَطُّ نُوصَفُ بِالسَّرِقَةِ، وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِحَالِنَا.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[5]

﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾[6]: الضَّمِيرُ: لِلصُّوَاعِ، أَيْ: فَمَا جَزَاءُ سَرِقَتِهِ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾[7]: فِي جُحُودِكُمْ وَادِّعَائِكُمُ الْبَرَاءَةَ مِنْهُ.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾[8]، أَيْ: جَزَاءُ سَرِقَتِهِ أُخِذَ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، وَكَانَ حُكْمُ السَّارِقِ فِي آلِ يَعْقُوبَ أَنْ يُسْتَرَقَّ سَنَةً، فَلِذَلِكَ اسْتُفْتُوا فِي جَزَائِهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقَوْلُهُمْ: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾[1]: تَقْرِيرٌ لِلْحُكْمِ، أَيْ: فَأَخْذُ السَّارِقِ نَفْسِهِ، وَهُوَ جَزَاؤُهُ لَا غَيْرُ، كَقَوْلِكَ: حَقُّ زَيْدٍ أَنْ يُكْسَى وَيُطْعَمُ وَيُنْعَمُ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ حَقُّهُ، أَيْ: فَهُوَ حَقُّهُ، لِتُقَرِّرَ مَا ذَكَرْتَهُ مِن اسْتِحْقَاقِهِ وَتُلْزِمَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿جَزَاؤُهُ﴾[2]: مُبْتَدَأً، وَالْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ كَمَا هِيَ خَبَرُهُ، عَلَى إِقَامَةِ الظَّاهِرِ فِيهَا مَقَامَ الْمُضْمَرِ.

وَالْأَصْلُ: جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ هُوَ، فَوَضَعَ الْجَزَاءَ مَوْضِعَ هُوَ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: مَنْ أَخُو زَيْدٍ؟ فَيَقُولُ لَكَ: أَخُوهُ مَنْ يَقْعُدُ إِلَى جَنْبِهِ، فَهُوَ هُوَ، يَرْجِعُ الضَّمِيرُ الْأَوَّلُ: إِلَى ﴿مَنْ﴾[3]، وَالثَّانِي: إِلَى "الْأَخِ"، ثُمَّ تَقُولُ: "فَهُوَ أَخُوهُ": مُقِيمًا لِلْمُظْهَرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جَزَاؤُهُ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: الْمَسْؤُولُ عَنْهُ جَزَاؤُهُ.

ثُمَّ أَفْتَوْا بِقَوْلِهِمْ: مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، كَمَا يَقُولُ: مَنْ يَسْتَفْتِي فِي جَزَاءِ صَيْدِ الْمُحْرِمِ جَزَاءُ صَيْدِ الْمُحْرِمِ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾[4].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[5]

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾[6]: قِيلَ: قَالَ لَهُمْ مَنْ وَكَّلَ بِهِمْ: لَا بُدَّ مِنْ تَفْتِيشِ أَوْعِيَتِكُمْ، فَانْصَرَفَ بِهِمْ إِلَى يُوسُفَ، فَبَدَأَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ بِنْيَامِينَ، لِنَفْيِ التُّهْمَةِ حَتَّى بَلَغَ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 95.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وِعَاءَهُ، فَقَالَ: مَا أَظُنُّ هَذَا أَخَذَ شَيْئًا، فَقَالُوا: وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُهُ حَتَّى تَنْظُرَ فِي رَحْلِهِ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِنَفْسِكَ وَأَنْفُسِنَا، فَاسْتَخْرَجُوهُ مِنْهُ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "وُعَاءِ أَخِيهِ" بِضَمِّ الْوَاوِ، وَهِيَ لُغَةٌ.

وَقَرَأَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ: "إِعَاءِ أَخِيهِ" بِقَلْبِ الْوَاوِ هَمْزَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَّرَ ضَمِيرَ الصُّوَاعِ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَنَّثَهُ؟

قُلْتُ: قَالُوا: رَجَعَ بِالتَّأْنِيثِ عَلَى السِّقَايَةِ، أَوْ أَنَّثَ الصُّوَاعَ، لِأَنَّهُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ. وَلَعَلَّ يُوسُفَ كَانَ يُسَمِّيهِ سِقَايَةً وَعَبِيدُهُ صُواعًا، فَقَدْ وَقَعَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ سِقَايَةً، وَفِيمَا يَتَّصِلُ بِهِمْ مِنْهُ صُوَاعًا.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا﴾[1]: مِثْلَ ذَلِكَ الْكَيْدِ الْعَظِيمِ كِدْنَا.

﴿قَالَ يُوسُفُ﴾[2]، يَعْنِي: عَلَّمْنَاهُ إِيَّاهُ وَأَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْهِ.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[3]: تَفْسِيرٌ لِلْكَيْدِ وَبَيَانٌ لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي دِينِ مَلِكِ مِصْرَ، وَمَا كَانَ يَحْكُمُ بِهِ فِي السَّارِقِ أَنْ يُغَرَّمَ مِثْلَيْ مَا أَخَذَ، لَا أَنْ يُلْزَمَ وَيَسْتَعْبَدَ.

﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4]، أَيْ: مَا كَانَ يَأْخُذُهُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ فِيهِ.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾[5]: فِي الْعِلْمِ كَمَا رَفَعْنَا دَرَجَةَ يُوسُفَ فِيهِ.

وَقُرِئَ: "يَرْفَعُ" بِالْيَاءِ، وَدَرَجَاتٍ بِالتَّنْوِينِ.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[6]: فَوْقَهُ أَرْفَعُ دَرَجَةً مِنْهُ فِي عِلْمِهِ، أَوْ فَوْقَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ عَلِيمٌ هُمْ دُونَهُ فِي الْعِلْمِ، وَهُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَعَلَا–.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَسَنًا، فَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ حَسَنٍ هَذَا الْكَيْدُ؟ وَمَا هُوَ إِلَّا بُهْتَانٌ، وَتَسْرِيقٌ لِمَنْ لَمْ يَسْرِقْ، وَتَكْذِيبٌ لِمَنْ لَمْ يَكْذِبْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ، فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾[7]؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُلْتُ: هُوَ فِي صُورَةِ الْبُهْتَانِ، وَلَيْسَ بِبُهْتَانٍ فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[1]: تَوْرِيَةٌ عَمَّا جَرَى مَجْرَى السَّرِقَةِ مِنْ فِعْلِهِمْ بِيُوسُفَ.

وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنَ الْمُؤَذِّنِ لَا مِنْ يُوسُفَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾[2]، فَرْضٌ لِانْتِفَاءِ بَرَاءَتِهِمْ، وَفَرْضُ التَّكْذِيبِ لَا يَكُونُ تَكْذِيبًا، عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَرَّحَ لَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ، كَمَا صَرَّحَ لَهُمْ بِالتَّسْرِيقِ، لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[3].

هَذَا وَحُكْمُ هَذَا الْكَيْدِ حُكْمُ الْحِيَلِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَصَالِحَ وَمَنَافِعَ دِينِيَّةٍ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى- لِأَيُّوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[4]، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ جَلْدِهَا وَلَا يَحْنَثَ، وَكَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: هِيَ أُخْتِي، لِتَسْلَمَ مِنْ يَدِ الْكَافِرِ، وَمَا الشَّرَائِعُ كُلُّهَا إِلَّا مَصَالِحُ وَطُرُقٌ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَفَاسِدِ.

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ -تَعَالَى- فِي هَذِهِ الْحِيلَةِ الَّتِي لَقَّنَهَا يُوسُفَ مَصَالِحَ عَظِيمَةً، فَجَعَلَهَا سُلَّمًا وَذَرِيعَةً إِلَيْهَا، فَكَانَتْ حَسَنَةً جَمِيلَةً، وَانْزَاحَتْ عَنْهَا وُجُوهُ الْقُبْحِ لِمَا ذَكَرْنَا.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[5]

﴿أَخٌ لَهُ﴾[6]: أَرَادُوا يُوسُفَ، رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَخْرَجُوا الصَّاعَ مِنْ رَحْلِ بِنْيَامِينَ نَكَّسَ إِخْوَتُهُ رُؤُوسَهُمْ حَيَاءً، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ، وَقَالُوا لَهُ: مَا الَّذِي صَنَعْتَ؟ فَضَحْتَنَا وَسَوَّدْتَ وُجُوهَنَا، يَا بُنَيَّ رَاحِيلَ، مَا يَزَالُ لَنَا مِنْكُمْ بَلَاءٌ، مَتَى أَخَذْتَ هَذَا الصَّاعَ؟ فَقَالَ: بَنُو رَاحِيلَ الَّذِينَ لَا يُزَالُ مِنْكُمْ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، ذَهَبْتُمْ بِأَخِي فَأَهْلَكْتُمُوهُ، وَوَضَعَ هَذَا الصُّوَاعَ فِي رَحْلِي الَّذِي وَضَعَ الْبِضَاعَةَ فِي رِحَالِكُمْ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَاخْتُلِفَ فِيمَا أَضَافُوا إِلَى يُوسُفَ مِنَ السَّرِقَةِ، فَقِيلَ: كَانَ أُخِذَ فِي صِبَاهُ صَنَمًا لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ، فَكَسَرَهُ، وَأَلْقَاهُ بَيْنَ الْجِيَفِ فِي الطَّرِيقِ؛ وَقِيلَ: دَخَلَ كَنِيسَةً فَأَخَذَ تِمْثَالًا صَغِيرًا مِنْ ذَهَبٍ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ فَدَفَنَهُ؛ وَقِيلَ: كَانَتْ فِي الْمَنْزِلِ عَنَاقٌ أَوْ دَجَاجَةٌ فَأَعْطَاهَا السَّائِلَ؛ وَقِيلَ كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– مِنْطَقَةٌ يَتَوَارثُهَا أَكَابِرُ وَلَدِهِ، فَوَرِثَهَا إِسْحَاقُ ثُمَّ وَقَعَتْ إِلَى ابْنَتِهِ وَكَانَتْ أَكْبَرَ أَوْلَادِهِ، فَحَضَنَتْ يُوسُفَ –وَهِيَ عَمَّتُهُ– بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّهِ وَكَانَتْ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ.

فَلَمَّا شَبَّ، أَرَادَ يَعْقُوبُ أَنْ يَنْتَزِعَهُ مِنْهَا، فَعَمَدَتْ إِلَى الْمِنْطَقَةِ فَحَزَمَتْهَا عَلَى يُوسُفَ تَحْتَ ثِيَابِهِ، وَقَالَتْ: فُقِدَتْ مِنْطَقَةُ إِسْحَاقَ، فَانْظُرُوا مَنْ أَخَذَهَا، فَوَجَدُوهَا مَحْزُومَةً عَلَى يُوسُفَ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ لِي سِلْمٌ أَفْعَلُ بِهِ مَا شِئْتُ، فَخَلَّاهُ يَعْقُوبُ عِنْدَهَا حَتَّى مَاتَتْ.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾[1]: إِضْمَارٌ عَلَى شَرِيطَةِ التَّفْسِيرِ، تَفْسِيرُهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾[2].

وَإِنَّمَا أَنَّثَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾[3]: جُمْلَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ، عَلَى تَسْمِيَتِهِمُ الطَّائِفَةَ مِنَ الْكَلَامِ كَلِمَةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَأَسَرَّ الْجُمْلَةَ أَوِ الْكَلِمَةَ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾[4].

وَالْمَعْنَى: قَالَ فِي نَفْسِهِ: أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾[5]: بَدَلٌ مِنْ "أَسَرَّهَا".

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: "فَأَسَرَّهُ"، عَلَى التَّذْكِيرِ، يُرِيدُ الْقَوْلَ أَوِ الْكَلَامَ.

وَمَعْنَى: ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾[6]: أَنْتُمْ شَرٌّ مَنْزِلَةً فِي السَّرِقِ، لِأَنَّكُمْ سَارِقُونَ بِالصِّحَّةِ، لِسِرْقَتِكُمْ أَخَاكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[7]: يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ لِي وَلَا لِأَخِي سَرِقَةٌ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَصِفُونَ .

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]

اسْتَعْطَفُوهُ بِإِذْكَارِهِمْ إِيَّاهُ حَقَّ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ، وَأَنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرُ السِّنِّ أَوْ كَبِيرُ الْقَدْرِ، وَأَنَّ بِنْيَامِينَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا قَدْ أَخْبَرُوهُ بِأَنَّ وَلَدًا لَهُ قَدْ هَلَكَ، وَهُوَ عَلَيْهِ ثَكْلَانُ، وَأَنَّهُ مُسْتَأْنِسٌ بِأَخِيهِ.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾[2]: فَخُذْهُ بَدَلَهُ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِرْهَانِ أَوِ الِاسْتِعْبَادِ.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]: إِلَيْنَا فَأَتْمِمْ إِحْسَانَكَ، أَوْ مِنْ عَادَتِكَ الْإِحْسَانُ فَاجْرِ عَلَى عَادَتِكَ وَلَا تُغَيِّرْهَا.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[4]

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾[5]: هُوَ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ، ظَاهِرُهُ: أَنَّهُ وَجَبَ عَلَى قَضِيَّةِ فَتْوَاكُمْ أَخْذُ مَنْ وُجِدَ الصُّوَاعُ فِي رَحْلِهِ وَاسْتِعْبَادُهُ؛ فَلَوْ أَخَذْنَا غَيْرَهُ، كَانَ ذَلِكَ ظُلْمًا فِي مَذْهَبِكُمْ؛ فَلِمَ تَطْلُبُونَ مَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ ظُلْمٌ؟!

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَبَاطِنُهُ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي وَأَوْحَى إِلَيَّ بِأَخْذِ بِنْيَامِينَ وَاحْتِبَاسِهِ لِمَصْلَحَةٍ أَوْ لِمَصَالِحَ جَمَّةٍ عَلِمَهَا فِي ذَلِكَ؛ فَلَوْ أَخَذْتُ غَيْرَ مَنْ أَمَرَنِي بِأَخْذِهِ، كُنْتُ ظَالِمًا وَعَامِلًا عَلَى خِلَافِ الْوَحْيِ.

وَمَعْنَى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ﴾[1]: نَعُوذُ بِاللَّهِ مَعَاذًا مِنْ أَنْ نَأْخُذَ، فَأُضِيفَ الْمَصْدَرُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ وَحُذِفَ "مِنْ".

وَ﴿إِذًا﴾[2]: جَوَابٌ لَهُمْ وَجَزَاءٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ أَخَذْنَا بَدَلَهُ ظَلَمْنَا.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[3]

﴿اسْتَيْأَسُوا﴾[4]: يَئِسُوا، وَزِيَادَةُ السِّينِ وَالتَّاءِ فِي الْمُبَالَغَةِ، نَحْوَ: مَا مَرَّ فِي اسْتَعْصَمَ.

وَ"النَّجِيُّ": عَلَى مَعْنَيَيْنِ: يَكُونُ بِمَعْنَى: الْمُنَاجِي، كَالْعَشِيرِ وَالسَّمِيرِ بِمَعْنَى: الْمُعَاشِرِ وَالْمُسَامِرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[5]، وَبِمَعْنَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ التَّنَاجِي، كَمَا قِيلَ: النَّجْوَى، بِمَعْنَاهُ، وَمِنْهُ قِيلَ: قَوْمٌ نَجِيٌّ، كَمَا قِيلَ: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[6]، تَنْزِيلًا لِلْمَصْدَرِ مَنْزِلَةَ الْأَوْصَافِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هُمْ نَجِيٌّ، كَمَا قِيلَ: هُمْ صَدِيقٌ، لِأَنَّهُ بِزِنَةِ الْمَصَادِرِ وَجَمْعُ أَنْجِيَةٍ.

قَالَ:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ

وَمَعْنَى ﴿خَلَصُوا﴾[7]: اعْتَزَلُوا وَانْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ، خَالِصِينَ لَا يُخَالِطُهُمْ سِوَاهُمْ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة مَرْيَمَ، الآية 52.

[6] سورة الْإِسْرَاءِ، الآية 17.

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿نَجِيًّا﴾[1]: ذَوِي نَجْوَى، أَوْ فَوْجًا نَجِيًّا، أَيْ: مُنَاجِيًا لِمُنَاجَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَأَحْسَنُ مِنْهُ أَنَّهُمْ تَمَحَّضُوا تَنَاجِيًا، لِاسْتِجْمَاعِهِمْ لِذَلِكَ، وَإِفَاضَتِهِمْ فِيهِ بِجِدٍّ وَاهْتِمَامٍ، كَأَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ صُورَةُ التَّنَاجِي وَحَقِيقَتُهُ، وَكَانَ تَنَاجِيهِمْ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِهِمْ، عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يَذْهَبُونَ؟ وَمَاذَا يَقُولُونَ لِأَبِيهِمْ فِي شَأْنِ أَخِيهِمْ؟ كَقَوْمٍ تَعَايَوْا بِمَا دَهَمَهُمْ مِنَ الْخَطْبِ، فَاحْتَاجُوا إِلَى التَّشَاوُرِ.

﴿كَبِيرُهُمْ﴾[2]: فِي السِّنِّ وَهُوَ رُوبِيلُ، وَقِيلَ: رَئِيسُهُمْ وَهُوَ شَمْعُونُ.

وَقِيلَ: كَبِيرُهُمْ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَهُوَ يَهُوذَا.

﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾[3]: فِيهِ وُجُوهٌ: أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾[4]: صِلَةً، أَيْ: وَمِنْ قَبْلِ هَذَا قَصَّرْتُمْ فِي شَأْنِ يُوسُفَ، وَلَمْ تَحْفَظُوا عَهْدَ أَبِيكُمْ، وَأَنْ تَكُونَ مَصْدَرِيَّةً، عَلَى أَنَّ مَحَلَّ الْمَصْدَرِ الرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ وَخَبَرُهُ الظَّرْفُ، وَهُوَ "مِنْ قَبْلُ".

وَمَعْنَاهُ: وَوَقَعَ مِنْ قَبْلُ تَفْرِيطُكُمْ فِي يُوسُفَ، أَوِ النُّصْبُ عَطْفًا عَلَى مَفْعُولِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾[5]، وَهُوَ ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ﴾[6]، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَخْذَ أَبِيكُمْ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا وَتَفْرِيطَكُمْ مِنْ قَبْلُ فِي يُوسُفَ؟ وَأَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً بِمَعْنَى: وَمِنْ قَبْلُ هَذَا مَا فَرَّطْتُمُوهُ، أَيْ: قَدَّمْتُمُوهُ فِي حَقِّ يُوسُفَ مِنَ الْجِنَايَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَحَلُّهُ الرَّفْعُ أَوِ النَّصْبُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾[7]: فَلَنْ أُفَارِقَ أَرْضَ مِصْرَ، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾[8]: فِي الِانْصِرَافِ إِلَيْهِ، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾[9]: بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، أَوْ بِالِانْتِصَافِ مِمَّنْ أَخَذَ أَخِي، أَوْ بِخَلَاصِهِ مِنْ يَدِهِ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[10]، لِأَنَّهُ لَا يَحْكُمُ أَبَدًا إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .
[9] سورة يُوسُفَ، الآية .
[10] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[1]

وَقُرِئَ: "سُرِّقَ"، أَيْ: نُسِبَ إِلَى السَّرِقَةِ.

﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾[2]: عَلَيْهِ بِالسَّرِقَةِ.

﴿إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾[3]: مِنْ سَرِقَتِهِ وَتَيَقَّنَاهُ، لِأَنَّ الصُّوَاعَ اسْتُخْرِجَ مِنْ وِعَائِهِ وَلَا شَيْءَ أَبْيَنُ مِنْ هَذَا.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[4]: وَمَا عَلِمْنَا أَنَّهُ سَيَسْرِقُ حِينَ أَعْطَيْنَاكَ الْمَوْثِقَ، أَوْ مَا عَلِمْنَا أَنَّكَ تُصَابُ بِهِ كَمَا أُصِبْتَ بِيُوسُفَ.

وَمَنْ قَرَأَ: "سُرِّقَ"، فَمَعْنَاهُ: وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِقَدْرِ مَا عَلِمْنَا مِنَ التَّسْرِيقِ، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ: لِلْأَمْرِ الْخَفِيِّ حَافِظِينَ، أَسَرَقَ بِالصِّحَّةِ أَمْ دُسَّ الصَّاعُ فِي رَحْلِهِ وَلَمْ يَشْعُرْ.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[5]

﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[6]: هِيَ مِصْرُ، أَيْ: أَرْسِلْ إِلَى أَهْلِهَا فَسَلْهُمْ عَنْ كُنْهِ الْقِصَّةِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[1]: وَأَصْحَابُ الْعِيرِ، وَكَانُوا قَوْمًا مِنْ كَنْعَانَ مِنْ جِيرَانِ يَعْقُوبَ، وَقِيلَ: مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ، مَعْنَاهُ: فَرَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ، فَقَالُوا لَهُ مَا قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ: فَ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[2]: أَرَدْتُمُوهُ.

وَإِلَّا فَمَا أَدْرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ أَنَّ السَّارِقَ يُؤْخَذُ بِسَرِقَتِهِ لَوْلَا فَتْوَاكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ، ﴿بِهِمْ جَمِيعًا﴾[3]: بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ وَرُوبِيلَ أَوْ غَيْرِهِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾[4]: بِحَالِي فِي الْحُزْنِ وَالْأَسَفِ.

﴿الْحَكِيمُ﴾[5]: الَّذِي لَمْ يَبْتَلِنِي بِذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَمَصْلَحَةٍ.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[6]

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾[7]: وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، كَرَاهَةً لِمَا جَاؤُوا بِهِ.

﴿يَا أَسَفَى﴾[8]: أَضَافَ الْأَسَفَ وَهُوَ أَشَدُّ الْحُزْنِ وَالْحَسْرَةِ إِلَى نَفْسِهِ، وَالْأَلِفُ بَدَلٌ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، وَالتَّجَانُسُ بَيْنَ لَفْظَتَيِ الْأَسَفِ وَيُوسُفَ مِمَّا يَقَعُ مَطْبُوعًا غَيْرَ مُتَعَمِّلٍ فَيُمْلَحُ وَيُبْدَعُ، وَنَحْوُهُ: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾[9]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[10]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾[11]، ﴿مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾[12].

---

1 سورة يُوسُفَ، الآية .
2 سورة يُوسُفَ، الآية .
3 سورة يُوسُفَ، الآية .
4 سورة يُوسُفَ، الآية .
5 سورة يُوسُفَ، الآية .
6 سورة يُوسُفَ، الآية .
7 سورة يُوسُفَ، الآية .
8 سورة يُوسُفَ، الآية .
9 سورة التَّوْبَةُ، الآية 38.
10 سورة النَّمْلُ، الآية 22.
11 سورة النَّمْلُ، الآية 22.
12 سورة النَّمْلُ، الآية 22.

وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَمْ تُعْطَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ -إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ- عِنْدَ الْمُصِيبَةِ إِلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-".

أَلَا تَرَى إِلَى يَعْقُوبَ حِينَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَسْتَرْجِعْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿يَا أَسَفي﴾[1]؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَأَسَّفَ عَلَى يُوسُفَ دُونَ أَخِيهِ وَدُونَ الثَّالِثِ، وَالرُّزْءُ الْأَحْدَثُ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ وَأَظْهَرُ أَثَرًا؟

قُلْتُ: هُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَمَادِي أَسَفِهِ عَلَى يُوسُفَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فَائِتٌ عِنْدَهُ مَوْقِعَهُ، وَأَنَّ الرُّزْءَ فِيهِ مَعَ تَقَادُمِ عَهْدِهِ كَانَ غَضًّا عِنْدَهُ طَرِيًّا:

فَلَمْ تُنْسِنِي أَوْفِي الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ.....

وَلِأَنَّ الرُّزْءَ فِي يُوسُفَ كَانَ قَاعِدَةَ مُصِيبَاتِهِ الَّتِي تَرَتَّبَتْ عَلَيْهَا الرَّزَايَا فِي وَلَدِهِ، فَكَانَ الْأَسَفُ عَلَيْهِ أَسَفًا عَلَى مَنْ لَحِقَ بِهِ.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾[2]: إِذَا كَثُرَ الِاسْتِعْبَارُ مَحَقَتِ الْعَبْرَةُ سَوَادَ الْعَيْنِ وَقَلَبَتْهُ إِلَى بَيَاضٍ كَدِرٍ، قِيلَ: قَدْ عَمِيَ بَصَرُهُ، وَقِيلَ: كَانَ يُدْرِكُ إِدْرَاكًا ضَعِيفًا.

قُرِئَ: "مِنَ الْحُزْنِ"، "وَمِنَ الْحَزَنِ"، الْحُزْنُ كَانَ سَبَبَ الْبُكَاءِ الَّذِي حَدَثَ مِنْهُ الْبَيَاضُ، فَكَأَنَّهُ حَدَثَ مِنَ الْحُزْنِ.

قِيلَ: مَا جَفَّتْ عَيْنَا يَعْقُوبَ مِنْ وَقْتِ فِرَاقِ يُوسُفَ إِلَى حِينِ لِقَائِهِ ثَمَانِينَ عَامًا، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ يَعْقُوبَ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: "مَا بَلَغَ مِنْ وَجْدِ يَعْقُوبَ عَلَى يُوسُفَ؟ قَالَ: وَجْدُ سَبْعِينَ ثَكْلَى، قَالَ: فَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ؟ قَالَ: أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ، وَمَا سَاءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ سَاعَةً قَطُّ".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ لِنَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْجَزَعُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ؟

قُلْتُ: الْإِنْسَانُ مَجْبُولٌ عَلَى أَلَّا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنَ الْحُزْنِ، وَلِذَلِكَ حُمِدَ صَبْرُهُ وَأَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ حَتَّى لَا يَخْرُجَ إِلَى مَا لَا يُحْسِنُ.

وَلَقَدْ بَكَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَالَ: "الْقَلْبُ يَجْزَعُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ". وَإِنَّمَا الْجَزَعُ الْمَذْمُومُ مَا يَقَعُ مِنَ الْجَهَلَةِ مِنَ الصِّيَاحِ وَالنِّيَاحَةِ، وَلَطْمِ الصُّدُورِ وَالْوُجُوهِ، وَتَمْزِيقِ الثِّيَابِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ بَكَى عَلَى وَلَدِ بَعْضِ بَنَاتِهِ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَبْكِي وَقَدْ نَهَيْتَنَا عَنِ الْبُكَاءِ؟ فَقَالَ: "مَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْبُكَاءِ، وَإِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ الْفَرَحِ، وَصَوْتٍ عِنْدَ التَّرَحِ".

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ بَكَى عَلَى وَلَدٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ اللَّهَ جَعَلَ الْحُزْنَ عَارًا عَلَى يَعْقُوبَ.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1]: فَهُوَ مَمْلُوءٌ مِنَ الْغَيْظِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَلَا يُظْهِرُ مَا يَسُوؤُهُمْ، فَعِيلَ بِمَعْنَى: مَفْعُولٍ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[2]: مِنْ كَظَمَ السِّقَاءَ إِذَا شَدَّهُ عَلَى مَلْئِهِ، وَالْكَظَمُ بِفَتْحِ الظَّاءِ: مَخْرَجُ النَّفَسِ، يُقَالُ: أَخَذَ بِأَكْظَامِهِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[3]

﴿تَفْتَأُ﴾[4]، أَرَادَ: لَا تَفْتَؤُ، فَحَذَفَ حَرْفَ النَّفْيِ، لِأَنَّهُ لَا يَلْتَبِسُ بِالْإِثْبَاتِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ إِثْبَاتًا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ اللَّامِ وَالنُّونِ، وَنَحْوُهُ:

فَقُلْتُ: يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا.....

وَمَعْنَى ﴿لَا﴾[5]: لَا تَزَالُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: لَا تَفْتُرُ مِنْ حُبِّهِ، كَأَنَّهُ جَعَلَ الْفُتُوءَ وَالْفُتُورَ أَخَوَيْنِ، يُقَالُ: مَا فَتِئَ يَفْعَلُ.

قَالَ أَوْسٌ:

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي... وَيَلْحَقُ مِنْهَا لاحِقٌ وَتَقَطَّعُ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿حَرَضًا﴾[1]: مُشْفِيًا عَلَى الْهَلَاكِ مَرَضًا، وَأَحْرَضَهُ الْمَرَضُ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ، وَالصِّفَةُ: حَرِضٌ، بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَنَحْوُهُمَا: دَنَفٌ وَدَنِفٌ، وَجَاءَتِ الْقِرَاءَةُ بِهِمَا جَمِيعًا.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "حُرُضًا": بِضَمَّتَيْنِ، وَنَحْوُهُ فِي الصِّفَاتِ: رَجُلٌ جُنُبٌ وَغُرُبٌ.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[2]

الْبَثُّ: أَصْعَبُ الْهَمِّ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، فَيَبُثُّهُ إِلَى النَّاسِ، أَيْ: يَنْشُرُهُ، وَمِنْهُ: بَاثَّهُ أَمْرَهُ، وَأَبَثَّهُ إِيَّاهُ.

وَمَعْنَى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو﴾[3]: إِنِّي لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ، إِنَّمَا أَشْكُو إِلَى رَبِّي دَاعِيًا لَهُ وَمُلْتَجِئًا إِلَيْهِ، فَخَلُّونِي وَشِكَايَتِي.

وَهَذَا مَعْنَى تَوَلِّيهِ عَنْهُمْ، أَيْ: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ إِلَى اللَّهِ وَالشِّكَايَةِ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: دَخَلَ عَلَى يَعْقُوبَ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا يَعْقُوبُ، قَدْ تَهَشَّمْتَ، وَفَنِيتَ، وَبَلَغْتَ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغَ أَبُوكَ! فَقَالَ: هَشَّمَنِي وَأَفْنَانِي مَا ابْتَلَانِي اللَّهُ بِهِ مَنْ هَمِّ يُوسُفَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ، أَتَشْكُونِي إِلَى خَلْقِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، خَطِيئَةٌ أَخْطَأْتُهَا فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[4].

وَرُوِيَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَى يَعْقُوبَ: إِنَّمَا وَجَدْتُ عَلَيْكُمْ، لِأَنَّكُمْ ذَبَحْتُمْ شَاةً؛ فَقَامَ بِبَابِكُمْ مِسْكِينٌ، فَلَمْ تُطْعِمُوهُ، وَإِنَّ أَحَبَّ خَلْقِي إِلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْمَسَاكِينُ؛ فَاصْنَعْ طَعَامًا وَادْعُ عَلَيْهِ الْمَسَاكِينَ.

وَقِيلَ: اشْتَرَى جَارِيَةً مَعَ وَلَدِهَا، فَبَاعَ وَلَدَهَا فَبَكَتْ حَتَّى عَمِيَتْ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، أَيْ: أَعْلَمُ مِنْ صُنْعِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحُسْنِ ظَنِّي بِهِ أَنَّهُ يَأْتِينِي بِالْفَرَجِ مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ رَأَى مَلَكَ الْمَوْتِ فِي مَنَامِهِ فَسَأَلَهُ: هَلْ قَبَضْتَ رُوحَ يُوسُفَ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ هُوَ حَيٌّ فَاطْلُبْهُ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: "وَحَزَنِي" بِفُتْحَتَيْنِ، "وَحُزْنِي" بِضَمَّتَيْنِ: قَتَادَةُ.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2]

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[3]: فَتَعَرَّفُوا مِنْهُمَا وَتَطَلَّبُوا خَبَرَهُمَا، وَقُرِئَ بِالْجِيمِ، كَمَا قُرِئَ بِهِمَا فِي الْحُجُرَاتِ، وَهُمَا تَفَعُّلٌ مِنَ الْإِحْسَاسِ، وَهُوَ الْمَعْرِفَةُ.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[4]، وَمِنَ الْجَسِّ، وَهُوَ الطَّلَبُ، وَمِنْهُ قَالُوا لِمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ: الْحَوَاسُّ، وَالْجَوَاسُّ.

﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾[5]: مِنْ فَرَجِهِ وَتَنْفِيسِهِ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: "مِنْ رُوحِ اللَّهِ" بِالضَّمِّ، أَيْ: مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي يَحْيَا بِهَا الْعِبَادُ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[6]

﴿الضُّرُّ﴾[7]: الْهُزَالُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْجُوعِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 52.

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿مُزْجَاةٍ﴾[1]: مَدْفُوعَةٌ يَدْفَعُهَا كُلُّ تَاجِرٍ، رَغْبَةً عَنْهَا وَاحْتِقَارًا لَهَا، مِنْ أَزْجَيْتُهُ إِذَا دَفَعْتَهُ وَطَرَدْتَهُ، وَالرِّيحُ تُزْجِي السَّحَابَ.

قِيلَ: كَانَتْ مِنْ مَتَاعِ الْأَعْرَابِ صُوفًا وَسَمْنًا، وَقِيلَ: الصَّنَوْبَرُ وَحَبَّةُ الْخَضْرَاءِ، وَقِيلَ: سَوِيقُ الْمُقْلِ وَالْأَقِطِ، وَقِيلَ: دَرَاهِمَ زُيُوفًا لَا تُؤْخَذُ إِلَّا بِوَضِيعَةٍ.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾[2]: الَّذِي هُوَ حَقُّنَا.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾[3]: وَتَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِالْمُسَامَحَةِ وَالْإِغْمَاضِ عَنْ رَدَاءَةِ الْبِضَاعَةِ، أَوْ زِدْنَا عَلَى حَقِّنَا، فَسَمَّوْا مَا هُوَ فَضْلٌ وَزِيَادَةٌ لَا تَلْزَمُهُ صَدَقَةً، لِأَنَّ الصَّدَقَاتِ مَحْظُورَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ.

وَقِيلَ: كَانَتْ تَحِلُّ لِغَيْرِ نَبِيِّنَا.

وَسُئِلَ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾[4]، أَرَادَ: أَنَّهَا كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ تَمَسْكَنُوا لَهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ رَقَّ لَهُمْ وَمَلَكَتْهُ الرَّحْمَةُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ عَرَّفَهُمْ نَفْسَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[5]: شَاهِدٌ لِذَلِكَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ، وَالصَّدَقَةُ: الْعَطِيَّةُ الَّتِي تَبْتَغِي بِهَا الْمَثُوبَةَ مِنَ اللَّهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَسَنِ –لِمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ تَصَدَّقْ عَلَيَّ–: إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– لَا يَتَصَدَّقُ، إِنَّمَا يَتَصَدَّقُ الَّذِي يَبْتَغِي الثَّوَابَ، قُلْ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي، أَوْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ، أَوِ ارْحَمْنِي.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[6]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ﴾[1]: أَتَاهُمْ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ وَكَانَ حَلِيمًا مُوَفَّقًا، فَكَلَّمَهُمْ مُسْتَفْهِمًا عَنْ مَعْرِفَةِ وَجْهِ الْقُبْحِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُرَاعِيَهُ التَّائِبُ، فَقَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ قُبْحَ: ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[2]: لَا تَعْلَمُونَ قُبْحَهُ، فَلِذَلِكَ أَقْدَمْتُمْ عَلَيْهِ.

يَعْنِي: هَلْ عَلِمْتُمْ قُبْحَهُ فَتُبْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، لِأَنَّ عِلْمَ الْقُبْحِ يَدْعُو إِلَى الِاسْتِقْبَاحِ، وَالِاسْتِقْبَاحُ يَجُرُّ إِلَى التَّوْبَةِ، فَكَانَ كَلَامُهُ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ وَتَنَصُّحًا لَهُمْ فِي الدِّينِ، لَا مُعَاتَبَةً وَتَثْرِيبًا، إِيثَارًا لِحَقِّ اللَّهِ عَلَى حَقِّ نَفْسِهِ، فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الَّذِي يَتَنَفَّسُ فِيهِ الْمَكْرُوبُ، وَيَنْفُثُ الْمَصْدُورُ، وَيَتَشَفِي الْمُغِيظُ الْمُحْنِقُ، وَيُدْرِكُ ثَأْرَهُ الْمُوتُورُ، فَلِلَّهِ أَخْلَاقُ الْأَنْبِيَاءِ مَا أَوْطَأَهَا وَأَسْجَحَهَا وَلِلَّهِ حَصَا عُقُولِهِمْ مَا أَرْزَنَهَا وَأَرْجَحَهَا.

وَقِيلَ: لَمْ يُرِدْ نَفْيَ الْعِلْمِ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عُلَمَاءَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَفْعَلُوا مَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ وَلَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ إِلَّا جَاهِلٌ، سَمَّاهُمْ جَاهِلِينَ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِذْ أَنْتُمْ صِبْيَانٌ فِي حَدِّ السَّفَهِ وَالطَّيْشِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا أَوَانَ الْحِلْمِ وَالرَّزَانَةِ.

رُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ، وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ: ارْفَضَّتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ.

وَقِيلَ: أَدَّوْا إِلَيْهِ كِتَابَ يَعْقُوبَ: مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ ذَبِيحِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ مُوَكَّلٌ بِنَا الْبَلَاءُ، أَمَّا جَدِّي فَشُدَّتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ، وَرُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ لِيُحْرَقَ، فَنَجَّاهُ اللَّهُ وَجُعِلَتِ النَّارُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَأَمَّا أَبِي: فَوُضِعَ السِّكِّينُ عَلَى قَفَاهُ لِيُقْتَلَ، فَفَدَاهُ اللَّهُ.

وَأَمَّا أَنَا فَكَانَ لِي ابْنٌ وَكَانَ أَحَبَّ أَوْلَادِي إِلَيَّ فَذَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ثُمَّ أَتَوْنِي بِقَمِيصِهِ مُلَطَّخًا بِالدَّمِ وَقَالُوا: قَدْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، فَذَهَبَتْ عَيْنَايَ مِنْ بُكَائِي عَلَيْهِ، ثُمَّ كَانَ لِي ابْنٌ وَكَانَ أَخَاهُ مِنْ أُمِّهِ وَكُنْتُ أَتَسَلَّى بِهِ، فَذَهَبُوا بِهِ ثُمَّ رَجَعُوا وَقَالُوا: إِنَّهُ سَرَقَ، وَأَنَّكَ حَبَسْتَهُ لِذَلِكَ، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَسْرِقُ وَلَا نَلِدُ سَارِقًا، فَإِنْ رَدَدْتَهُ عَلَيَّ وَإِلَّا دَعَوْتُ عَلَيْكَ دَعْوَةً تُدْرِكُ السَّابِعَ مِنْ وَلَدِكَ، وَالسَّلَامُ".

فَلَمَّا قَرَأَ يُوسُفُ الْكِتَابَ، لَمْ يَتَمَالَكْ وَعِيلَ صَبْرُهُ، فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ، بَكَى وَكَتَبَ الْجَوَابَ: اصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا تَظْفَرْ كَمَا ظَفَرُوا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فِعْلُهُمْ بِأَخِيهِ؟

قُلْتُ: تَعْرِيضُهُمْ إِيَّاهُ لِلْغَمِّ وَالثُّكْلِ بِإِفْرَادِهِ عَنْ أَخِيهِ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَجَفَاؤُهُمْ بِهِ، حَتَّى كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَلَامَ الذَّلِيلِ لِلْعَزِيزِ، وَإِيذَاؤُهُمْ لَهُ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى.

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]

قُرِئَ: ﴿أَئِنَّكَ﴾[2]: عَلَى الِاسْتِفْهَامِ، ﴿وَإِنَّكَ﴾[3] عَلَى الْإِيجَابِ.

وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: "أَئِنَّكَ أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ"، عَلَى مَعْنَى: أَئِنَّكَ يُوسُفُ أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ، فَحَذَفَ الْأَوَّلَ لِدَلَالَةِ الثَّانِي عَلَيْهِ، وَهَذَا كَلَامُ مُتَعَجِّبٍ مُسْتَغْرِبٍ لِمَا يَسْمَعُ، فَهُوَ يُكَرِّرُ الِاسْتِثْبَاتَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَرَفُوهُ؟

قُلْتُ: رَأَوْا فِي رِوَائِهِ وَشَمَائِلِهِ حِينَ كَلَّمَهُمْ بِذَلِكَ مَا شَعَرُوا بِهِ أَنَّهُ هُوَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لَا يَصْدُرُ مِثْلُهُ إِلَّا عَنْ حَنِيفٍ مُسْلِمٍ مِنْ سِنْخِ إِبْرَاهِيمَ، لَا عَنْ بَعْضِ أَعِزَّاءِ مِصْرَ، وَقِيلَ: تَبَسَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ فَعَرَفُوهُ بِثَنَايَاهُ وَكَانَتْ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ.

وَقِيلَ: مَا عَرَفُوهُ حَتَّى رَفَعَ التَّاجَ عَنْ رَأْسِهِ فَنَظَرُوا إِلَى عَلَامَةٍ بِقَرْنِهِ كَانَتْ لِيَعْقُوبَ وَسَارَّةَ مِثْلُهَا، تُشْبِهُ الشَّامَةَ الْبَيْضَاءَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ سَأَلُوهُ عَنْ نَفْسِهِ فَلِمَ أَجَابَهُمْ عَنْهَا وَعَنْ أَخِيهِ؟ عَلَى أَنَّ أَخَاهُ كَانَ مَعْلُومًا لَهُمْ .

قُلْتُ: لِأَنَّهُ كَانَ فِي ذِكْرِ أَخِيهِ بَيَانٌ لِمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿مَنْ يَتَّقِ﴾[1]: مَنْ يَخَفِ اللَّهَ وَعِقَابَهُ.

﴿وَيَصْبِرْ﴾[2]: عَنِ الْمَعَاصِي وَعَلَى الطَّاعَاتِ.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ﴾[3]: أَجْرَهُمْ، فَوَضَعَ الْمُحْسِنِينَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمُتَّقِينَ وَالصَّابِرِينَ.

﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[4]، أَيْ: فَضَّلَكَ عَلَيْنَا بِالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ وَسِيرَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَإِنَّ شَأْنَنَا وَحَالَنَا أَنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ مُتَعَمِّدِينَ لِلْإِثْمِ، لَمْ نَتَّقِ وَلَمْ نَصْبِرْ، لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ أَعَزَّكَ بِالْمُلْكِ وَأَذَلَّنَا بِالتَّمَسْكُنِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[5]: لَا تَأْنِيبَ عَلَيْكُمْ وَلَا عُتْبَ، وَأَصْلُ التَّثْرِيبِ: مِنَ الثَّرْبِ، وَهُوَ الشَّحْمُ الَّذِي هُوَ غَاشِيَةُ الْكَرِشِ.

وَمَعْنَاهُ: إِزَالَةُ الثَّرْبِ، كَمَا أَنَّ التَّجْلِيدَ وَالتَّقْرِيعَ إِزَالَةُ الْجِلْدِ وَالْقَرْعِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْهُزَالِ وَالْعُجْفِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ، فَضُرِبَ مَثَلًا لِلتَّقْرِيعِ الَّذِي يُمَزِّقُ الْأَعْرَاضَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ الْوُجُوهِ.

فَإِنْ قُلْتَ بِمَ تَعَلَّقَ الْيَوْمُ؟

قُلْتُ: بِالتَّثْرِيبِ، أَوْ بِالْمُقَدَّرِ فِي: ﴿عَلَيْكُمْ﴾[6] مِنْ مَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ، أَوْ بِـ ﴿يَغْفِرُ﴾[7].

وَالْمَعْنَى: لَا أَثَرَ بِكُمُ الْيَوْمَ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مَظِنَّةُ التَّثْرِيبِ، فَمَا ظَنَّكُمْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ. ثُمَّ ابْتَدَأَ، فَقَالَ: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[8]: فَدَعَا لَهُمْ بِمَغْفِرَةِ مَا فَرَطَ مِنْهُمْ، يُقَالُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي وَالْمُضَارِعِ جَمِيعًا؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُشَمِّتِ: "يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ".

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

و﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]: بِشَارَةٌ بِعَاجِلِ غُفْرَانِ اللَّهِ، لِمَا تَجَدَّدَ يَوْمَئِذٍ مِنْ تَوْبَتِهِمْ وَنَدَمِهِمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ.

وَرُوِيَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَخَذَ بِعَضَادَتَيْ بَابِ الْكَعْبَةِ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَقَالَ لِقُرَيْشٍ: "مَا تَرَوْنَنِي فَاعِلًا بِكُمْ؟"، قَالُوا: نَظُنُّ خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وَقَدْ قَدَرْتَ، فَقَالَ: "أَقُولُ مَا قَالَ أَخِي يُوسُفَ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ".

وَرُوِيَ: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ لَمَّا جَاءَ لِيُسْلِمَ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِذَا أَتَيْتَ الرَّسُولَ فَاتْلُ عَلَيْهِ: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[2]، فَفَعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِمَنْ عَلَّمَكَ".

وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَتَهُ لَمَّا عَرَفُوهُ وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ: إِنَّكَ تَدْعُونَا إِلَى طَعَامِكَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، وَنَحْنُ نَسْتَحِي مِنْكَ لِمَا فَرَطَ مِنَّا فِيكَ، فَقَالَ يُوسُفُ: إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ، وَإِنْ مَلَكْتُ فِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ بِالْعَيْنِ الْأُولَى، وَيَقُولُونَ: سُبْحَانَ مَنْ بَلَّغَ عَبْدًا بِيعَ بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا مَا بَلَغَ، وَلَقَدْ شُرِّفْتُ الْآنَ بِكُمْ وَعَظُمْتُ فِي الْعُيُونِ، حَيْثُ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّكُمْ إِخْوَتِي، وَأَنِّي مِنْ حَفَدَةِ إِبْرَاهِيمَ.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾[3]، قِيلَ: هُوَ الْقَمِيصُ الْمُتَوَارَثُ الَّذِي كَانَ فِي تَعْوِيذِ يُوسُفَ، وَكَانَ مِنَ الْجَنَّةِ، أَمَرَهُ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ فِيهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، لَا يَقَعُ عَلَى مُبْتَلًى وَلَا سَقِيمٍ إِلَّا عُوفِيَ.

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾[4]: يَصِرْ بَصِيرًا، كَقَوْلِكَ: جَاءَ الْبِنَاءُ مُحْكَمًا، بِمَعْنَى صَارَ، وَيَشْهَدُ لَهُ: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾[5]، أَوْ: يَأْتِ إِلَيَّ وَهُوَ بَصِيرٌ.

وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[6]، أَيْ: يَأْتِنِي أَبِي، وَيَأْتِنِي آلُهُ جَمِيعًا.

وَقِيلَ: يَهُوذَا هُوَ الْحَامِلُ، قَالَ: أَنَا أَحْزَنْتُهُ بِحَمْلِ الْقَمِيصِ مَلْطُوخًا بِالدَّمِ إِلَيْهِ، فَأُفَرِّحُهُ كَمَا أَحْزَنْتُهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: حَمَلَهُ وَهُوَ حَافٍ حَاسِرٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى كَنْعَانَ، وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ ثَمَانِينَ فَرْسَخًا.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]

﴿فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾[2]: خَرَجَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ، يُقَالُ: فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ فُصُولًا، إِذَا انْفَصَلَ مِنْهُ وَجَاوَزَ حِيطَانَهُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا انْفَصَلَ الْعِيرُ، ﴿قَالَ﴾[3]: لِوَلَدِ وَلَدِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[4]: أَوْجَدَهُ اللَّهُ رِيحَ الْقَمِيصِ، حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانٍ.

وَالتَّفْنِيدُ: النِّسْبَةُ إِلَى الْفَنَدِ، وَهُوَ الْخَرَفُ وَإِنْكَارُ الْعَقْلِ مِنْ هَرَمٍ، يُقَالُ: شَيْخٌ مُفَنَّدٌ، وَلَا يُقَالُ عَجُوزٌ مُفَنَّدَةٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي شَبِيبَتِهَا ذَاتَ رَأْيٍ، فَتُفَنَّدُ فِي كِبَرِهَا.

وَالْمَعْنَى: لَوْلَا تَفْنِيدُكُمْ إِيَّايَ لَصَدَّقْتُمُونِي.

﴿لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾[5]: لَفِي ذَهَابِكَ عَنِ الصَّوَابِ قُدُمًا فِي إِفْرَاطِ مَحَبَّتِكَ لِيُوسُفَ، وَلَهْجِكَ بِذِكْرِهِ، وَرَجَائِكَ لِلِقَائِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

﴿أَلْقَاهُ﴾[6]: طَرَحَ الْبَشِيرُ الْقَمِيصَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ، أَوْ أَلْقَاهُ يَعْقُوبُ.

﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾[7]: فَرَجَعَ بَصِيرًا، يُقَالُ: رَدَّهُ فَارْتَدَّ، وَارْتَدَّهُ إِذَا ارْتَجَعَهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾[1]، يَعْنِي: قَوْلَهُ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[2]، أَوْ قَوْلَهُ: ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾[3].

وَقَوْلَهُ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾[4]: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، وَلَكَ أَنْ تُوقِعَهُ عَلَيْهِ وَتُرِيدَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[5].

رُوِيَ: أَنَّهُ سَأَلَ الْبَشِيرَ كَيْفَ يُوسُفُ؟ فَقَالَ: هُوَ مَلِكُ مِصْرَ، فَقَالَ: مَا أَصْنَعُ بِالْمُلْكِ؟ عَلَى أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قَالَ: عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: الْآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[6]

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾[7]: قِيلَ: أَخَّرَ الِاسْتِغْفَارَ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ، وَقِيلَ: إِلَى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، لِيَتَعَمَّدَ بِهِ وَقْتَ الْإِجَابَةِ، وَقِيلَ: لِيَتَعَرَّفَ حَالَهُمْ فِي صِدْقِ التَّوْبَةِ وَإِخْلَاصِه.ا،

وَقِيلَ: أَرَادَ الدَّوَامَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ فِي نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَقِيلَ: قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَزَعِي عَلَى يُوسُفَ، وَقِلَّةَ صَبْرِي عَنْهُ، وَاغْفِرْ لِوَلَدِي مَا أَتَوْا إِلَى أَخِيهِمْ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ وَلَهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ وَقَدْ عَلَتْهُمُ الْكَآبَةُ: مَا يُغْنِي عَنَّا عَفْوُكُمَا إِنْ لَمْ يَعْفُ عَنَّا رَبُّنَا، فَإِنْ لَمْ يُوحَ إِلَيْكَ بِالْعَفْوِ، فَلَا قَرَّتْ لَنَا عَيْنٌ أَبَدًا، فَاسْتَقْبَلَ الشَّيْخُ الْقِبْلَةَ قَائِمًا يَدْعُو، وَقَامَ يُوسُفُ خَلْفَهُ يُؤَمِّنُ، وَقَامُوا خَلْفَهُمَا أَذِلَّةً خَاشِعِينَ عِشْرِينَ سَنَةً، حَتَّى بَلَغَ جَهْدُهُمْ وَظَنُّوا

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

أَنَّهَا الْهَلَكَةُ نَزَلَ جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَابَ دَعْوَتَكَ فِي وَلَدِكَ، وَعَقَدَ مَوَاثِيقَهُمْ بَعْدَكَ عَلَى النُّبُوَّةِ، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي اسْتِنْبَائِهِمْ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾[2]: قِيلَ: وَجَّهَ يُوسُفُ إِلَى أَبِيهِ جَهَازًا وَمِائَتَيْ رَاحِلَةٍ لِيَتَجَهَّزَ إِلَيْهِ بِمَنْ مَعَهُ، وَخَرَجَ يُوسُفُ وَالْمَلِكُ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ وَالْعُظَمَاءِ وَأَهْلِ مِصْرَ بِأَجْمَعِهِمْ؛ فَتَلَقَّوْا يَعْقُوبَ، وَهُوَ يَمْشِي يَتَوَكَّأُ عَلَى يَهُوذَا؛ فَنَظَرَ إِلَى الْخَيْلِ وَالنَّاسِ، فَقَالَ: يَا يَهُوذَا، أَهَذَا فِرْعَوْنُ مِصْرَ؟ قَالَ: لَا، هَذَا وَلَدُكَ. فَلَمَّا لَقِيَهُ، قَالَ يَعْقُوبُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُذْهِبَ الْأَحْزَانِ.

وَقِيلَ: إِنَّ يُوسُفَ قَالَ لَهُ لَمَّا الْتَقَيَا: يَا أَبَتِ، بَكَيْتَ عَلَيَّ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُكَ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا؟ فَقَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ خَشِيتُ أَنْ تُسْلَبَ دِينَكَ، فَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ وَوَلَدَهُ دَخَلُوا مِصْرَ وَهُمُ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ، مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَخَرَجُوا مِنْهَا مَعَ مُوسَى، وَمُقَاتِلَتُهُمْ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَبِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا سِوَى الذُّرِّيَّةِ وَالْهَرْمَى، وَكَانَتِ الذُّرِّيَّةُ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ.

﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[3]: ضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُمَا، قَالَ ابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ: كَانَتْ أُمُّهُ تَحْيَا، وَقِيلَ: هُمَا أَبُوهُ وَخَالَتُهُ، مَاتَتْ أُمُّهُ فَتَزَوَّجَهَا وَجَعَلَهَا أَحَدَ الْأَبَوَيْنِ، لِأَنَّ الرَّابَّةَ تُدْعَى أُمًّا، لِقِيَامِهَا مَقَامَ الْأُمِّ، أَوْ لِأَنَّ الْخَالَةَ أُمٌّ كَمَا أَنَّ الْعَمَّ أَبٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[4].

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ قَبْلَ دُخُولِهِمْ مِصْرَ؟

قُلْتُ: كَأَنَّهُ حِينَ اسْتَقْبَلَهُمْ نَزَلَ لَهُمْ فِي مَضْرِبٍ أَوْ بَيْتٍ ثَمَّ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[1]، وَلَمَّا دَخَلَ مِصْرَ، وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ مُسْتَوِيًا عَلَى سَرِيرِهِ وَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، أَكْرَمَ أَبَوَيْهِ فَرَفَعَهُمَا عَلَى السَّرِيرِ.

﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾[2]، يَعْنِي: الْإِخْوَةَ الْأَحَدَ عَشَرَ وَالْأَبَوَيْنِ، ﴿سُجَّدًا﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَرَجَ فِي قُبَّةٍ مِنْ قِبَابِ الْمُلُوكِ الَّتِي تُحْمَلُ عَلَى الْبِغَالِ، فَأَمَرَ أَنْ يُرْفَعَ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ الْقُبَّةَ، فَآوَاهُمَا إِلَيْهِ بِالضَّمِّ وَالِاعْتِنَاقِ وَقَرَّبَهُمَا مِنْهُ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ادْخُلُوا مِصْرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَتِ الْمَشِيئَةُ؟

قُلْتُ: بِالدُّخُولِ مُكَيَّفًا بِالْأَمْنِ، لِأَنَّ الْقَصْدَ إِلَى اتِّصَافِهِمْ بِالْأَمْنِ فِي دُخُولِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: اسْلَمُوا وَأْمَنُوا فِي دُخُولِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ لِلْغَازِي: ارْجِعْ سَالِمًا غَانِمًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَا تُعَلَّقُ الْمَشِيئَةُ بِالرُّجُوعِ مُطْلَقًا، وَلَكِنْ مُقَيَّدًا بِالسَّلَامَةِ وَالْغَنِيمَةِ، مُكَيَّفًا بِهِمَا، وَالتَّقْدِيرُ: ادْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ دَخَلْتُمْ آمِنِينَ، ثُمَّ حَذَفَ الْجَزَاءَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، ثُمَّ اعْتَرَضَ بِالْجُمْلَةِ الْجَزَائِيَّةِ بَيْنَ الْحَالِ وَذِي الْحَالِ.

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[4]: مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَأَنَّ مَوْضِعَهَا مَا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾[5]: فِي كَلَامِ يَعْقُوبَ، وَمَا أَدْرِي مَا أَقُولُ فِيهِ وَفِي نَظَائِرِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لِغَيْرِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: كَانَتِ السَّجْدَةُ عِنْدَهُمْ جَارِيَةً مَجْرَى التَّحِيَّةِ وَالتَّكْرُمَةِ، كَالْقِيَامِ، وَالْمُصَافَحَةِ، وَتَقْبِيلِ الْيَدِ، وَنَحْوِهَا مِمَّا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادَةُ النَّاسِ، مِنْ أَفْعَالٍ شُهِرَتْ فِي التَّعْظِيمِ وَالتَّوْقِيرِ.

وَقِيلَ: مَا كَانَتْ إِلَّا انْحِنَاءً دُونَ تَعْفِيرِ الْجِبَاهِ، وَخَرُورُهُمْ سُجَّدًا يَأْبَاهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَخَرُّوا لِأَجْلِ يُوسُفَ سُجَّدًا لِلَّهِ شُكْرًا، وَهَذَا -أَيْضًا- فِيهِ نَبْوَةٌ، يُقَالُ: أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَبِهِ، وَكَذَلِكَ أَسَاءَ إِلَيْهِ وَبِهِ.

قَالَ:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً.....

﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾[1]: مِنَ الْبَادِيَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ عُمُدٍ، وَأَصْحَابَ مَوَاشٍ، يَنْتَقِلُونَ فِي الْمِيَاهِ وَالْمَنَاجِعِ، ﴿نَزَغَ﴾[2]: أَفْسَدَ بَيْنَنَا وَأَغْرَى، وَأَصْلُهُ: مِنْ نَخَسَ الرَّائِضُ الدَّابَّةَ وَحَمَلَهُ عَلَى الْجَرْيِ، يُقَالُ: نَزَغَهُ وَنَسَغَهُ، إِذَا نَخَسَهُ.

﴿لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾[3]: لَطِيفُ التَّدْبِيرِ لِأَجْلِهِ، رَفِيقٌ حَتَّى يَجِيءَ عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ.

وَرُوِيَ أَنَّ يُوسُفَ أَخَذَ بِيَدِ يَعْقُوبَ فَطَافَ بِهِ فِي خَزَائِنِهِ، فَأَدْخَلَهُ خَزَائِنَ الْوَرِقِ وَالذَّهَبِ، وَخَزَائِنَ الْحُلِيِّ، وَخَزَائِنَ الثِّيَابِ، وَخَزَائِنَ السِّلَاحِ وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَلَمَّا أَدْخَلَهُ خِزَانَةَ الْقَرَاطِيسِ قَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا أَعَقَّكَ: عِنْدَكَ هَذِهِ الْقَرَاطِيسُ، وَمَا كَتَبْتَ إِلَيَّ عَلَى ثَمَانِ مَرَاحِلَ؟ قَالَ: أَمَرَنِي جِبْرِيلُ، قَالَ أَوَ مَا تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: أَنْتَ أَبْسَطُ إِلَيْهِ مِنِّي فَسَلْهُ، قَالَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: اللَّهُ -تَعَالَى- أَمَرَنِي بِذَلِكَ لِقَوْلِكَ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[4]، قَالَ: فَهَلَّا خِفْتَنِي؟

وَرُوِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ أَقَامَ مَعَهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ مَاتَ، وَأَوْصَى أَنْ يَدْفِنَهُ بِالشَّامِ إِلَى جَنْبِ أَبِيهِ إِسْحَاقَ فَمَضَى بِنَفْسِهِ وَدَفَنَهُ ثَمَّةَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ، وَعَاشَ بَعْدَ أَبِيهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً.

فَلَمَّا تَمَّ أَمْرُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَدُومُ لَهُ، طَلَبَتْ نَفْسُهُ الْمُلْكَ الدَّائِمَ الْخَالِدَ، فَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ فَتَمَنَّى الْمَوْتَ، وَقِيلَ: مَا تَمَنَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ.

فَتَوَفَّاهُ اللَّهُ طَيِّبًا طَاهِرًا، فَتَخَاصَمَ أَهْلُ مِصْرَ وَتَشَاحُّوا فِي دَفْنِهِ: كُلٌّ يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِي مَحَلَّتِهِمْ حَتَّى هَمُّوا بِالْقِتَالِ، فَرَأَوْا مِنَ الرَّأْيِ أَنْ عَمِلُوا لَهُ صُنْدُوقًا مِنْ مَرْمَرٍ وَجَعَلُوهُ فِيهِ، وَدَفَنُوهُ فِي النِّيلِ بِمَكَانٍ يَمُرُّ عَلَيْهِ الْمَاءُ، ثُمَّ يَصِلُ إِلَى مِصْرَ لِيَكُونُوا كُلُّهُمْ فِيهِ شَرْعًا وَاحِدًا.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَوُلِدَ لَهُ: إِفْرَاثِيمُ وَمِيشَا، وَوُلِدَ لِإِفْرَاثِيمَ نُونُ، وَلِنُونَ يُوشَعُ فَتَى مُوسَى، وَلَقَدْ تَوَارَثَتِ الْفَرَاعِنَةُ مِنَ الْعَمَالِيقِ بَعْدَهُ مِصْرَ، وَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ عَلَى بَقَايَا دِينِ يُوسُفَ وَآبَائِهِ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنَ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1]

﴿مِنْ﴾[2] فِي: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾[3]، وَ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[4]: لِلتَّبْعِيضِ، لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطَ إِلَّا بَعْضَ مُلْكِ الدُّنْيَا، أَوْ بَعْضَ مُلْكِ مِصْرَ وَبَعْضَ التَّأْوِيلِ.

﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾[5]: أَنْتَ الَّذِي تَتَوَلَّانِي بِالنِّعْمَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَبِوَصْلِ الْمُلْكِ الْفَانِي بِالْمُلْكِ الْبَاقِي.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[6]: طَلَبٌ لِلْوَفَاةِ عَلَى حَالِ الْإِسْلَامِ، وَلِأَنْ يَخْتِمُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالْحُسْنَى، كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ لِوَلَدِهِ: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[7].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ عَلَى مَا قِيلَ: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[8] مِنْ آبَائِي أَوْ عَلَى الْعُمُومِ.

وَعَنْ عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَنَّ مَيْمُونَ بْنَ مَهْرَانَ بَاتَ عِنْدَهُ فَرَآهُ كَثِيرَ الْبُكَاءِ وَالْمَسْأَلَةِ لِلْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: صَنَعَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ خَيْرًا كَثِيرًا: أَحْيَيْتَ سُنَنًا وَأَمَتَّ بِدَعًا، وَفِي حَيَاتِكَ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية **102**.
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

خَيْرٌ وَرَاحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ كَالْعَبْدِ الصَّالِحِ لَمَّا أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ، قَالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1]؟!

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ انْتَصَبَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ؟

قُلْتُ: عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ﴾[2]، كَقَوْلِكَ: أَخَا زَيْدٍ حَسَنَ الْوَجْهِ، أَوْ عَلَى النِّدَاءِ.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[3]

﴿ذَلِكَ﴾[4]: إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ نَبَأِ يُوسُفَ، وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَحَلُّهُ الِابْتِدَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[5]: خَبَرُ إِنَّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْمًا مَوْصُولًا بِمَعْنَى الَّذِي.

وَ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾[6]: صِلَتُهُ، وَ﴿نُوحِيهِ﴾[7]: الْخَبَرُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَذَا النَّبَأَ غَيْبٌ لَمْ يَحْصُلْ لَكَ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، لِأَنَّكَ لَمْ تَحْضُرْ بَنِي يَعْقُوبَ حِينَ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وَهُوَ إِلْقَاؤُهُمْ أَخَاهُمْ فِي الْبِئْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾[8].

وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِقُرَيْشٍ وَبِمَنْ كَذَّبَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ حَمَلَةِ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَشْبَاهِهِ، وَلَا لَقِيَ فِيهَا أَحَدًا وَلَا سَمِعَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِلْمِ قَوْمِهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

[7] سورة يُوسُفَ، الآية .

[8] سورة يُوسُفَ، الآية .

فَإِذَا أَخْبَرَ بِهِ وَقَصَّ هَذَا الْقَصَصَ الْعَجِيبَ الَّذِي أَعْجَزَ حَمَلَتَهُ وَرُوَاتَهُ، لَمْ تَقَعْ شُبْهَةٌ فِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ. فَإِذَا أَنْكَرُوهُ تَهَكَّمَ بِهِمْ، وَقِيلَ لَهُمْ: قَدْ عَلِمْتُمْ يَا مُكَابِرَةُ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُشَاهِدًا لِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ. وَنَحْوُهُ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾[1]، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[2]: بِيُوسُفَ وَيَبْغُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[3]

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾[4]: يُرِيدُ الْعُمُومَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَرَادَ أَهْلَ مَكَّةَ، أَيْ: وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾[6]: وَتَهَالَكْتَ عَلَى إِيمَانِهِمْ لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَعِنَادِهِمْ.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾[7]: عَلَى مَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ وَتُذَكِّرُهُمْ أَنْ يُنِيلُوكَ مَنْفَعَةً وَجَدْوَى، كَمَا يُعْطَى حَمَلَةُ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ.

﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ﴾[8]: عِظَةٌ مِنَ اللَّهِ.

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾[9]: عَامَّةً، وَحَثَّ عَلَى طَلَبِ النَّجَاةِ عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ.

---

[1] سورة الْقَصَصُ، الآية 44.
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .
[9] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]

﴿مِنْ آيَةٍ﴾[2]: مِنْ عَلَامَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى الْخَالِقِ وَعَلَى صِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾[3]: وَيُشَاهِدُونَهَا وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهَا لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا.

وَقُرِئَ: "وَالْأَرْضُ": بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَيَمُرُّونَ عَلَيْهَا: خَبَرُهُ.

وَقَرَأَ السُّدِّيُّ: "وَالْأَرْضَ" بِالنَّصْبِ عَلَى: وَيَطَئُونَ الْأَرْضَ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا.

وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: "وَالْأَرْضُ يَمْشُونَ عَلَيْهَا": بِرَفْعِ الْأَرْضِ؛ وَالْمُرَادُ: مَا يَرَوْنَ مِنْ آثَارِ الْأُمَمِ الْهَالِكَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَرِ.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[4]

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾[5]: فِي إِقْرَارِهِ بِاللَّهِ، وَبِأَنَّهُ خَلَقَهُ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، إِلَّا وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعِبَادَتِهِ الْوَثَنَ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، مَعَهُمْ شِرْكٌ وَإِيمَانٌ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُمُ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[6]

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

[6] سورة يُوسُفَ، الآية .

﴿غَاشِيَةٌ﴾[1]: نِقْمَةٌ تَغْشَاهُمْ.

وَقِيلَ: مَا يَغْمُرُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَيُجَلِّلُهُمْ، وَقِيلَ: الصَّوَاعِقُ.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]

﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾[3]: هَذِهِ السَّبِيلُ الَّتِي هِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ سَبِيلِي، وَالسَّبِيلُ وَالطَّرِيقُ: يُذَكَّرَانِ وَيُؤَنَّثَانِ.

ثُمَّ فَسَّرَ سَبِيلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[4]، أَيْ: أَدْعُو إِلَى دِينِهِ مَعَ حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ غَيْرِ عَمْيَاءَ.

وَ﴿أَنَا﴾[5]: تَأْكِيدٌ لِلْمُسْتَتِرِ فِي ﴿أَدْعُو﴾[6]، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[7]: عَطْفٌ عَلَيْهِ؛ يُرِيدُ: أَدْعُو إِلَيْهَا أَنَا، وَيَدْعُو إِلَيْهَا مَنِ اتَّبَعَنِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿أَنَا﴾[8] مُبْتَدَأٌ، وَ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[9] خَبَرًا مُقَدَّمًا، وَ﴿مِنِ اتَّبَعَنِي﴾[10] عَطْفًا عَلَى ﴿أَنَا﴾[11]: إِخْبَارًا مُبْتَدَأً بِأَنَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ عَلَى حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، لَا عَلَى هَوًى.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .
[9] سورة يُوسُفَ، الآية .
[10] سورة يُوسُفَ، الآية .
[11] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[1]: حَالًا مِنْ ﴿أَدْعُو﴾[2]: عَامِلَةً الرَّفْعَ فِي: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[3].

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾[4]: وَأُنَزِّهُهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[5]

﴿إِلاَّ رِجَالاً﴾[6]: لَا مَلَائِكَةً، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾[7].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: يُرِيدُ لَيْسَتْ فِيهِمُ امْرَأَةٌ.

وَقِيلَ: فِي سَجَاحٍ الْمُتَنَبِّئَةِ:

.....وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا

وَقُرِئَ: "نُوحِي إِلَيْهِمْ" بِالنُّونِ.

﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[8]، لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ، وَأَهْلُ الْبَوَادِي فِيهِمُ الْجَهْلُ، وَالْجَفَاءُ وَالْقَسْوَةُ.

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾[9]: وَلَدَارُ السَّاعَةِ، أَوِ الْحَالِ الْآخِرَةِ.

﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[10]: لِلَّذِينِ خَافُوا اللَّهَ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ وَلَمْ يَعْصُوهُ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .
[6] سورة يُوسُفَ، الآية .
[7] سورة يُوسُفَ، الآية .
[8] سورة يُوسُفَ، الآية .
[9] سورة يُوسُفَ، الآية .
[10] سورة يُوسُفَ، الآية .

وَقُرِئَ: "أَفَلَا تَعْقِلُونَ": بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]

﴿حَتَّى﴾[2]: مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالا﴾[3]: فَتَرَاخَى نَصْرُهُمْ حَتَّى اسْتَيْأَسُوا عَنِ النَّصْرِ.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[4]، أَيْ: كَذَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ حِينَ حَدَّثَتْهُمْ بِأَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ، أَوْ رَجَاؤُهُمْ لِقَوْلِهِمْ: رَجَاءٌ صَادِقٌ، وَرَجَاءٌ كَاذِبٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مُدَّةَ التَّكْذِيبِ وَالْعَدَاوَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَانْتِظَارِ النَّصْرِ مِنَ اللَّهِ وَتَأْمِيلِهِ قَدْ تَطَاوَلَتْ عَلَيْهِمْ وَتَمَادَتْ، حَتَّى اسْتَشْعَرُوا الْقُنُوطَ، وَتَوَهَّمُوا أَنْ لَا نَصْرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَجْأَةً مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: وَظَنُّوا حِينَ ضَعُفُوا وَغُلِبُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْلَفُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّصْرِ، وَقَالَ: كَانُوا بَشَرًا، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾[5].

فَإِنْ صَحَّ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَدْ أَرَادَ بِالظَّنِّ: مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَيَهْجِسُ فِي الْقَلْبِ مِنْ شُبَهِ الْوَسْوَسَةِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ.

وَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي هُوَ تَرَجُّحُ أَحَدِ الْجَائِزَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، فَغَيْرُ جَائِزٍ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَا بَالُ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِرَبِّهِمْ، وَأَنَّهُ مُتَعَالٍ عَنْ خُلْفِ الْمِيعَادِ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ؟ وَقِيلَ: وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَّبُوا، أَيْ: أَخْلَفُوا، أَوْ: وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ كُذِّبُوا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، أَيْ: كَذَبَتْهُمُ الرُّسُلُ فِي أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُمْ فِيهِ.

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 215.

وَقُرِئَ: "كُذِّبُوا" بِالتَّشْدِيدِ عَلَى: وَظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبَتْهُمْ قَوْمُهُمْ فِيمَا وَعَدُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ.

وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: "كَذَبُوا" بِالتَّخْفِيفِ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، عَلَى: وَظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا فِيمَا حَدَّثُوا بِهِ قَوْمَهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ، إِمَّا عَلَى تَأْوِيلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَإِمَّا عَلَى أَنَّ قَوْمَهُمْ إِذَا لَمْ يَرَوْا لِمَوْعِدِهِمْ أَثَرًا قَالُوا لَهُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ كَذَّبْتُمُونَا، فَيَكُونُونَ كَاذِبِينَ عِنْدَ قَوْمِهِمْ، أَوْ وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَّبُوا. وَلَوْ قُرِئَ بِهَذَا مُشَدَّدًا، لَكَانَ مَعْنَاهُ: وَظَنَّ الرُّسُلُ أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فِي مَوْعِدِهِمْ.

وَقُرِئَ: "فَنُنَجِّي" بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، مِنْ أَنْجَاهُ وَنَجَّاهُ، و"فَنُجِّيَ": عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ: "فَنَجَا".

وَالْمُرَادُ بِـ ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾[1]: الْمُؤْمِنُونَ، لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَأْهِلُونَ أَنْ يَشَاءَ نَجَاتَهُمْ.

وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[2].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3]

الضَّمِيرُ فِي ﴿قَصَصِهِمْ﴾[4]: لِلرُّسُلِ، وَيَنْصُرُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: ﴿فِي قِصَصِهِمْ﴾ بِكَسْرِ الْقَافِ، وَقِيلَ: هُوَ رَاجِعٌ إِلَى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِلَامَ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾[5] فِيمَنْ قَرَأَ بِالْكَسْرِ؟

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .
[2] سورة يُوسُفَ، الآية .
[3] سورة يُوسُفَ، الآية .
[4] سورة يُوسُفَ، الآية .
[5] سورة يُوسُفَ، الآية .

قُلْتُ: إِلَى الْقُرْآنِ، أَيْ: مَا كَانَ الْقُرْآنُ حَدِيثًا يُفْتَرَى، ﴿وَلَكِنْ﴾[1] كَانَ ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2]، أَيْ: قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[3]: يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ، لِأَنَّهُ الْقَانُونُ الَّذِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ السُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ بَعْدَ أَدِلَّةِ الْعَقْلِ، وَانْتِصَابُ مَا نُصِبَ بَعْدَ ﴿لَكِنْ﴾[4]: لِلْعَطْفِ عَلَى خَبَرِ كَانَ.

وَقُرِئَ: "ذَلِكَ" بِالرَّفْعِ عَلَى: وَلَكِنْ هُوَ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "عَلِمُوا أَرِقَّاءَكُمْ سُورَةَ يُوسُفَ، فَإِنَّهُ أَيُّمَا مُسْلِمٍ تَلَاهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَعْطَاهُ الْقُوَّةَ أَنْ لَا يَحْسُدُ مُسْلِمًا".

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية .

[2] سورة يُوسُفَ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية .

[4] سورة يُوسُفَ، الآية .

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء السّابع **19 – 52**

سُورَةُ هُودٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–		
﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾		
﴿أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾		
﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾		
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾		
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾		
﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا		

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾		
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾		
﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾		
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مَنِ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾		
﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾		
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾		
﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾		
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا		

﴿يَفْتَرُونَ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾		
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾		
﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾		
﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾		
﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾		
﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾		
﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا		

وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾		
﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾		
﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾		
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾		
﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾		
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾		
﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾		
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾		

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾		
﴿قَالُوا يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾		
﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾		
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾		
﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾		
﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾		
﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي		

أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾		
﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾		
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾		
﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾		
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾		
﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾		

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾		
﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾		
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾		
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾		
﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾		
﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾		
﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾		
﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ		

ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾		
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾		
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾		
﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾		
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبُّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾		
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾		
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾		

﴿وَإِنَّ كُلا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾		
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾		
﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾		
﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾		
﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾		
﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنَ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾		
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾		
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبُّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مَنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾		
﴿وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾		
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾		
سُورَةُ يُوسُفَ		
﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾		

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾		
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبُّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾		
﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾		
﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾		
﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾		
﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾		
﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾		
﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾		
﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾		
﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾		
﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾		
﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى		

هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾		
﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾		
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾		
﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾		
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾		
﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابَ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾		
﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا		

إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾		
﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾		
﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾		
﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾		
﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾		
﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾		
﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾		
﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ		

الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾		
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾		
﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾		
﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾		
﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعِ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾		
﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾		
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾		
﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾		
﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾		
﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾		

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾		
﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾		
﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾		
﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾		
﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾		
﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾		
﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾		
﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾		
﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾		
﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾		
﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهِ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾		
﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ		

لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾		
﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾		
﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾		
﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾		
﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾		
﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾		
﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾		
﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾		
﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾		
﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهِ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾		
﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا		

شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾		
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾		
﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾		
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾		
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾		
﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾		
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾		
﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾		
﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾		
﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾		

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾		
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾		
﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنَ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾		
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾		
﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾		
﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾		
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾		
﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾		
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾		
﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ		

نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾		
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾		

محتويات الكتاب 61 – 64

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع